إدواردو ساشيري

2020
31.12.2019



رواية

سؤال عينيها

ترجمة : عبد السلام باشا



سؤال عينيها

رواية

إدواردو ساشيري

ترجمة

عبد السلام باشا



سؤال عينيها

سؤال عينيها / رواية
تأليف إدواردو ساشيري
ترجمة عبد السلام باشا

الطبعة الأولى 1440 / 2019
ردمك 978-1-947836-29-7



دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
البريد الإلكتروني: info@darathar.net

إلى جدتي نيللي.

لتعليمك إياي قيمة الحوار واقتسام الذكريات.

وداع

توقَّف بنجامين ميجيل تشابارُّو فجأة وقرر أنه لن يذهب. لن يذهب ولا رجعة عن هذا. ليذهب الجميع إلى الجحيم. رغم أنه وعد بالعكس، ورغم أنهم يعدون احتفال الوداع منذ ثلاثة أسابيع ورغم أنهم حجزوا المائدة لاثنين وعشرين شخصًا في مطعم «القنديل»، ورغم أن بينيتث وماتشادو أكدا أنهما سيأتيان من نهاية العالم للاحتفال بتقاعد الديناصور.

كان توقُّفه مفاجئًا لدرجة أن الرجل الذي كان يسير خلفه، في شارع تالكاهوانو باتجاه كورينتس، كاد أن يصطدم به ويُسقطه، واستطاع تفاديه بالكاد عندما أنزل قدمه من الرصيف إلى عرض الطريق لكي يمكنه مواصلة السير. تشابارُّو يكره هذه الأرصفة الضيقة الصاخبة الكئيبة التي يسير فيها منذ أربعين عامًا، لكنه يعرف أنه لن يفتقدها بدءًا من يوم الاثنين. لا الأرصفة ولا الكثير من الأشياء في هذه المدينة التي لم يشعر مُطلقًا أنه ينتمي لها.

لا يمكنه أن يخذلهم. يجب أن يذهب. على الأقل لأن ماتشادو جاء خصيصًا من لوماس دي ثامورا، على الرغم من كل متاعبه. وبينيتث أيضا. على الرغم أن المسافة من باليرمو حتى منطقة المحاكم ليست طويلة للغاية، إلا إن المسكين مُحطم للغاية. لكن تشابارُّو لا يرغب في الذهاب. ليس متيقنًا سوى من أمور قليلة للغاية، وهذا هو أحد الأمور القليلة التي يدركها جيدًا

ينظر لنفسه في زجاج مكتبة. ستون عامًا. طويلٌ. أشيب الشعر. الأنف المعقوفة، الوجه النحيل. «اللعنة»، يجد أنه مضطر للانتهاء من هذا. يتفحص انعكاس عينيه في الزجاج. اعتادت إحدى خطيباته في أيام الشباب على السخرية منه بسبب هوسه بالنظر لنفسه في الواجهات الزجاجية للدكاكين. لم يعترف تشابارُّو بالحقيقة لها، ولا لأي امرأة مرت بحياته: لم تكن عادة النظر لنفسه في المرايا مرتبطةً بحبه أو إعجابه بنفسه. لم تكن سوى محاولة لتَعَلُم معرفة من يكون.

التفكير في هذا جعله أكثر حزنًا. يسير من جديد، كأن الحركة تستطيع تحريره من شظايا هذا الحزن الإضافي الجديد. ينظر لنفسه من حين لآخر في الواجهات الزجاجية بينما يتقدم ببطء على هذا الرصيف الذي لا تصله شمس العصر. يلمح لافتة «القنديل» على الجانب الآخر من الشارع، على مبعدة ثلاثين مترًا، إلى اليسار. ينظر للساعة: الثانية إلا ربع. لابد أن الجميع تقريبًا قد وصلوا. هو ذاته جعل موظفي إدارته يخرجون في الثانية إلا ربع لكي لا يضطروا للسير في عجالة. ستبدأ الدورة القضائية في الشهر التالي، وكانوا قد وضعوا قضايا الدورة القضائية السابقة على العربة لنقلها للمحفوظات. يشعر تشابارُّو بالرضا. إنهم فتيان طيبون. يعملون جيدًا. يتعلَّمون بسرعة. الفكرة التالية هي «سأفتقدهم»، وبما أن تشابارُّو لا يرغب في التخبط بحمق في النوستالجيا يتوقَّف مرة أخرى. هذه المرة لا يوجد من يأتي من الخلف ليصطدم به: القادمون من الأمام لديهم وقت كاف لتفادي هذا الرجل الطويل، الذي يرتدي سترة زرقاء وبنطلونًا رماديًا، والذي ينظر لنفسه الآن في زجاج إحدى وكالات اليانصيب.

يدور على عقبه. لن يذهب. قرر بشكل نهائي أنه لن يذهب. إن أسرع يمكنه اللحاق بالقاضية قبل أن تصل لحفل الوداع، لأنها تعطلت في إنهاء

إجراءات سجن احتياطي. ليست أول مرة تخطر له الفكرة، لكنها أول مرة يستطيع استجماع شجاعته المتواضعة التي يحتاجها لينفذها. وببساطة ربما كان الأمر الآخر، أي الذهاب لحفل وداعه، جحيمًا لا يجد في نفسه القدرة على الشيِّ بنيرانه. الجلوس على رأس المائدة، بينيتث وماتشادو إلى جانبيه، بينما يُشكلون ثلاثي الذاكرة الخالدة. السؤال التقليدي للبائس ألباريث، هل نوزعه على الطريقة الرومانية؟، بينما يشير للنبيذ الجيد الذي يفكر في تجرعه. لاورا تسأل الجميع تقريبًا عمن يريد اقتسام حصة كانيلوني معها، لكي لا تحيد كثيرًا عن الحمية الغذائية التي بدأتها يوم الاثنين السابق. فاريلا يسقط في إحدى نوبات الاكتئاب التي تدفعه لعناق الأصدقاء والمعارف والجرسونات بينما يتساقط لعابه. هذه الصور الكابوسية تجعله يسرع الخطى. يصعد السلالم المطلة على شارع تالكاهوانو. الباب الرئيسي لم يُغلق بعد. يدخل أقرب المصاعد إليه. لا حاجة لأن يقول لعامل المصعد إنه ذاهبٌ للطابق الخامس، لأن الجميع يعرفونه في «قصر القضاء»، بل وتعرفه الأحجار أيضًا.

يتقدم بخطى ثابتة بينما يُصدر صريرًا بحذائه على البلاط الأبيض والأسود في الممر الموازي لشارع توكومان حتى يواجه الباب العالي الضيق لإدارته. يتوقف ليفكر في ضمير المِلكية. نعم، إنها إدارته، وتخصه أكثر مما تخص المدير جارثيا أو أي مدير سبق جارثيا أو أي ممن سيخلفونه.

ترن حزمة المفاتيح الضخمة في الممر الخاوي الصامت بينما يفتح الباب الضخم. يُغلق الباب بشيء من القوة لكي تنتبه القاضية لدخول شخص ما للمكتب. لحظة: لماذا «القاضية»؟ لأنها قاضية بالطبع، لكن لماذا لم يقل إيريني؟ لأنه لا يريد، هذا هو السبب تحديدًا. ويكفيه أنه سيذهب لطلب ما سيطلب، فلا ضرورة لأن يضيف مشقة طلب هذا من إيريني وليس من الدكتورة القاضية هورنوس.

يدق دقتين خفيفتين ويسمع «أدخل». تندهش عندما تراه يعبر الباب، وتسأله عم يفعل هناك حتى تلك الساعة، ولماذا لم يذهب للمطعم حتى تلك اللحظة. في الحقيقة تسأله «ماذا تفعل هنا؟»، و»ألم يكن مفترضًا أن تكون في المطعم الآن؟»، هناك فارق. لكن تشابارُّو لا يريد الوقوع في قضية الحوار بدون ألقاب وبصيغة المخاطب المُفرد، وبشكل أكثر تحديدًا، الحوار باستخدام صيغة التخاطب الأرجنتينية، لأن هذا قد يصبح أيضا مصدرًا للاضطراب الذي قد يحكم بالفشل على غرضه الأساسي، وهو أن يطلب منها الشيء الذي استقر عليه عندما كان في شارع تالكاهوانو في تقاطعه مع شارع كورريتنس تقريبًا. ويبدو مُحبِطًا أن يُظهِر كل هذا القدر من الاضطراب أمام هذه المرأة، لكن تشابارُّو يتحكم في نفسه لأقصى حد لكي يصل لمفادة أنه يجب، بشكل حاسم ونهائي وقطعي، أن يقاطعها وأن يتخلى عن تردده وأن يطلب منها ما يبغي. «الآلة الكاتبة»، ينطق بهاتين الكلمتين، بدون مقدمات. فظ، تعس، حيوان. لا شيء من العبارات اللطيفة التمهيدية. ولا أي صيغة شائعة الاستخدام، مثل «هل تعرفين يا إيريني، لقد فكرت، ربما، من الممكن، ما رأيك»، أو أي صيغة دارجة من تلك الشائعة في اللغة الإسبانية، هذه الصيغ التي تصلح تحديدًا لكي لا يرى تشابارُّو هذه الحيرة، أو هذا العجز عن الرد بسبب المفاجأة في وجه إيريني، أو الدكتورة، أو القاضية.

يدرك تشابارُّو أنه ارتكب حماقة كالعادة. وهكذا يعود للبداية، ويحاول أن يرد على سؤال المرأة بشأن غداء الوداع الذي يُفترض أنه منعقد الآن للاحتفال به. يحدثها عن خوفه من السقوط في الحنين للماضي، وأن ينتهي به الأمر متحدثًا عن ذات الأمور المعتادة مع ذات العجائز المعتادين، والغرق في نوبة اكتئاب سخيفة، وبما أنه يقول لها كل هذا بينما ينظر لعينيها، تصل لحظة يشعر فيها أن معدته تسقط بين أمعائه، وأن عرقًا باردًا يروي جلده،

وأن جلده يتحول إلى طبلة. وبما أنه شعور عميق للغاية وقديم للغاية، وبلا طائل كالعادة، ينطلق تشابارُّو لغلق نافذة المكتب لكي يهرب بأي طريقة من هاتين العينين البنيتين. لكن، بما أن النافذة كانت مُغلقة بالفعل يقرر فتحها، على الرغم من أن البرد في الخارج لا يُطاق، ولهذا يقرر أن يغلقها مرة أخرى. في النهاية لا يجد مفرًا من العودة لمكانه مجددًا، لكنه يحرص على البقاء واقفًا لكي لا يراها مباشرة من فوق المكتب بالملف المفتوح أمامها. تُتابع إيريني حركاته ونظراته وتغيرات صوته باهتمام بالغ كالعادة. يصمت تشابارُّو لأنه يعرف أن مواصلته هذا الطريق ستحمله لقول أشياء لا يمكن التراجع عنها ولا إصلاحها. وفي اللحظة المناسبة يعود لموضوع الآلة الكاتبة.

يقول لها، على الرغم من أنه لا يعرف ما سوف يفعل بدءًا من تلك اللحظة، فإن لديه رغبة في العودة لحلمه القديم بتأليف كتاب. ما أن ينطق بهذا حتى يشعر أنه أحمق. عجوز، مُطلقٌ مرتين، متقاعد، ولديه أوهام كاتب. هيمنجواي الشيخوخة. جارثيا ماركث في ضواحي بوينوس أيرس. وفوق كل هذا بريق الاهتمام المفاجئ في عيني إيريني، أو بشكل أدق الدكتورة، وبشكل أكثر توفيقًا وأفضل فهي القاضية. لكنه يشعر بالتيه، وهكذا يضيف تعليقًا حول رغبته في خوض تجربة هذا المشروع القديم بعد أن أصبح لديه وقت أكثر، لم لا!. وهنا تدخل الآلة الكاتبة في المشهد. يشعر تشابارُّو براحة أكبر لأنه يخطو على أرض صلبة في هذا الطريق. «تخيلي يا إيريني أن أتعلم استخدام الكومبيوتر في هذا العمر، لا أستطيع. هل تعرفين، هذه الآلة ريمنجتون أصبحت جزءًا من أطراف أصابعي، كأن أزرارها هي العقلة الرابعة». (العقلة الرابعة؟، لكن من أين جاء بمثل هذا التعبير الغبي السخيف؟). «أنا أعرف أنها تشبه الدبابة، بهذا الإطار الفولاذي ذي الخمسة مليمترات وهذه اللون الأخضر الزيتوني وضجيج المدفعية في كل دقة على

الأزرار، لكن إن لم أكن سأسبب تعقيدات أو مشاكل، والأمر يتعلق باستعارة بالطبع، هذا بديهي، شهران، أو ثلاثة شهور بحد أقصى، لأن صحتي الآن لا تسمح لي بكتابة كتاب كبير كما ترين». (ها هو من جديد، كالعادة، يسخر من نفسه). «ومن جانب آخر، كل الفتيان الجدد هنا يستخدمون الكومبيوترات، وفي الرف العلوي توجد ثلاثة آلات أخرى مُغطاة، وفي أسوأ الأحوال، عندما تطلبون مني سأعيدها على الفور»، يقول تشاباڑو ، لكن لا يمكنه الاستمرار في الكلام لأنها ترفع يدًا وتقول له «لا توجد مشكلة يا بنجامين، احملها بدون مشاكل، هذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجلك»، ويبتلع تشاباڑو لعابه، لأن هناك طرقًا مختلفة للحديث وللكلام، ولا يتعلق الأمر لا بالمفردات أو الكلمات فقط، وإنما توجد نبرات ونبرات، وهذه النبرة هي الخاصة ببعض المناسبات، بعض المناسبات القليلة، المحفورة في ذاكرة تشاباڑو بجراح الحمي في أفق وحدته الرتيب، مهما انهمك ليال كثيرة في محاولة نسيانها، وأيضا ليال كثيرة استثمرها في محاولة تذكرها. ولهذا ينهض في النهاية ويقدم لها الشكر ويمد لها يده ويقبل الوجنة العطرة التي تقدمها له، ويغلق عينيه بينما يلمس جلدها، كما يفعل دائمًا كلما كانت هناك فرصة لتقبيل وجنتها، لكي يقوم بالتركيز بشكل أفضل في هذا التلامس البريء المسبب للشعور بالذنب. ويهرع فارًا تقريبًا إلى المكتب المجاور حيث يرفع الآلة الكاتبة بسرعة ويهرب بدون النظر خلفه عبر الباب الضيق العالي.

يجوب الممر مرة أخرى، الآن أصبح أكثر خواءً عما كان قبل عشرين دقيقة، ينزل في المصعد رقم ثمانية، يتقدم عبر الممر إلى جهة شارع تالكاهوانو ويخرج من الباب الصغير بينما يحيي الحراس بإيماءة من رأسه، يسير حتى يعبر شارع توكومان، وينتظر خمس دقائق ويقفز كيفما اتفق في أتوبيس رقم 115.

عندما تدور الحافلة في ناصية شارع لافايه، يدير تشاباڑو عنقه إلى

اليسار، لكنه لا يستطيع رؤية لافتة «القنديل» من هذه المسافة بالطبع. لابد أن إيريني، وبشكل أدق الدكتورة، أو بالأحرى القاضية، تتجه إلى هناك الآن، لكي تشرح للآخرين أن الشخص المُحتفى به قد فرَّ. لن يكون الوضع خطيرًا للغاية. كلهم مجتمعون وجوعى.

يتحسس الجيب الخلفي للبنطلون، يُخرج الحافظة ويضعها داخل السترة. لم يُنشل خلال سنوات عمله الأربعين، ولا ينتوي التعرض لأول سرقة في أخر أيام عمله في المحكمة. وصل إلى محطة أونثيه وسار بأقصى سرعته. سيكون قطار رصيف 3 هو أول القطارات المغادرة باتجاه مورينو، ويتوقف في كل المحطات. في العربات الأخيرة، أكثرها سهولة في الركوب، وجدَ أن كل المقاعد مشغولة، لكن بدءًا من العربة الرابعة تفيض المقاعد الخاوية. يتساءل كالعادة، إن كان من يقفون على أقدامهم في العربات الأخيرة يفعلون هذا لأنهم سينزلون سريعًا أم لأنهم يريدون فَرْد سيقانهم أم لأنهم أغبياء. ويشعر تشاباڑّو بالامتنان لأنهم يفعلون هذا، لأنه يريد الجلوس بجوار النافذة، على الجانب الأيسر لكي لا تضايقه شمس العصر، ويفكر ماذا سيفعل بحياته بدءًا من تلك اللحظة.

1

لست متيقنًا تمامًا من الأسباب التي تدفعني لكتابة حكاية ريكاردو موراليس بعد كل هذه السنوات. يمكنني القول إن ما حدث لهذا الرجل كان له دائمًا تأثيرَ سحر غامض عليَ، كأنما يمنحني الفرصة لكي أرى انعكاسًا لأشباح مخاوفي في تلك الحياة المُحطمة، عبر الألم والمأساة. في مرات كثيرة فوجئت بالشعور بشيء من البهجة المشوبة بالذنب إزاء مآسي الآخرين، كأن وقوع هذه الأمور المرعبة لآخرين ينأى بحياتي، على نحو ما، عن هذه المآسي. ما يشبه طوق النجاة المولود من رحم قانون المصادفات الغامض: إن حدث هذا الأمر لفلان، من الصعوبة بمكان أن يتكرر مع معارفه، وأنا بينهم. ليس لأنني يمكن أن أتباهي بحياة مترعة بالنجاحات، لكن لدى مقارنة تعاستي بموراليس أجد نفسي رابحًا. على أية حال، لا يتعلق الأمر بحكاية قصتي أنا وإنما قصة موراليس، أو قصة إيسيدرو جومث، وهي ذات القصة لكن بالنظر لها من الجانب الآخر، بالنظر لها بالعكس، أو ما يشبه هذا.

ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يدفعني لكتابة هذه الصفحات. رغم أن هذه الدهشة الشريرة المرضية لها ثقلها في الأمر. أعتقد أنني أحكيها لأنني أتوفر على الوقت. الكثير من الوقت، الكثير للغاية. وقت كثير لدرجة أن التفاهات اليومية التي تُشكل حياتي تذوب بسرعة في العدم الرتيب الذي يحيط بي. التقاعد أسوأ مما تخيلت. كان يجب أن أكون قد تعلمت هذا. لا أعني التقاعد، وإنما أن الأشياء التي نخشاها تكون أسوأ مما كنا نتخيل لدى

وقوعها. خلال سنوات رأيت زملائي في المحكمة يودعون العمل بالتفاؤل الساذج بأنهم، في النهاية، سيستمتعون بوقتهم وبحيواتهم. رأيتهم يرحلون مُقتنعين بأنهم فازوا بشيء يقل قليلًا عن الجنة. ورأيتهم يعودون مُحطمين، بعد أن انهزموا سريعًا أمام اكتشاف الحقيقة. خلال أسبوعين، أو ثلاثة على الأكثر، يستنفدون كل المُتع المفترضة التي كانوا يعتقدون أنهم أجَّلوها طوال سنوات الرتابة والعمل. من أجل ماذا؟ من أجل الذهاب للمحكمة في أي ظهيرة، كمن لم يكن ينتوي هذا، لكي يتحدث قليلًا، لكي يتناول القهوة بل ولكي يعرض يد العون في قضية مُعقدة إلى حدٍّ ما.

لهذا، لأنني رأيت هؤلاء الرجال المأزومين بشيخوخة خاوية مرات كثيرة، وبسبب المناسبات الكثيرة التي رأيت فيها أعينهم تتوسل من أجل إنقاذ مستحيل، أقسمت لنفسي أنني لن أسقط في هذا الحضيض عندما يحين دوري. لا مجال للضغط على زر التلفزيون الساحر. لا مجال لرحلات النوستالجيا لاطَّلع على حال الفتيان. لا مجال للمشاهد البائسة المثيرة للشفقة التي تدوم خمس ثواني لمن يحالفهم الحظ بمواصلة العمل.

حسنًا، تقاعدت منذ أسبوعين وأصبح لدي وقت فراغ كبير. ليس لأنه لا تخطر على بالي أمور يمكنني القيام بها. هناك الكثير من الأشياء التي تخطر على بالي، لكنها جميعًا تبدو عديمة النفع. ربما كانت الكتابة هي أقلها في انعدام النفع. أن ألعب دور الكاتب خلال شهرين، كما كانت سيلفيا تقول لي عندما كانت تحبني. في الحقيقة، أنا أخلط بين حقبتين مختلفتين، وأيضًا بين طريقتين في توصيفي. عندما كانت تحبني، كانت تَعدني بمستقبل أصبح فيه كاتبًا، ربما كاتبًا شهيرًا. بعد ذلك، عندما ذاب حبها في ضجر حياتنا الزوجية، كانت تتحدث عن لعب دور الكاتب من موقع السخرية والاحتقار اللاذع الذي اختارته لكي تتحصن وتطلق عليَ رصاصاتها. لا يمكنني أن أشكو،

لأنني فعلت نذالات كثيرة معها أيضًا. شيء مؤسف ألا يتبقى من عشرة سنوات من الزواج سوى الحصيلة المخجلة من الأذى والجروح المُتبادلة. على الأقل كان هناك نقاش مع سيلفيا. في زواجي الأول، مع مارثيلا، لم نكن قادرين على التحدث عن هذه الأمور، ولا أي أمور أخرى. تبدو هذه كذبة. تقاسمت حياتي مع امرأتين وبالكاد احتفظ من كلتيهما بحفنة صغيرة من الذكريات الشائهة. هذا النأي لكلتيهما في ذاكرتي يُعتبر دليلًا آخر (كأن هناك حاجة له) على أنني أصبحت عجوزًا. تجاوزتُ علاقتي زواج طويلتين بحيث أصبحتُ أفضلُ البقاء في قوقعة العزوبية المقفرة. على أية حال فإن الحياة طويلة.

ربما لم آخذ موضوع الكتابة على محمل الجد مُطلقًا. ولا حتى عندما كانت سيلفيا تقول لي هذا بإعجاب، ولا بعد ذلك عندما كانت تبصق على سخريتها. إن كنت قد حلمت ذات مرة (لأن بعض الأحلام تفرض نفسها على أكثر القلوب ترددًا وشكًا) بهذا المشهد المثالي للكاتب في الاستوديو الخاص به، ومن الأفضل أن تكون نافذته عريضة، ومن الأفضل أن يكون مُطلًا على البحر، ومن الأفضل أن يكون على صخرة عالية لا يرحمها الطقس.

من الواضح أن ارتداء زي الراهب لا يجعل من المرء راهبًا. فلم يكن كافيًا أن أُعيد ترتيب غرفة المعيشة في بيتي على نمط «صومعة الكاتب بينما يكتب» (يا له من تعبير قبيح، «الكاتب يكتب» يبدو كركلة في الكبد، كم أرى ما أفعله رديئًا). هذا على الرغم من أن الغرفة كانت جميلة. لا ينقصها سوى البحر والعاصفة، هذا حقيقي. لكن المكتب مُرتَّب. صف ضخم تقريبًا من الأوراق على الجانب. كراس ملاحظات، بدون أي ملاحظة، على الجانب الآخر. والآلة الكاتبة في الوسط، ماكينة رمنجتون مهيبة بلون أخضر زيتوني، أصغر قليلًا من دبابة حربية لكنها مصنوعة من ذات الفولاذ السميك، كما

كان الزملاء يتندرون في المحكمة قبل سنوات.

أقتربُ من النافذة، التي لا تطل من صخرة على عاصفة محيطية كما قُلت من قبل، وإنما على حديقة صغيرة منمقة أبعادها أربعة في خمسة أمتار، وانظرُ إلى الشارع. لا يمر أي شخص، كالعادة. قبل ثلاثين عامًا كانت هذه الشوارع ممتلئة بالبشر. لكنها أصبحت كالصحراء الآن. رحل الفتيان، وكبار السن داخل بيوتهم. مثلي تمامًا. يبدو هذا لطيفًا، ربما نكون حفنة من الأشخاص فقط من نمتلك مكتبًا مُجهزًا لكتابة رواية.

في الحقيقة وبصدق شديد، أعتقد أن هذه الأوراق التي أرغب في ملئها بالكلمات سينتهي بها الأمر مثل التسع عشرة التي سبقتها، ككرة في الجانب الآخر من الغرفة. بينما أقوم باستبعاد المسودات، لا يمكنني تفادي الغواية الرياضية بإلقائها، بأرجحة قوية من المعصم وبحظ أقل توفيقًا، إلى سلة حفظ الشمسيات التي ورثتها عن شخص لا أتذكره. وأشعر بفرحة شديدة عندما أستطيع إدخال الورقة في السلة، وأشعر بحنق شديد بسبب الإحباط البسيط لرمياتي الخاطئة، لدرجة أنني أكون مُهتمًا دائمًا بالمحاولة التالية أكثر من الاحتمال البعيد بأن تكون هذه، في النهاية، بداية الحكاية التي يُفترض أنني انتويت حكايتها. من الواضح أنني تحولي إلى كاتب أمر بعيد الاحتمال كما هو تحولي إلى لاعب كرة سلة في الستين من عمري.

خلال أيام عديدة حاول العثور على إجابات لبعض القضايا المحورية في العمل الذي أرغب في كتابته، وكنت أخشى مما يحدث لي الآن تحديدًا: أن تتبخر بقايا الجسارة التي ما زلت أمتلكها عندما أجلس أمام الآلة الكاتبة. أول ما خطر على بالي أنني لا أمتلك الخيال الكافي لكتابة رواية. عثرت على حل، وهو أن أكتبها بدون اختراع أي شيء، أي أن أحكي قصة حقيقية، عن شيء كنت شاهدًا عليه، وإن كان هذا بشكل غير مباشر. لهذا قررت كتابة

حكاية ريكاردو موراليس. كما قلت في البداية، ولأنها حكاية لا تحتاج أي إضافة مني، ولأنني أعرف أنها حقيقية، ربما أجرؤ على حكيها حتى النهاية، بدون الشعور بالخجل من الكذب لملء الفراغات، أو لكي أجعلها أطول أو لكي أقنع من يقرأها بألا يلقيها في القمامة بعد خمس عشرة صفحة.

بعد أن تم تحديد الموضوع، كانت أول صعوبة عملية هي اختيار ضمير الرواي الذي سوف يحكي هذه القصة. عندما أتحدث عن نفسي هل سأقول «أنا»؟ أم سأقول «تشباررو»؟ من المثير للسخرية أن تكون العثرة كافية لإيقاف كل طاقتي وإلهامي الأدبي.

لنفترض أنني اخترت ضمير الغائب للقصة. ربما كان هذا أفضل لكي لا أجد نفسي مضطرًا للتورط في انطباعات وخبرات شخصية إلى حد كبير. هذا موجود بالطبع ولا أنتوي القيام بالتطهر عبر هذا الكتاب، أو عبر نطفة هذا الكتاب، لكي أكون أكثر دقة. لكنني أشعر بالراحة أكثر مع ضمير المتكلم. ربما بسبب الخبرة، أعتقد انه سيكون مريحًا أكثر. وماذا أفعل مع أجزاء الحكاية التي لم أكن شاهدًا عليها بشكل مباشر، تلك الأجزاء التي أحدسُ وقوعها على نحو ما لكنني لا أعرفها بدقة. هل أحكيها أيضًا؟ هل أخترعها من الألف إلى الياء؟ هل أتجاهلها؟

فلنسر خطوة فخطوة. لنجعل الأمور أكثر سهولة. سأبدأ بضمير المتكلم. لدي صعوبات كثيرة فلا طاقة لي بمواجهة صعوبات أخرى. وسيكون من الأفضل أن أحكي ما أعرف وما أتخيل، فبدون هذا لا يمكن لأي شخص أن يفهم أي شيء، أنا نفسي لم أكن لأفهم . وشيء آخر مُعقد، اللغة والمفردات: هل أستخدم المفردات الشائعة الجافة؟ أم أحذفها من لغتي المكتوبة؟ كل هذا القدر من الشكوك، اللعنة. ها هو النقد الذاتي مرة أخرى. في النهاية سأنتهي إلى مفادة أنني شخص بذيء اللسان.

وهناك شيء آخر أسوأ: أعرف أنني سوف أكتب حكاية موراليس، التي يجب أن تبدأ من البداية. لكن ما هي هذه البداية؟ رغم أن تقنياتي السردية تعود للعصر الحجري، فأنا قادر على إدراك أن الطريقة القديمة «كان يا ما كان» لن تكون مناسبة في هذه الحالة. إذن؟ ما هي البداية؟ إنها ليست حكاية لا تمتلك بداية. المشكلة أن لها أربع أو خمس بدايات مختلفة ممكنة. شاب يودع زوجته بقبلة، في الممر المفضي إلى الشارع، قبل أن يذهب للعمل. أو شخصان ناعسان خلف مكتب وينتفضان عندما يرن جرس الهاتف الحاد. أو فتاة حديثة التخرج كمُعلمة تستعد للظهور في صورة جماعية. أو موظف قضائي، أي أنا، بعد ثلاثين عامًا تقريبًا من هذه البدايات المحتملة يتلقى رسالة مخطوطة باليد من مُرسلٍ غير مُنتظر.

أي بداية من هذه سأستخدم؟ ربما أستخدمها جميعًا، أختار أي منها للبداية وبعد ذلك أضع البقية في الترتيب الذي يبدو لي أقل اعتباطًا، أو حسب ما أكتبها. ربما لا توجد أهمية كبيرة إن فشلت. لقد أمضيت بضعة أمسية بينما أقوم بهذا. وفي أسوأ الأحوال، إن دمرت عددًا كافيًا من المسودات، بدون شك سيتحسن أسلوبي على المدى البعيد.

2

30 مايو 1968 كان أخر يوم يتناول فيه ريكاردو أجوستين موارليس إفطاره مع ليليانا كولوتو ، وخلال ما تبقى من حياته لم يتذكر فقط عم تحدثا، وإنما أيضًا ما تناولا، ما أكلا، ولون قميص نومها، والأثر المبهج لشعاع شمس يسقط عليها من الجانب، على الوجنة اليسرى، بينما تجلس في المطبخ. عندما حكى لي موراليس هذا لأول مرة أعتقدت أنه يبالغ، أنه لا يستطيع تذكر كل هذا القدر من التفاصيل. لكن خطئي في التقدير يعود إلى أنني لم أكن أعرف موراليس جيدًا. بوجهه الأبله في ذلك الوقت، كان شخصًا على قدر كبير من الذكاء وقوة الذاكرة والقدرة على الملاحظة. لم أر له شبيها حتى ذلك الوقت، ولن أرى له شبيهًا. كان هناك دافع لدقة تفاصيل هذه الذكرى لدى موراليس. هذا الرجل كان يتذكر كل شيء متعلق بزوجته بهذه الطريقة.

بعد ذلك، عندما استطاع موراليس أن يحدثني عن نفسه، كان على أن استمع إليه بينما يصف نفسه كشخص غريب الأطوار، منطو، مصيره جدير بهذه التفاهة. بدون شفقة، كان موراليس يصف نفسه كشخص يمر على العائلة والمدارس والمهن بدون أن يترك أي بصمة لدى الآخرين. لم تكن لديه أي صفة جيدة ولا خاصة، ودائمًا ما بدا له هذا عادلًا. وليليانا أيضًا، لأنها كان تتمتع بكلتا الصفتين. كانت متميزة وخاصة لأقصى حد. لهذا احتفظ بذلك الصباح في ذاكرته، وليس لأنه الصباح الأخير. احتفظ به كما احتفظ بكل الأصبحة السابقة خلال العام ونيف العام الذي مر على زواجهما.

عندما حكى لي في وقت لاحق ما حدث في ذلك الإفطار بإسهاب شديد في التفاصيل، لم يفعل هذا كبقية البشر الذين يحاولون إعادة بناء مواقف أو مشاعر فقدوها للأبد باستخدام شظايا وهمية تقريبًا، أو عن طريق ذكريات مجتزئة من مناسبات شبيهة. لكن موراليس ليس هكذا. لأنه كان يشعر أن الحياة مع ليليانا كانت سعادة مفرطة، لا تشبه ما عاشه بقية حياته في أي شيء. وبما أن الكون يميل للتوازن، آن آجلًا أو عاجلًا لابد له أن يفقدها لكي تعود الأمور إلى نصابها الصحيح. كل ذكرى من ذكرياته معها كانت مصبوغة بذلك الشعور بالغرق الوشيك، بكارثة تدق الأبواب.

لم يكن مميزًا في أي شيء مُطلقًا، سواء في المدرسة أو في الرياضة، أو في العائلة حيث لم يتلق أكثر من مديح عابر لميزة بلا أهمية في الحقيقة. لكن في السادس عشر من نوفمبر 1966 تعرَّف على ليليانا، وكان هذا كافيًا لتغيير حياته. معها، من أجلها وبفضلها أصبح مختلفًا. منذ رآها تعبر باب البنك الدوار، وتسأل أحد الحراس عن طابور الإيداعات، والاقتراب من شباك أربعة بخطوات قصيرة واثقة، شعر أن هذه المرأة ستغير حياته. مُتمسكًا باليقين اليائس من أنه مصيره مرهون بهذه المرأة، جرؤ موراليس على تجاوز خجله، وعلى أن يرتجل حوارًا معها بينما يعد المال، وابتسم لها ابتسامة عريضة، ونظر في عينيها بثبات، وتمنى بصوت عال أن تعود قريبًا وراجع الملف ليعرف أي شركة تمتلك الحساب الجاري الذي تم به الإيداع، واختلق عذرًا لكي يهاتفها هناك ويحصل على معلومة ما عن هذه الشابة.

بعد مرور فترة، عندما أصبح بإمكانهما أن يُعتبرا كخطيبين رسميًا، اعترفت له ليليانا بأن ذلك التهور، وتلك الملاحقة المدروسة بدون الاستسلام ولا التراجع أمام الرفض، أبهجاها كثيرًا لدرجة أنها قررت قبول دعواته. وعندما عرفته بشكل أفضل، عندما أدركت حياءه وتردده وخجله

الأبدي، رأت هذه الشجاعة غير المعهودة كأفضل دليل على الحب الحقيقي. كانت ليليانا تقول إن رجلًا قادرًا، بسبب حب امرأة، على تغيير طبيعته، يعتبر رجلًا جديرًا بالاستجابة له. لم ينس ريكاردو موراليس هذا الحوار أيضًا، وقرر الاستمرار هكذا للأبد من أجلها. لم يشعر من قبل أنه جدير بأي شيء، وبالأحرى بامرأة شبيهة. لهذا قرر أن يستمتع لأقصى حدٍّ، بينما يكون هذا متاحًا. حتى ينفك السحر ويعود كل شيء ليصبح فئرانًا وقرع كما في حكاية سندريلا.

من أجل كل هذا سيتذكر موراليس للأبد أن ليليانا، في يوم 30 مايو 1969، كانت ترتدي قميصَ نوم أخضر فاتح، وجمعت شعرها في كعكة بسيطة تنفر منها بعض الشعيرات الكستنائية، وأن الشمس كانت تدخل مائلة عبر نافذة المطبخ وتسقط على وجنتها اليسرى وتجعلها متقدة وأكثر جمالًا، وأنهما شربا الشاي باللبن وأكلا خبزًا مُحمصًا مع الزبد، وأنهما تحدثا عن أي قطع أثاث ستكون مناسبة للصالة، وأنه نهض من المائدة لكي يأتي من غرفة الطعام ببعض الرسومات التي وضعها لتوزيع الأثاث بأكثر طريقة متناسقة ممكنة، وأنها ضحكت من هوسه بالتخطيط لكل شيء، وأنها نظرت له بعمق وابتسمت وقالت له ألا يبذل كل هذا الجهد مع هذا الأثاث القديم، لأنهما آن آجلًا أم عاجلًا يجب أن يحولا الصالة إلى غرفة نوم. ولابد أنه، البطيء وربما الشارد، والمُغيب في هيامه بهذه المرأة التي تنتمي لمجموعة شمسية أخرى، لم ينتبه للتلميح، رغم أنه لم ينس الإمساك بخصرها لكي يسيرا معًا حتى باب الشارع، لكي يقبلها ببطء في البوابة، لكي يودعها بيده بينما يخرج، بدون أن يعرف أنه كان وداعًا أبديًا.

سينما

يضغط بنجامين تشاباڒُو مرات عديدة على زر المسافة الفاصلة في الآلة الكاتبة لكي يحرر الورقة. يمسكها من أطرافها، بأطراف أصابعه تقريبًا، وكأنها قنبلة بدون فتيلة أمان، يودعها فوق ست عشرة أو سبع عشرة ورقة أخرى نجت من الطيران حتى السلة ككريات. يشعرُ بتأثر خفيف عندما يلاحظ أن الأوراق المكتوبة أصبح تشكل هيئة لها سُمْك ما ضئيل للغاية.

ينهض بينما يشعر بالرضا. قبل يومين كان يائسًا لتيقنه من أنه لن يستطيع كتابة روايته مُطلقًا، بعد أن كان غارقًا في ضبابية البداية. الآن أصبحت هذه البداية مكتوبة، جيدة أو سيئة لكنها مكتوبة. يشعر بالسعادة لهذا، على الرغم من أنه ما زال يشعر باللهفة. لكنها اللهفة على المواصلة، على حكي كل ما حدث لهؤلاء الأشخاص. يتساءل إن كان هذا هو شعور الكُتَّاب عندما يحكون. هذا القدرة الكلية المتواضعة على اللعب بمصائر وحيوات شخوصهم. ليس متأكدًا، لكن بغض النظر عن أي شيء، فإن هذا الشعور يبهجه.

ينظر للساعة ويرى أنها السابعة مساءً. ظهره يؤلمه. ظل جالسًا طوال اليوم تقريبًا. يقرر مكافأة نفسه والاحتفال بالإنجاز المبدئي. يبحث عن حافظته في رف، يتأكد من أنه يمتلك بعض المال ويذهب للسينما. مشاهدة هذا الفيلم أو ذاك ليست أكثر ما يمتعه في السينما، وإنما معرفته بأنه سيحكيه

بعد ذلك لإيريني، عندما يراها. سيحدثها عن هذا عرضًا، كأنما يتكلم عن أمر هامشي، كمن لا ينتوي هذا. وهي ستسأله عن الفيلم. إنها تحب السينما. أذواقهما متشابهة. وشيء ما ينبئ تشابارُّو أن إيريني ستبتهج إن أمكنهما الذهاب معا للسينما. لا يمكنهما بالطبع. لا مجال لهذا. وربما كانت فكرته، في نهاية الأمر. من أين أتى بأنها ستبتهج لمصاحبته؟ من رغبته في أن يبهجها هذا. هل هو متيقن على أي نحو؟ لا، مُطلقًا، على الإطلاق.

3

عندما رنَّ جرس هاتف مكتب القاضي يوم 30 مايو 1968 في الثامنة وخمس دقائق صباحًا، كنتُ بالغ الإجهاد فخلطتُ رنين الجرس بما كنت أحلم، وبعد الرنَّة الرابعة أو الخامسة أمكنني فتح عيني. لم أرفع السماعة في الحال، كان ولوجي إلى عالم اليقظة أمرًا صعبًا يشق إكماله على الفور بالدخول في حوار هاتفي.

على أية حال، سرعان ما شتت بدرو رومانو انتباهي بقفزاته وصياحه عندما أخذ يدور حولي. كان يحتفل بهذه المكالمة وأنا، بشيء من الإذعان المنطقي، تقبَّلت دوري في احتفاله برسم الضجر على وجهي بينما أفرك عيني قبل الرد على الهاتف. أمضينا الليلة هناك، في مكتب القاضي، بينما نتمدد من حين لآخر على تلك الأرائك الكبيرة ذات الجلد الداكن، أحيانا ننعس بالرأس والذراعين متكئين على المكتب. عندما بدأ يقفز، ركل رومانو صنينة العشاء بالأطباق، وسقط أحد الفناجين التي استخدمناها كأكواب بجوار المكتبة. واستغرق مني الأمر ثانية أخرى حتى قمت بالرد، وفي عقلي سببتُ القاضي الأحمق، الذي يصر على أن نقضي الليلة هناك عندما تحل النوباتشية التي تدوم خمسة عشر يومًا. أسبوع لقسم رومانو وأسبوع لقسمي، لكن كيف نحل مشكلة اليوم الخامس عشر؟ قرر الأحمق فورتونا لاكاييه، بفرمان سلطوي، أن يعكر حياتينا معا. كانت القضايا تتوزع حسب قسم الشرطة

الواردة منه، باستثناء الجرائم الخطيرة، أي جرائم القتل. في اليوم الخامس عشر من النوباتشية كانت هذه الجرائم تتوزع بين كلا قسمي المحكمة حسب ساعة الإبلاغ التي تقوم بها الشرطة. كان رومانو يحتفل بذراعيه إلى أعلى بينما يصيح «الثامنة وخمس دقائق يا عزيزي تشابارُّو ، الثامنة وخمس دقائق»، لأن رنين الهاتف في تلك الساعة تحديدًا يعني الإبلاغ عن جريمة قتل، وكان رومانو يحتفل بأن الساعة قد تجاوزت الثامنة، لأن الساعات الفردية كانت تخصه، والساعات الزوجية تعود لي، وتخلصَ للتو من ملف ثقيل ومعقد بسبب خمس دقائق لا غير.

الآن بينما أفكر في هذا، الآن بينما أكتب هذا، يمكنني ملاحظة بأي تفاهة كبيرة كنا نتصرف. كأن الأمر يتعلق بمنافسة رياضية. لم نتوقف مُطلقًا في أية لحظة لنفكر أن رنين الهاتف قبل الثامنة أو بعد الثامنة بخمس دقائق يعني أن هناك شخصًا ما قد قُتِل للتو. بالنسبة لنا كانت مجرد منافسة بسيطة في المكتب: من يقوم بالعمل؟ أنا أم أنت؟. لنر من هو الأوفر حظًا والأشطر. كان رومانو على هذا الحال. ورغم أنني لم أكن أمقته ولا أحتقره في تلك الفترة بعد، فقد كان أمامه شيء من الوقت، ليس بالطويل، ليكشف لي أنه شخص جدير بالاحتقار، إلا أنني شعرت في هذه المرة برغبة جامحة في كسر الهاتف على رأسه. بدلًا من هذا ارتسم على وجهي تعبير الهزيمة، وسعلت لجلي حنجرتي ورفعت السماعة وقلت بصوت جاد: «المحكمة الابتدائية، صباح الخير».

4

هبطت السلالم المؤدية لشارع تالكهوانو بينما ألعن حظي. في تلك الفترة كنت أنتقد نفسي، بالأحرى ألوم نفسي، لأنني لم أنه دراسة القانون. وفي مناسبات مثل هذه كان لومي لنفسي يبدو مُقنعًا بشكل كبير. إن كنت قد أنهيت دراستي -كنت أقول لنفسي-، كان يمكنني أن أصل إلى سكرتير محكمة بعد أن أصبحت في الثامنة والعشرين من عمري، بعد عشرة سنوات من الخبرة، ولم أكن سأظل ساكنًا، عالقًا، مُسمَّرًا بمسامير صغيرة في محكمة الإجراءات اللعينة هذه كمجرد مساعد سكرتير. وربما كنت سأصل إلى نائب عمومي بعد ذلك، لم لا؟ أو محام عمومي أيضًا. ألم أكن مُتعبًا من رؤية تحول صفوف موظفي القضاء إلى جيش من البلهاء الذين يحققون نجاحًا مهنيًا، ويترقون ويطيرون، ويمكنهم التحليق بعيدًا عن وظائف مثل وظيفتي؟ كنت مُتعبًا. بالتأكيد كُنت مُتعبًا.

«عُقدة مدير القسم». لابد أن هناك توصيف علمي لعلتي. «يُطلق على الموظف القضائي الذي لم يحصل على شهادة القانون، ولهذا يقتصر على درجة رئيس إداري لقسم ما. ويمارس سلطة هامة على المتدربين والمساعدين والسعاة، لكنه لن يستطيع مُطلقًا، طوال حياته القذرة اللعينة، أن يتجاوز هذه الدرجة الوظيفية، ولهذا سيحمل للأبد هذه الفشل بينما يرى كيف يتجاوزه آخرون، أحيانًا أكثر جدارة وقدرة وفي أحيان أكثر يكونون أكثر حمقًا وغباء بلا حدود، وينطلقون مثل نيازك وشهب في السماء المرصعة بالنجوم».

توصيف جميل، يمكنني إرساله للمطبوعات المتخصصة في الأمور القضائية. ربما سيرفضونه بسبب «الحياة القذرة اللعينة» أو «أكثر غباء وبلاهة». أو، على الأرجح، لأن من يديرون هذه المطبوعات حاصلون على شهادة القانون بالفعل.

ألبرتو ريباديرو، أول مدرائي عندما التحقت بالعمل كمتدرب، قال لي حقيقة مُطلقة عُليا: «اُنظر يا عزيزي تشاباريتو: المحاكم تشبه الجزر؛ يمكنك أن تقع في تاهيتي أو في سينجس ينج». وجه ذلك المعلم القديم، الذي كان ينظر لي عبر الخبرة الرمادية التي أعاني منها الآن بنفسي، كان يلمح لي بشكل واضح إلى أنه من سكان الجزيرة الأخيرة. وأضاف بينما ينظر لي بحزن من يعرف أنه يقول الحقيقة غير المفيدة: «وأمر آخر يا فتى، الجزيرة تعتمد على القاضي الذي يكون من نصيبك. إن كان من نصيبك شخص لطيف، فأنت من الناجين. وإن كان من نصيبك ابن عاهرة، فالأمر مُعقد. لكن أسوأهم هم الأغبياء يا تشابارُّو . احذر الأغبياء، احذرهم كثيرًا. إن كان من نصيبك قاض غبي فأنت ضائع لا محالة».

هذه الحكمة التي نطق بها ألبرتو ريباديرو، التي تستحق مكانًا مميزًا، بحروف برونزية، بجوار التمثال ذي العينين المعصبتين في مدخل قصر القضاء، كانت تدق في رأسي بينما أهبط السلالم وأحاول التركيز لأعرف أي أتوبيس يجب أن أستقل. لأنني كنت أعرف في يوم 30 مايو 1968 أنني تائه. كنت أعمل في محكمة تسير بشكل جيد، لكنها أصبحت الآن بين يدي غبي أحمق. وهذا الغبي الأحمق من أسوأ الأصناف: غبي راغب في الترقي السريع. لأن الغبي الذي يشعر أنه وصل لأقصى ما يستطيع، يميل إلى تقليص أفعاله وتحركاته لأقصى حد. إنه يدرك، حتى وإن كان يدرك هذا بشكل مبهم، أنه شخص غبي. وإن كان يعتقد أنه قد وصل للقمة، يشعر

بالرضا. ولهذا يشعر بالخوف. يخاف أن يدرك الآخرون أنه غبي من أول نظرة. يخاف أن يصدر أمرًا يكشف للآخر، إن لم يكونوا قد انتبهوا، أنه غبي. ويميل للدعة والراحة. يقلل تحركاته لأقصى حد ويقف على هامش الحياة. ومرؤوسوه، بالتبعية، يمكنهم العمل في هدوء، ويقومون بما يعرفون، بل والتوليف بين معارفهم ونيات رئيسهم وقائدهم وجعله يبدو ذكيًا أو، على الأقل، أقل غباءً.

لكن الغبي الذي يريد الترقي لديه مشكلتان: بدايةً يشعر أنه مليء بالطاقة والحيوية، يفيض بالمبادرات. طاقة وحماس ومبادرات تبزغ منه كمياه النبع، ويرغب في استعراضها بدون تحفظات ولا مخاوف أمام رؤسائه، لكي ينتبهوا إلى أنهم عثروا في النهاية على جوهرة مهدرة في منصب أقل من إمكانياته وجدارته الروحية والفكرية. وهنا تتداخل المشكلة الثانية: هذا النوع الخاص من الأغبياء يتمتع بالبراءة، بالإضافة للجرأة والجسارة. لأن حلمه في الترقي يعني أنه يشعر بالجدارة والاستحقاق لهذا، ويمكنه أن يصل للشعور بأنه يتلقى معاملة غير عادلة سواء في الحياة أو من الآخرين لكي يمنعوه من تحقيق طموحاته، التي يعتبرها مشروعة تمامًا بدون أي شك. وهكذا يجعل الاندفاع والبراءة من الغبي الأحمق شخصًا خطرًا. يجعلانه تهديدًا للآخرين أكثر منه تهديدًا لنفسه، تحديدًا الآخرين الذين يخضعون لأوامره. أحدهم، على سبيل المثال، يجب أن يخرج من الإقامة الهانئة في الإدارة لكي يذهب إلى مسرح جريمة. ولهذا تحديدًا يهبط سلالم شارع تالكهوانو وبين شفتيه مسبحة من السباب.

كنت أنا ذلك المتضرر الذي كان يشعر في أعماقه أن القاضي الذي يرغب في أن يبدو كطفل مجتهد أمام رؤسائه في مجلس الاستئناف ليس الأحمق الغبي الوحيد في الحكاية، وإنما يجب أن يُضاف إليه ذلك الأحمق الآخر الذي لم

ينته من دراسة للقانون بسبب خمول همته وميله للراحة ولشروده، وبالتالي لن يصل طوال حياته لمنصب يفوق نائب المدير، وبالتالي يبدو كقطار يصل لمحطته النهائية ويجد أمامه أحد تلك المصدات من الخشب والحديد، علامة لا تخطئها العين على أنه قد وصل للنهاية. طريق ميت، حارة مسدودة، هذا هو كل شيء. ومنذ تلك اللحظة سيصطف أمام عدد لا نهائي من المديرين الذين سيعطونه أوامر يجب أن يطيعها لأنهم رؤسائه ولأنهم حاصلون على شهادة القانون، وأمام عدد لا نهائي من القضاة الذين يعطون الأوامر للمديرين وهؤلاء ينقلونها للمرء، أوامر مثل هذا الأمر الذي كنت أطيعه تحديدًا. وكان هذا الأمر يعني أنه في كل جريمة قتل تحدث أثناء النوباتشية يجب على النائب الأول للقسم الذي تكون القضية من نصيبه أن يذهب إلى مسرح الجريمة ليشرف على عمل الشرطة.

مرة واحدة فقط، الأولى والأخيرة، جرؤت على سؤال القاضي، بينما أحاول ألا أبدو متعجرفًا، ما هو النفع من وراء مثل هذه المهمة بينما تكون الشرطة الفيدرالية هي المُكلفة بإجراء المرحلة الأولى من التحقيقات. وردَّ جلالته بأن هذا لا يهم، وأنه يريد أن يتم الأمر هكذا. وكانت هذه هي إجابته، وشعرتُ، أثناء الصمت الذي تلى كلماته، أنني فأر متسول، يجب أن يصمت عن كل ما يعرفه الحاضرون؛ أن القاضي الجديد الذي أعمل معه ليس سوى أحمق غبي وأن رؤساء الأقسام لن يقولوا شيئًا. وأن سكرتير الدائرة رقم 18 لا يفكر في الاعتراض لأنه اكتشف أن رئيسه الجديد غبي أحمق بالفطرة، وبالتالي كان مستعدًا لتفعيل كل الأفكار الممكنة لكي ينطلق إلى جزيرة جديدة تهب عليها رياح ألطف. وأن خوليو كارلوس بيريث، من الدائرة 19، أي من دائرتك، رئيسك المباشر، لم يكن يدرك تقريبًا أن القاضي أحمق غبي، لأنه أيضًا كان كذلك، وعلى درجة مشابهة، وبالتالي فأنت ضائع.

ماذا يتبقى لك إذن؟ لا شيء. لا يتبقى لك أي شيء. أو قد يتبقى لك، على أقصى تقدير، الصلاة لسان كاليتشو لكي يحصل هذا الغبي الأكبر على ما يريد وأن يترقى بسرعة إلى عضوية مجلس القضاء، وربما يهدأ حينئذ ويشعر بأنه متحقق، وينتقل إلى فئة أخرى كأحمق غبي مكتمل، متحقق ومسالم ومتأمل يحتل أحد أبرز مكاتب وزارة العدل.

لكن هذا لم يحدث، وأنا كنت في قلب هذا الوضع. وعندما سألتُ مالكَ كشكٍ أي أتوبيس يتركني في مكان قريب من نيثيتو بيجا وبونبلاند، بدأت أشعر بالدوار فجأة أمام المشهد الذي كان علي أن أشهده. وحاولت تشجيع نفسي على الرغم من أن هذا كان بسبب الخجل، بينما أقول لنفسي إنني لا أستطيع إظهار الضعف أمام كل الرؤوس الشيباء التي ستتجمع في ذلك البيت، رغم أن رؤية جثة كانت تفوق قدرتي على التحمل، جثة حديثة، جثة جديدة، جثة غير متولدة من القانون الطبيعي للحياة والموت وإنما من القرار الحاسم الوحشي لقاتل ما زال طليق السراح. أشتريت التذكرة ثم حفظتها لأحسبها بعد العودة للمكتب كنفقات، وجلست في نهاية الأتوبيس لأن هناك الكثير من الوقت حتى الوصول إلى باليرمو، واستمررت في لعن نفسي لأنني لم أكن أتمتع بما يكفي من النظام والالتزام، أدنى قدر من الوعي، القليل من قوة الإرادة التي كنت أحتاج لها لكي أحصل على شهادة القانون.

5

ما أن وصلت للناصية الأخيرة حتى بدأت معدتي في التَّقلب بسبب حالة النظام المظهرية العقيمة التي تنشرها الشرطة في هذه الحالات. ثلاث عربات دورية، عربة الإسعاف، دستة من رجال الشرطة ذوي الشعر الأشيب يروحون ويجيئون دون أن يكون لديهم أي دور يقومون به، لكن دون أدنى نية للانسحاب. بما أنني لم أكن أنتوي إبهاجهم بملاحظة ضعفي، دخلت بخطى سريعة بينما أربت على جيب بنطلوني الخلفي. عندما ظهر أول رجل شرطة للقائي وضعت بطاقة هويتي أمام أنفه دون أن أنظر له وقلت إنني نائب السكرتير تشابارُّو من الدائرة رقم 41 بمحكمة الإجراءات، وطلبت منه أن يصطحبني للقاء الضابط المسئول عن العملية. تصرف صاحب الزي الرسمي الموحد حسب المنطق الجامد الذي يسمح له بالاستمرار في العمل بالشرطة دون ألم: كل من يحمل شريطًا أكثر منه في كُمِّ السترة أو القميص فهو شخص طاعته واجبة، وكل من يحمل شريطًا أقل يجب امتهانه. نبرتي المتعالية -رغم أنني لم أكن أحمل أشرطة- كانت تضعني ضمن الفئة الأولى، وهكذا طلب مني بإشارة مرتبكة أن أتبعه للداخل.

كان بيتًا قديمًا، تحول إلى شقق سكنية يمكن الوصول إليها عبر ممر جانبي قبيح لكنه نظيف، وكانت بعض أصص الزهور المتباعدة تحاول تزيينه بدون طائل. اضطررنا للتنحي جانبًا مرتين أو ثلاث لكي لا نصطدم برجال شرطة آخرين يخرجون من المسكن قبل الأخير.

حسبتُ أن عدد رجال الشرطة يتجاوز العشرين في المُجمل، وشعرت بالاستياء مرة أخرى من تلك المتعة التي يجدها البعض في تأمل المآسي؛ كما يحدث في حوادث السكك الحديدية، التي اضطررت للاعتياد عليها لسفري يوميا في قطار سارمينتو. لم أفهم مُطلقًا هؤلاء الذين يتجمعون حول القطار المتوقف لكي يبحثوا بين العجلات والقضبان على جثة الضحية الممزقة ويتلصصون على العمل الدموي لرجال الإنقاذ. ذات مرة شككت أن ضعفي هو ما يضايقني. وأجبرت نفسي على الاقتراب، لكنني شعرت بالرعب والفزع، ليس بسبب مشهد الموت الفظيع، وإنما بسبب التعبيرات المرحة المبتهجة لبعض الفضوليين. كأن الأمر يتعلق بعرض مجاني مُنعقد من أجل متعتهم، أو كأنما يجب عليهم الإمساك بأدق التفاصيل لكي يحكونها لزملائهم في العمل، كانوا ينظرون بدون أن ترمش أجفانهم، وشفاههم شبه منفرجة عن نصف ابتسامة مذهولة ثابتة. ولهذا كنت متيقنا من العثور على بضع نظرات كهذه تحت القبعات الزرقاء بعد عبور الباب.

دخلت الصالة النظيفة المرتبة، الممتلئة بالزينة على الأرفف والجدران. طاقم السفرة، الذي كانت مائدته ومقاعد الست متلاصقة كيفما اتفق بين تلك الجدران الضيقة، لم يكن يتسق كثيرًا مع الأرائك الصغيرة في الصالة، ولا يوجد أي تشابه مع الزينة. حدست أنهما «حديثا الزواج». سرتُ مترين حتى وصلت للباب المفضي لبقية المسكن، لكن سرعان ما اصطدمت بالسور الأزرق من ذوي الزي الموحد المنتظمين في دائرة. لا يجب أن يكون المرء ذكيًا للغاية لكي يدرك أن الجثة ترقد هناك. كان بعضهم صامتًا، وآخرون يأتون بتعليقات بصوت عال لكي يبرهنوا على ذكوريتهم إزاء الموت، لكن أعينهم جميعًا مُسمَّرة في الأرض.

«الضابط المسئول من فضلكم»، تحدثت بدون توجيه سؤال، بينما أبحث

عن التعبير المناسب، الحاد إلى حد ما، المُتعب إلى حد ما، الذي يجعل أعضاء هذا السرب من ذكور النحل يدركون أنهم يدينون لي بشيء من الاحترام لأنني أمثلُ هيئةً أعلى مكانة. كأنما أنقل خبرة «إصدار الأوامر-الطاعة» إلى مستوى جماعي بعد أن مارستها مع الشرطي الأسمر الذي خرج للقائي على الرصيف. التفتوا لينظروا لي وردَّ علي صوت الضابط بايث من قلب الغرفة. رأيته جالسًا على فراش الزوجية بعدما تنحى بعض رجال الشرطة جانبًا لكي يمكنني المرور.

ورغم هذا لم يكن الوصول إليه ممكنًا، لأن الفراش كان يحتل كل المساحة تقريبًا، وبجواره كانت الجثة مسجاة، وعندما أفسحوا لي الطريق فكَّرتُ أنني يجب أن أتوقف للنظر للميتة إن لم أكن أرغب في أن يظنوا بي الضعف.

كنت أعرف أنها امرأة لأن الضابط الذي اتَّصل بالمحكمة في الثامنة وخمس دقائق أخبرني بهذا مُستخدمًا تلك المفردات الغريبة التي يتحدث بها رجال الشرطة، التي يبدو أنهم ينطقون بها بشيء من المتعة، حيث قال إن الأمر يتعلق بـ «جثة أنثوية شابة بدون اسم». هذه الحيادية المُفترضة في اللغة، وافتراض أنهم يستخدمون مصطلحات تشريحية، كانت تبدو لي لطيفة أحيانًا، لكنها كانت تصيبني بالضيق بشكل عام. لم لا يقال مباشرة أن الضحية امرأة شابة اسمها غير معروف بعد، ويبدو أنها قد تجاوزت العشرين بقليل؟

خمنتُ أنها كانت جميلة، فباستثناء اللون البنفسجي القبيح المائل للزرقة الذي اكتسبه جلدها بينما كانت تُخنق، والتشوه المُنتظر في وجه ثابت على تعبير متقلص بسبب الرعب ونقص الأكسجين، كانت بهذه الفتاة بهاء ما لا يمكن للموت أن يمحوه. كنت متيقنًا من أن العدد الكبير لرجال الشرطة الذين يحومون هناك كان مُتعلقًا بهذا تحديدًا، بأنها جميلة وعارية، مُمدة على ظهرها بجوار الفراش، فوق الباركيه فاتح اللون بغرفة النوم، وأن العديدين من

الموجودين هناك كانوا مبتهجين لرؤيتها بلا مواربة ولا تحفظ.

كان بايث قد نهض ويسير في اتجاهي بحذاء الفراش. مددت له يدي بدون ابتسام. كنت أعرفه بما يكفي لكي أدرك أنه يحب عمله، رغم أنه لم يكن يستمتع بالألم الذي يتولد عن هذا العمل. إن لم يكن قد طرد الفضوليين من ذوي الزي الأزرق، فلأنه ببساطة لم ينتبه كثيرًا لوجودهم، أو لأنه كان يعرف أن هذا جزء من التقاليد الفلكلورية للشرطة، أو بسبب الأمرين. سألته إن كان رجال الطب الشرعي قد وصلوا. سيكشف لي الزمن أنني لن أعرف طوال حياتي شرطيًا لديه نصف أمانة وذكاء ألفريدو بايث، لكن في ذلك الصباح، بين كل تلك الأمور التي كنت أجهلها، كنت أجهل هذه الحقيقة أيضًا، ولهذا لم أدخر جهدًا في الاستفسار عن اهتمامه القليل بالحفاظ على البصمات في مسرح الجريمة. إن كنت أعرفه قليلًا، لكنت قد أدركت أن ما يبدو إهمالًا لدى بايث كان، في الحقيقة، إذعانًا يقينيًا بأنه محاط بقطيع من الحمقى في رحلة ذهاب أبدية. أدار بايث صفحتين في دفتره وأخبرني بما استقصوا حتى تلك اللحظة.

-اسمها ليليانا كولوتو. ثلاثة وعشرين عامًا. مُعلمة. متزوجة منذ بداية العام الماضي من ريكاردو أجوستين موراليس، موظف ببنك بروفينثيا. أخبرتنا الجارة التي تعيش في الخلف أنها سمعت صرخات في الثامنة إلا ربع صباحًا. نظرت عبر العين السحرية. بابها هو الأخير، وليس على ذات الجانب وإنما في المواجهة، ولهذا يحيط بكل الممر. رأت فتى قصير القامة بينما يخرج. تعتقد أن شعره أسود أو كستنائي داكن. وحينئذ أخذت تلغو بينما تحاول التمييز بين أصحاب الشعر الأسود وأصحاب الشعر الكستنائي الداكن. يبدو أن العجوز لا تجد من تحادثه. لفت هذا انتباهها، لأن الزوج يخرج في الصباح الباكر. في السابعة وعشر دقائق، في السابعة والربع. وسمعت

الضوضاء بعد ذلك. من خرج لم يغلق باب المسكن. لهذا انتظرت العجوز لبرهة حتى يُغلق باب الشارع ثم أطلت على الممر. نادت على الفتاة لكنها لم ترد. - أدرا بايث الصفحة الأخيرة- هذا هو كل شيء.لنقل أنها أطلت برأسها ورأت الفتاة من موقعها لدى الباب، ملقاة هنا حيث تراها، ساكنة. ثم اتصلت بنا.

-هل يمكن أن يكون من خرج هو الزوج؟

--حسب العجوز، لا. سألتها هذا السؤال تحديدًا ونفت. قالت إن الزوج أشقر وطويل القامة، أما هذا فكان قصيرًا وشعره شديد الدكنة. وانتهزت الفرصة لانتقاد الفتاة التي تستقبل زائرين بعد عشرين دقيقة من خروج الزوج. بالمناسبة، لم أذهب لإخباره بعد. إن رغبت، يمكننا الذهاب معا. إنه يعمل في فرع... إنه مذكور هنا... في فرع كابيتال.

سمعنا وقع أقدام وغمغمة تحيات.

-آه، ها أنت هنا -قال بايث لرجل بدين يحمل حقيبة في يده-. أدخل عندما تريد. لقد ضجرنا هنا.

بدا أن الرجل الآخر لن يرد، لأنه تمهَّل في الرد كثيرًا. نظر للجثة طويلًا. جلس مقرفصًا. عاد للنهوض. وضع حقيبته على الفراش وأخرج بعض الأدوات وقفازًا مطاطيًا.

-لم لا تذهب في «داهية» يا بايث؟ - ردَّ الآخر في النهاية، لكن بدون حماس.

-لأنني أنتظرك هنا كالأبله يا فالكوني.

لم ير الطبيب الشرعي أن مواصلة الحوار ضرورية. أخذ يعمل في فحص الجثة. فصل ساقاها قليلًا بحركات رقيقة، كأن المرأة يمكنها أن تشعر بأفعاله

وتتألم بسببها. تحسس بيده فوق الفراش وجذب الحقيبة ليضعها بجواره. أخرج شيئًا يشبه الخرطوم المطاطي وأنبوب اختبار. رفعتُ بصري لكي لا أتأثر. كانت هناك مزهرية فوق الخزانة ذات الأدراج وبداخلها زهور صناعية، وأيضًا صورة لزوجين هَرمَين. أبواه أم أبويها؟ فوق الفراش يوجد صليب. وفوق كل كومودينو يوجد إطار على شكل قلب بداخله صورة العريس والعروسة بتعبير متوتر، مكبوح.

تخيلتهما يوم العرس في استوديو المصور. كان واضحًا أن المال لم يكن يفيض عن حاجتهما، لكنها أصرت على أداء هذه الطقوس الخاصة ببدء العلاقة. شعرت أنني حقير لقيامي بفحص الديكور وماضي تلك المرأة، كأنني تقريبًا كنت أنظر لها عارية وباردة، فوق أرض غرفة النوم. نهض فالكوني في النهاية بينما يتنهد.

-ما الخطب؟ -سأل بايث.

-لقد تم اغتصابها ثم خنقها. سأؤكد هذا فيما بعد، لكنه يبدو بديهيًا.

ردَّ فالكوني بينما يفتح باب الدولاب الذي اشترياه مُستخدمًا. أخرج بطانية خفيفة، يبدو أن الزوجين الجديدين كانا يستخدمانها في الصيف ولهذا لم تكن مطوية بعناية على الرف. فردها على جسد الفتاة في حركات سريعة صائبة. خمَّنتُ أن الطبيب يعيش بمفرده أو أن زوجته تجبره على ترتيب الفراش. على أية حال، شعرت بالامتنان تجاهه بسبب بادرة الاحترام هذه.

-خبراء البصمات في الطريق. هل يمكن أن توجد بصمة ما أم أن قطيع المُستمنيين الذين رأيتهم عند الباب عبثوا بكل شيء؟

-توقَّف يا فالكوني، أنا لست أبلهًا -دافع بايث عن نفسه لكنه كان يبدو أنه يشعر بالضجر أكثر من الضيق-. سأذهب لرؤية الزوج في العمل -

والتفت نحوي-: هل ستأتي معي؟

-سأذهب- قبلتُ، مُحاولًا ألا يبدو صوتي متلهفًا على الذهاب نهائيًا. أي شيء أفضل من البقاء في ذلك المكان.

كان الباب مسدودًا بثلاثة أو أربعة رجال شرطة يتحدثون بصوت عال.

-لنر، اللعنة! - صرخ بايث، الذي كان مثل كل الضباط في انتهاز أي مناسبة لنهر مرؤوسيه، كأنها طريقة فعالة وسريعة بشكل استثنائي لإقناعهم بأن يكونوا متواضعين ومطيعين-. هل ستتحركوا من مكانكم وتذهبون لفعل أي شيء مفيد؟ اللعنة! إن رأيت أحدكم لاهيًا سأجعله يعمل في عطلة نهاية الأسبوع!

أطاعوه وتفرَّقوا.

6

انتابني شعور غريب عندما دخلنا البنك. كانت قاعة كبيرة مربعة، جدرانها مغطاة بألواح رخامية كبيرة باردة. ومن السقف العالي، على مسافات متساوية، تتدلى مواسير سوداء وتحمل في أطرافها مصابيح قديمة للغاية على هيئة زهور، وتضيء القاعة بشكل سيء. وكان هناك صف متواصل من الكاونترات العالية المصنوعة من خشب الفورميكا الرمادي والتي تتوسطها ألواح زجاجية فاصلة بين منطقة الموظفين والمكان المخصص للجمهور. بملل، كان ساع يقوم بتنظيف الألواح الزجاجية على مستوى الثقوب الدائرية التي يتحدث عبرها العملاء. كنت أكره الأماكن الكبيرة، وفكَّرت أن العمل في مكان كهذا يبدو شيئًا فظيعًا. بل إن تَذَكُر الإدارة في المحكمة كان مريحًا، بهذه الأرفف المُكتظة بالملفات من الأرض حتى السقف، وممراتها الضيقة، والرائحة الباهتة للخشب القديم.

لكن الشعور الغريب كان مُتعلقًا بأمر آخر. ما أن عبرت الباب خلف بايث حتى شملت الموظفين الذين قد يبلغون العشرين بنظرة سريعة، ورغم أن ساعة خدمة العملاء لم تكن قد حانت، كانوا منكفئين على مكاتبهم. كأن الخبر المرعب الذي نحمله لم يكن له مُستقبِل محدد بعد. على الأقل ليس حتى يتقدَّم الحارس الذي فتح لنا الباب، ويرفع حاجز أحد الكاونترات، ويعبر إلى منطقة موظفي البنك ويتوجه للرجل المقصود. كنت أتساءل عمن سيكون موراليس بينما أنتقل بعيني من موظف لآخر. حاولت تذكُر صورة

العرس الموجودة على الكومودينو بغرفة النوم، لكنني لم أفلح، ربما بسبب العجلة وربما بسبب الانقباض الذي نظرت إليها به.

كنت أشعر أن المأساة تحوم فوق تلك الحيوات العشرين بدون أن تقرر الحط على أي منها. بالطبع كان موقفًا هزليًا، لأن رجلًا واحدًا فقط من هؤلاء يمكنه أن يكون ريكاردو أجوستين موراليس. الآخرون لا. كان الآخرون بمنجاة من الرعب الذي أتينا لنخبره به. بينما كان الحارس يواصل الحركة بدون التوقف بجوار أي من الموظفين الذين يعملون هناك، كانوا كلهم (الشباب على الأقل) يبدون لي أهدافًا مُتحركة، ضحايا مُحتملين لحظ فظيع يعني تلقي الخبر الذي سيهدم حياة أحدهم (بغض النظر عن كل الاحتمالات، وبعيدًا عن كل التشخيصات، وفوق أي إذعانٍ نتحمل به نحن البشرُ الضيقَ المثير للقشعريرة كل يوم لمعرفتنا بأن كل ما نحب يمكنه أن يفنى من لحظة إلى أخرى).

سار الحارس بين بضعة مكاتب ومال على فتى شاب يجمع شيكات في آلة حاسبة كبيرة. أوشكت على الإشفاق عليه عن بُعدٍ. لكن، كأن الأحداث تتواءم فجأة مع نظريتي بأن المأساة تتردد قبل الحط على كتف الشخص المقصود، رفع الفتى يده باتجاه باب في أخر القاعة الضخمة، وكأن حركة رفع الذراع قد أنقذت الفتى التي يجمع الشيكات من العذاب الوشيك لفقده زوجته بطريقة مرعبة.

نظرت باتجاه إشارة الذراع برفقة بايث. وكأنها تقريبًا حركة مسرحية مُتفق عليها، انفتح الباب الموجود في نهاية القاعة لكي يظهر رجل شاب طويل القامة، شعره المدهون بالفازلين ثابت للخلف، بشارب جاد، وسترة زرقاء ورابطة عنق بعقدة صغيرة، وتقدَّم بأخر نبضات برائته نحو مكتب موظف الشيكات، حيث كان هو والحارس ينظران له بفضول.

أخبره ضابط الشرطة أننا جئنا من أجله. «الآن»، فكرتُ. «في تلك اللحظة تحديدًا ولج ذلك الفتى نفقًا بلا نهاية، وربما لا يخرج منه بقية حياته». رفع عينيه نحونا. نظر لنا مندهشًا في البداية، لكن سرعان ما نظر لنا بارتياب. لابد أن الحارس قد قدم كلينا كرجلي شرطة. دائمًا ما يفعلون ذات الأمر. يميلون إلى الصورة الأكثر بساطة. رجل الشرطة شخص معروف في كل العالم. نائب مدير قسم في محكمة الإجراءات الجنائية يبدو صنفًا غرائبيًا. وهكذا كنا هناك بالسكاكين جاهزة لغرسها في عنق الفتى الذي كان ينظر لنا بدون أن يقرر الشعور بالضيق بعد.

اقتربت من الكاونتر القابل للطي الذي كان الفتى يخرج منه في عجالة للقائنا. كنت قد قررت تقديم نفسي باسمي لكن ترك بايث ليكون هو المتحدث. سيكون هناك المُتسع من الوقت لشرح من هو ضابط الشرطة ومن هو موظف القضاء. بالإضافة إلى هذا، بدا أن بايث معتاد على إبلاغ الأخبار السيئة. وفي نهاية الأمر، لم يكن وجودي هناك إجباريًا لأكون شاهدًا على انهيار حياة موظف البنك الشاب. إن كنت قد وصلت حتى هناك، فالسبب في هذا هو الأحمق الدكتور فورتونا لاكايه ورغبته الجامحة في الترقي في أسرع وقت إلى قاض منصة.

7

كان المطبخ الصغير للبنك يسعنا بالكاد، أنا وبايث والأرمل حديث العهد، وحينئذ فكَّرتُ أن الحياة شيء غريب. شعرتُ بالحزن، لكن، ما هو الشيء الذي كان يُشعرني بالحزن؟ إنه ليس الفزع، الشحوب، العينين المتسعتين المنهارتين لذلك الفتى الذي أخبره بايث للتو أننا جئنا لنبلغه أن زوجته قد قُتِلَت في بيتهما. كما لم يكن ألم ذلك الفتى. المرء لا يرى الألم، لا يمكنه أن يراه، ببساطة لأن الألم غير مرئي تحت أي ظرف. بحدٍّ أقصى يمكن رؤية بعض أعراضه الخارجية البسيطة. لكن هذه الأعراض بدت لي دائمًا أقنعة أكثر منها أعراضًا. كيف يمكن للمرء أن يُعبر عن الشعور الفظيع بالضيق الذي يعتمل في روحه؟ بالبكاء الغزير والنحيب والصراخ؟ بالغمغمة ببضعة كلمات غير مترابطة؟ بالتآوه؟ بذرف بضعة دموع قليلة؟ كنت أشعر أن كل هذه التعبيرات عن الألم لم تكن سوى إهانة لذلك الألم، احتقار له، تدنسه، تضعه في مرتبة العينات المجانية.

بينما كنت أتأمل الوجه الذاهل للفتى، وأسمع ما يحدثه به بايث عن التعرف على الجثة في المشرحة، اعتقدت أنني أدركت أن تأثرنا بألم الآخرين نابع من خوفنا الشديد من انتقال هذا الألم لنا. في 1968 كانت قد مرَّت علي ثلاث سنوات متزوجًا وكنت أعتقد، أو كنت أفضل الاعتقاد أو كنت أرغب بجنون في الاعتقاد أو كنت أحاول بيأس أن أعتقد أنني أعشق زوجتي. وبينما كنت أتأمل ذلك الجسد المنهار فوق دكة مكسورة، وأرى العينين الصغيرتين

الثابتتين على شعلة الموقد الزرقاء، ورابطة العنق تلك ذات العقدة الصغيرة، التي تسقط رأسيًا كأنها تحمل ثقلا من الرصاص بين ساقيه المنفرجتين، وهاتين اليدين المنقبضتين على الصدغين، تخيلت نفسي مكان ذلك الرجل المبتور الذي انتهت حياته على التو وكنت أشعر بالرعب من هذا.

كانت عينا موراليس مغروستين في النار التي أشعلها بنفسه قبل خمس دقائق لإعداد مشروب الماتيه، عندما لم نكن قد اقتحمنا حياته بشكل وحشي بعد. وكنت أعتقد أنني قد فهمت ما يمر بعقله بينما يرد بمقاطع أحادية كالإنسان الآلي على الأسئلة الدقيقة التي يوجهها له بايث. لم يكن الفتى متأكدًا من ساعة خروجه من بيته في الصباح، كما لم يكن يتذكر بدقة عدد الأشخاص الذين يمكن أن يكون مفتاح بيته بحوزتهم، ولا رؤية أي وجه مثير للارتياب بالقرب من بيته. بدا لي أن الأرجح أن الفتى يقوم بعمل تعداد لكل ما فقد على التو.

لن ترافقه زوجته للقيام بالشراء ذلك المساء ولا أي مساء آخر، ولن تعرض عليه جسدها العاجي مرة أخرى، ولن تحبل بأبنائه، ولن تهرم بجواره ولن تسير معه على شاطئ بونتا موجوتيس ولن تضحك بينما تتساقط منها بعض الدموع بينما تشاهد حلقة مُضحكة للغاية من «المجانين الثلاثة» في قناة 13. لم أكن أعرف تلك التفاصيل (التي سيخبرني بها موراليس مع مرور الوقت)، لكنني كنت قادرًا على رؤية وجه الفتى المنهار مثل مستقبله الذي انفجر مُخلفًا حُطامًا.

عندما سأله بايث إن كان له أعداء معروفين، لم يمكنني سوى الشعور، في أعماقي، برغبة في الضحك بسخرية. إن لم يكن هناك شخص ما أعطاه الفتى بقية النقود خاطئة أو أنه قد نسى وضع ختم «مدفوع» على إيصال النور... من يمكن أن يُكِّنَ العداء لذلك الشاب الذي عاد لينظر بتعبير شارد

ساكن إلى شعلة الموقد الزرقاء بعدما هزَّ رأسه نفيًا دون حماس.

بينما كانت الدقائق تمر، واستجواب بايث يدخل في تفاصيل لم تكن تثير اهتمام موراليس أو اهتمامي، رأيت كيف أخذ تعبير الفتى في التغير ليصبح خاويًا. الملامح تتحلل ببطء إلى تعبير محايد، والدموع والعرق اللذين بزغا على جلده لأول وهلة جفا تمامًا. كأنما بعد أن بَرد، وبعد أن فرغَ من المشاعر والأحاسيس، وبعد أن انقشعت سحابة الغبار الذي حوَّلت حياته إلى حُطام، يمكن لموراليس أن يتوقع إلام تحول مُستقبله، ويمكنه أن يتحقق دون أي مجال للخطأ، ودون أي شك، من أن مستقبله هو العدم.

8

لقد تم حل القضية يا بنجامين. الموضوع منتهي.

أطلق بدرو رومانو عبارته نحوي بتعبير انتصار. كان متئكًا بكوعيه على مكتبي، ويضع أمام أنفي ورقة بها اسمين مكتوبين بخط اليد. كان قد وضع سماعة التليفون على التو. رأيته مستغرقًا في مكالمة طويلة أطلق خلالها بضعة تعبيرات تعجب واندهاش بصوت عال (لكي لا يداخل الشك أي شخص في أنه يتناول أمرًا شديد الأهمية) تخلَّلت الجمل الحوارية الطويلة الخافتة التآمرية. أثناء شرودي الأوليِّ تساءلت عن سبب مجيئه ليتحدث في التليفون في قسمي بدلًا من قسمه. عندما رأيت القاضي فورتونا في مكتب السكرتير بيريث أدركت أن رومانو كان يسعى لإظهار تميزه وتألقه. وبما أنني كنت أرى نفسي شخصًا رحيمًا، ولأنني كنت أجهل تمامًا كل عواقب ذلك اليوم في السنوات التالية، كنت أشعر بالشفقة أكثر من الضيق لسعى رومانو للفت انتباه رؤسائنا. ليس بسبب محاولة جذب الانتباه في حد ذاتها وإنما بسبب القيمة الأخلاقية والفكرية للرئيس الذي يسعى رومانو لإبراز تميزه أمامه. أداء دور الموظف المثالي أمام قاضٍ كان يبدو لي سخفًا إلى حد ما، لكن القيام بهذا بدون إدراك أن القاضي المذكور أبله من الفئة العليا ولن يلاحظ التألق والتميز كان يتركني مندهشًا لأقصى حد. بغض النظر عن هذا، ما أن انتهت مكالمته التليفونية، قال لي بدرو رومانو إن القضية قد حُلَّت. أعطاني ورقة بها اسمان ونظر لي بوجه عليه تعبير «ها قد صنعت بك معروفًا لست مُجبرًا على

القيام به لأن القضية تخص قسمك». وأدهشني هذا كثيرًا.

-عاملا بناء، يعملان في الشقة رقم ثلاثة. في طابق آخر.

فيما يبدو كان رومانو يظن أن الأسلوب التلغرافي، المشوب بفترات صمت مسرحي، يرفع من القيمة الدرامية لخبره. تساءلت كيف أمكنَ لشخص محدود القدرات إلى هذا الحد أن يصل إلى درجة نائب مدير قسم. ورددت على نفسي بأن زيجة جيدة تستطيع فعل المعجزات. لم تكن زوجته ممن يمكن وصفهن بالجمال، ولا لطيفة، ولا ذكية. لكنها كانت ابنة عقيد في المشاة، وهذا في الأرجنتين في عصر أونجانيا كان ميزة كبيرة. تذكرت حفل الزفاف، الممتلىء بالقبعات الخضراء، وتزايد شعوري بالضيق.

-رأياها تمر. أعجبتهما الفتاة. فكَّرا في الأمر - كان رومانو قد انتقل من التعرف على هوية الجناة إلى إعادة بناء الجريمة ذاتها-. فيما يبدو رأيا أن الزوج يخرج مبكرًا يوم الثلاثاء. تشجعا ونفذا الأمر.

إن كان قد استمر في الحديث كأنما يقرأ تلغرافًا، لكنت قد أرسلته للجحيم. وشعرت بأمل زائف عندما رأيت أنه لم يعد يميل على وجهي بيديه معتمدتين على المكتب. لكنه لم يعتدل لكي يرحل، وإنما لكي يُسقِط جسده على أقرب مقعد له. وقَرَّبه ببضعة تمايلات من ردفيه، وأصبحت عيناه على مستوى عينيَّ مرة أخرى.

-انفلت الأمر من بين أصابعهما، وتركاها ميتة.

لم يتحدث أكثر من هذا. ربما كان ينتظر تصفيقًا أو فلاشات كاميرات المصورين الصحفيين.

-من أعطاك هذه المعلومات؟ -سألتُ، واندفعتُ في الحال بالإجابة التي كنت أتوقعها-: سيكورا؟

-بالضبط. كانت نبرة صوت رومانو تنضوي، لأول مرة، على شيء من مسحة خفيفة من الشك-. لماذا؟

هل كان يجب أن ألعنه أم أهمل أمره؟ ملت للاختيار المُسالم. الضابط المساعد سيكورا، من إدارة جرائم القتل، كان خبيرًا في التملص من العمل. كان يكره التعامل مع الناس، ينفر من السير في الشارع، يبغض الأعمال التي يجب أن يقوم بها محقق. أي أن الشبه الوحيد بينه وبين بايث هو بياض العين. كان سيكورا يبني فرضياته جالسًا في غرفة المعيشة ببيته، ويعلق لافتة القاتل على أول مسكين يظهر أمام عينيه. لم يكن ما يفعله سيكورا هو أكثر ما يثير غضبي، وإنما أن يقوم الأبله رومانو باتباعه حرفيًا. كون سيكورا فظًا وجاهلًا وكسولًا فهو أمر يعرفه الجميع، بما في ذلك الراهبات في الدير. لكن كيف يمكن لهذا الفتى أن يتجاهل هذا؟ وكان من واجبه أن يعرف، حتى إن كان هذا سماعًا، كيف تسير الأمور في المحكمة الابتدائية عندما يتعلق الأمر بقضية جنائية.

على الرغم من كل شيء لم أرغب في الغضب. في نهاية الأمر كان رومانو زميلًا، وكانت لدي خبرة كافية في القضاء لكي أدرك أن الجراح اللفظية عصية على الاندمال.

غيَّرت وجهة الأسئلة قليلًا.

-بخلاف هذا... ألم يكن بايث هو من يتولى هذه القضية؟

لم يلق تهذبي مكافأة. ردَّ رومانو بسخرية باردة.

-لا أعتقد أن بايث هو سبنسر تراسي. وهو لا يستطيع القيام بكل شيء، ألا ترى هذا؟

كان يثقل علي، وما تبقى من صبري كان ينساب مثل رمال بين الأصابع.

-لا، لا أعتقد هذا. خاصة إن كان البديل هو تولى جاهل وأبله مثل سيكورا القضية.

لم يرتد رومانو القفازات لكي يرد الإهانة التي وجهتها لمصدره. على العكس، كأنما يرغب في إعطائي درسًا في هدوء الأعصاب، أمسك بأصابع يده اليسرى وبدأ يعد.

-إنهما اثنان. عاملا بناء. كانا يعملان في الشقة المواجهة. ليسا من الحي، ولا يعرفهما أي شخص. هل تتخيل هذا؟

توقَّف رومانو، كأنما يثق في إقناعي بمبرراته. في النهاية أضاف بينما يهز رأسه حتى تناثرت الخصلة الأمامية، كأنما قد قرر عرض المبرر النهائي:

-وبالإضافة إلى هذا فهما أسمران، بوجهي لصين. لا أعرف إن كنت تفهمني.

في تلك الفترة، لأنني كنت شابًا ولأنني كنت مرهف الحس، أو ربما لكلا السببين، كان يشقُّ علي تصنيف معارفي كأبناء عاهرة. لكن كان يبدو أن رومانو يصر على تركي بدون هامش للرحمة. رأيته أكثر من مرة يَسُبَ موقوفًا أسمر اللون يبدو على وجهه الفقر. كما رأيته يُقطر تهذبًا مع المحامين المشهورين إلى حدٍّ ما في الوسط. قلت له ما صدر عن قلبي:

-حسنًا. إن كنت تريد محاكمتهما لأنهما أسمران، أخبرني بهذا.

وفكَّرت في إضافة «أخبرني أي مادة في القانون يمكننا تطبيقها عليهما لكي أراجعها»، لكنني قررت أن هذه العبارة الساخرة كانت مفرطة البراءة وكانت ستؤثر سلبًا على الموقف. وعلى أية حال، رأيت أن الآخر يبذل جهدًا رهيبًا لكي لا يسبني. وعندما لم يتبق في صوته أي أثر للنبرة اللطيفة التي بدأ بها.

-أنا ذاهب للقسم. لقد أخبرني سيكورا أنها جاهزان للاستجواب.

-جاهزان؟ -كان الضيق يحملني إلى حافة الانفجار-. لابد أنهم قد أوسعوهما ضربًا. سأذهب أنا. لا تنس أن القضية من اختصاصي.

بشكل عام كنت أنفر من مشاعر الغيرة في العمل والتي تدفع بعض المعارف لاستخدام ضمائر الملكية مع القضايا، لكن هذا الشخص جعل صبري ينفد. تربَّيت في البيت على عدم سب ولعن الناس علنًا. لهذا تحكمت في نفسي، ارتديت ستري وودَّعته بطريقة جافة بينما أقول «إلى اللقاء». فقط سمحت لنفسي بغلق الباب بقوة أكبر من الضرورية.

9

دخلت قسم الشرطة بالهيئة المتعالية التي عادة ما أتخذها إزاء أصحاب الزي الموحد وغالبًا ما تأتي بنتائج جيدة. انتظرت دقيقتين، بعد أن قدَّمت نفسي، حتى خرج سيكورا لاستقبالي بابتسامة رضا. من الواضح أن صديقه رومانو لم ير إخباره بغضبي ضروريًا.

-إنهما جاهزان للإدلاء بشهادتيهما -هزَّ ملفين من الكرتون تظهر منهما بعض الأوراق-. سباستيان ثامورا. من باراجواي، 38 عامًا. عامل بناء. يعيش في بولبورينيس. الآخر خوسيه كارلوس ألماندوس، 26 عامًا. عامل بناء أيضًا. على الأقل هذا أرجنتيني، لكنه يعيش في «ثيوداد أوكولتا».

حاولت أن يبدو صوتي طبيعيًا عندما سألت:

-هل عقدت حلقةَ تَعَرُّف؟

نظر لي سيكورا فاغرًا فيه.

-هل عرضت هذين الشخصين على الشهود؟ أعني الشهود الذين ذكرهم بايث.

سيطَر سيكورا على تلعثمه وردَّ:

-ليس بعد. لقد اتصلت بالمحكمة وقال لي نائب المدير رومانو أن أواصل التحقيق، وأنه سيتولى إخبار الزوج وأن....

-لا أتحدث عن الزوج -لم أتركه ينهي كلامه-، وإنما عن الجارة التي تعيش في الشقة الموجودة في أخر الممر، التي رأت القاتل أثناء خروجه وأبلغت الشرطة. وأيضًا عن أصحاب الشقق الأخرى، بما فيهم أصحاب الشقة 3 حيث كان هذان الشخصان يعملان.

عندما رأيت تعبير الحيرة على وجه سيكورا أدركت أن بَله ذلك الشخص كان هائلًا وأنني لن أستطيع مُطلقًا تخيل مداه. تابعتُ:

-ستخبرني أنك لم تربط بين هذا الأمر وبين ما قام به بايث، أليس كذلك؟

-صمت جديد-. أعطني أوراق بايث وأذهب بي إلى حيث يوجد الموقوفين.

كان سيكورا على قدر من الغباء يمنعه من الاعتراض أو الشكوى على تلقيه أوامر من مدني. ذهب لإحضار الشهادات، لكنه لم يحملني إلى مكان المسجونين. بادرة سيئة. جلست كيفما استطعت في مكتب بالممر الذي يقود إلى الزنازين، وكان ممتلئًا بالصناديق المترعة بالأوراق. ما أن بدأت في مراجعة الإجراءات، حتى توقفت أمام شهادة امرأة تدعى استيلا برمودث؛ قرأتها بعناية، أخرجتها من الملف ووضعتها جانبًا. أعتقد أنني وجَّهت إلى سيكورا نظرة تطلق شررًا.

-هل راجعت شهادة استيلا برمودث؟

حاد سيكورا بنظرته خلال ثانية، كأنما يحاول التذكر، أو كسب الوقت ليقرر الإجابة التي تناسبه، وفي الحال عاد للنظر لي مُقطبًا حاجبيه.

-من هي السيدة برمودث تلك؟

كنتُ أنتظر هذا السؤال.

-مالكة الشقة رقم ثلاثة يا سيكورا.

أدرك الشرطي تمامًا أنه سقط في الهاوية.

-عندما أخذ بايث شهادتها -حاولت أن يبدو صوتي مهادنًا، لأنها بدت لي أفضل طريقة لإذلاله-، قالت المرأة إن عاملي بناء كانا يعملان في بيتها، لكنهما لم يذهبا يومي الاثنين والثلاثاء. الاثنين لأن المطر سقط طوال اليوم. والثلاثاء لأنهما كانا بحاجة لوقت لكي تجف الأرض، لأنهما كانا يعملان في الشرفة، لكي يمكنهما وضع القطران. وهكذا اتصلا بها واتفقوا على الذهاب يوم الخميس مباشرة.

أعطيته الورقة لكي يقرأها بنفسه، لكن سيكورا، الذي لجأ إلى أخر حيله للحفاظ على كرامته، ردَّ علي سائلًا:

-وما علاقة هذا بالأمر؟ ألا يمكنهما أن يكونا قد قالا هذا تحديدًا لكي يموها، ثم يذهبان ويقتلان الفتاة ثم يفران؟

-وأخبرني يا سيكورا، ألم تقرأ في هذه الشهادة كما في شهادة السكان الآخرين أن المدخل، الباب المفضي من الشارع إلى الممر، يُغلق دائمًا بالمفتاح؟ وأن السكان يجب أن يخرجوا لكي يفتحوا ويغلقوا الباب للزائرين. هذا موجود في كل الشهادات. أقول هذا لكي لا نذهب مباشرة إلى شهادة الجارة التي أبلغت الشرطة، والتي قالت دائمًا إن المعتدي كان شخصًا واحدًا فقط.

رفعت الحزمة التي كونتها من كل الشهادات ووضعتها فوق المكتب، لكن سيكورا لم يتشجع لأخذها. ظل ينظر لي بتوتر متزايد. شعرت بالقشعريرة عندما أدركت السبب. أصدرت له أمرا حازمًا.

-اِذهب بي إلى المسجونين.

نهض سيكورا كأنما كان جالسًا فوق زنبرك.

-إن... إنهما في ساعة الغداء. الآن يتم توزيع الطعام.

أصررت.

-لا يمكنني الانتظار ولا المجيء بعد ذلك. أريد رؤيتهما. وأريد أن توصلني ببايث في الحال.

تردد سيكورا لبرهة أخرى. ثم صاح باسم ما وظهر شرطي من أعماق ممر الزنازين.

-رافق السيد حتى زنزانة الـ... حتى زنزانة هذين.

سرت في الممر الذي تطل عليه القضبان الحديدية لثمانية زنازين. توقفنا أمام الزنزانة الأخيرة على اليسار. لم تكن هناك رائحة طعام. تعامَل الشرطي مع الباب الذي انفتح بصرير. كان النور مُضاءً. كان هناك رجلان مستلقيان فوق الفراشين المجاورين للجدارين الجانبيين. كان أحدهما نائمًا ولم يتحرك عندما دخلنا. كان الآخر متمددًا على ظهره بينما يغطي وجهه بذراعيه، واستدار عندما دخلنا. تبادلنا النظرات لبرهة. أمرت الشرطي الذي كان يرافقني:

-قم باستدعاء سيكورا.

لكنه تردد.

-لا يمكنني أن أتركك بمفردك في الزنزانة.

كان صبري قد نفد بسببهم. رفعت صوتي مُصرًّا.

-اِذهب لندائه وإلا سأفتح لك تحقيقًا أيضًا.

خرج الشرطي. قررت محاولة ألا يتسلل الغضب والفزع إلى صوتي:

-كيف حالك؟

بدا أن الآخر يبتسم تحت كتلة الدم المتجمدة التي تغطي وجهه تحت الأنف. كان قد فقد سنتين أماميتين، وكنت متيقنًا من أنه فقدهما حديثًا. حسبما استطاع، أخبرني الرجل أنه لم يعد يشعر بألم شديد، لكن زميله تلقى ركلات كثيرة في ضلوعه، وأنه ظل يبكي حتى استطاع النوم قبل قليل.

عاد الشرطي. قال إن سيكورا قد خرج.

-آت بالمأمور إذن.

-إنه يتناول غدائه.

-هذا لا يهمني في أي شيء -صحتُ. كنت غاضبًا. في ظروف أخرى لم أكن سأنحدر لاستخدام هذه الطريقة الجديرة بالمعسكرات.

عندما عدتُ إلى مُجمَّع المحاكم بعد ثلاث ساعات ذهبتُ مباشرة إلى الدائرة رقم 18 بدلًا من الدخول إلى قسمي. عبرت الممرات الضيقة التي تفصل بين المكاتب وتقدَّمت بين تلال الملفات بدون توجيه التحية لأي شخص. عندما وصلتُ إلى مكتب رومانو، الذي كان يقرأ الصحيفة بشرود، كان دوري أن أضع ورقة في وجهه.

-اِسمعني جيدًا. أنا قادم من المجلس، حيث قمت بعمل بلاغ ضد صديقك المُبجَّل الأبله سيكورا لسوء استخدام السلطة. وبالنسبة للمتهمين اللذين ابتهجت بالعثور عليهما، فهما يخضعان الآن لفحص أطباء من الطب الشرعي، بأوامري أنا.

حاولت ألا أفقد التحكم في نفسي. كان رومانو قد خفض الصحيفة، ويحاول التفكير. واصلتُ:

-وأراهن بخصيتي أن فكرة ضربهما صدرت عنك، وليست فكرة الأبله سيكورا. لقد أراد إلصاق التهمة بهما لكي يبدو بطلًا ويظهر بمظهر حسن

أمام المحكمة. أبله وأحمق. وهكذا أوصيك بأمرين. إن أردت طحنَ شخصٍ ما ضربًا، فتفعل هذا بنفسك. والثاني: إن كنت تريد إلصاق تهمة بشخص ما، فاحرص على أن تكون له علاقة بالأمر، لأنك فعلت هذا مع عاملين مسكينين.

استدرتُ وتركت نسخة من البلاغ على أقرب مكتب. كان الموظفون الآخرون ينظرون لي بدهشة شديدة بالطبع.

-عندما تنتهي من قراءته، أرسله لي في دائرتي.

ربما كان يجب أن أصمت، لكن كما كان من الصعب أن تنفلت أعصابي، كان يشق علي أيضًا أن أبرد وأهدأ بعد تطاير الأطباق.

-دائمًا ما اعتقدت أنك تافه وأحمق إلى حد ما يا رومانو. لكن لا، إن أحمق وأبله، نعم. لكن بالتأكيد أنت شخص ابن عاهرة، كبيرة، كبيرة، كبيرة للغاية.

كنت أجهل حينئذ كل الصعوبات التي بذرتها في طريق حياتي، والتي يجب أن أحصدها آن آجلًا أم عاجلًا. أعتقد أنه لا يوجد أي شخص قادر على قراءة المآسي المستقبلية في ظل لعبة الحظ التي يمارسها في الحاضر.

10

في ذات تلك الظهيرة، عندما جلست مع ريكاردو موراليس بمفردنا لأول مرة، في أحد مقاهي شارع توكومان في الثانية ظهرًا، قررت مساعدته بكل ما أستطيع. كنا جالسين بجوار النافذة التي تنفتح إلى أعلى وتفصلنا عن الرصيف، بعد أن عادت الحياة في الخارج لطبيعتها بعد سقوط مطر غزير.

منذ أفسدت خطة رومانو الحقيرة وجلست أنفث في محاولة للهدوء، أدركت أن الزوج المسكين متجه إلى المحكمة كالسهم مُقتنعًا بأنه أوشك على معرفة الحقيقة. وبالفعل وصل بعد عشرين دقيقة. سمعت دقتين خجولتين على باب الإدارة العالي، وكلمة «أُدخل» التي قالها بعض الزملاء ولم تكن موجهة لشخص محدد.

-إنه يسأل عنك يا ريس -أخبرني الفتى الذي استقبله.

رفعت رأسي وأمهلت نفسي برهة لأفكر، إن كان الفتى الجديد لا يتوجه لي باسمي ولا بصيغة المخاطب، فلابد أنني قد عبرت بوابة الشيخوخة.

-لقد اتصلوا بي في البنك -قال موراليس عندما رآني أذهب إلى المائدة المجاورة للمدخل. ربما يكون قد تعرَّف علي كأحد من ذهبا لإبلاغه بخبر موت ليليانا.

-نعم، أعرف هذا- لم يمكنني أن أقول له كلمات أكثر دقة.

افترضت أنه سيسألني «إن كان حقيقيًا أن هناك مُستجدات هامة في القضية» أو «إن كان حقيقيًا أن القتلة قد وقعوا»، تبعًا لما استخدمه الأبله رومانو من نبرة جديرة بصحيفة «لا ناثيون» أم أسلوب «كرونيكا» لكي يضفي على نفسه أهمية عندما أبلغه بالخبر. لكن لدهشتي، اكتفى موراليس بالبقاء جامدًا، بيديه معتمدتين بخفة على المائدة وعيناه ثابتتان على عينيَّ.

لكن الأمر كان أسوأ، لأنني شعرت أن هذا الصمت كان لشخص مكسور الخاطر مقتنع بأن الأمور لن تنتهي مُطلقًا كما جرؤ أن يحلم. ربما لهذا قررت دعوته لتناول القهوة. كنت واعيًا بأنني أخرج عن أبسط قواعد العمل القضائي. وتعزيت بينما أقول لنفسي إنني أفعل هذا شفقةً، أو لإصلاح الضرر الذي أوقعه على نحو ما التسرع الأحمق لرومانو. خرجنا من باب توكومان، ووجدنا سيولًا عنيفة من المطر تسقط مائلةً بسبب هبَّات الرياح. قفزنا لنعبر الشارع الذي بدأ يغرق. اتبعني موارليس مُطيعًا في المسار المتعرج الذي رسمته، ملتصقًا بواجهات المحلات وتحت المظلات، بينما أحاول وقاية نفسي من المطر. وبذات الخضوع، أو التَّفهم، انقاد خلفي حتى المربع السكني التالي، بعدما عبرنا شارع أوروجواي، حتى وصلنا لمقهى وجلسنا إلى مائدة ملتصقة بالنافذة، وقَبِل الدعوة على القهوة التي طلبتها من النادل بحركة سريعة. بعد ذلك لم يعد لدينا ما نفعله.

-طقس سيء للغاية، أليس كذلك؟ -قلت في محاولة لتجاوز الصمت غير المريح الذي يلفنا.

كانت عينا موراليس ثابتتين خلال وقت طويل على الرصيف الذي أغرقه السيل.

-لقد اتصلنا بك -شعرت بأنني مُجبر على استخدام ضمير المتكلم الجمع، على الرغم من أنه يربطني بابن العاهر رومانو-، لكن لابد أن أخبرك

بشيء ما.

عدت للتلعثم. بم أبدأ؟ ربما بعبارة «لقد أعطيناك أملًا زائفًا، تقبَّل اعتذارنا»؟.

-لا تشغل بالك -في النهاية كان موراليس ينظر لي. ارتسمت ابتسامة على وجهه-: لقد أخبرتني على التو بكل شيء.

نظرت له حائرًا.

-كلمة «لكن».

حاول موراليس أن يوضح. فتحت فمي، كأنما لكي أرد، رغم أنني لم أكن أفهم المغزى الذي كان الأرمل يريد إبلاغي به. بعد أن رأى حركات ذارعي العشوائية الجديرة بغريق، واصل كلامه:

-كلمة «لكن». لقد قلت لي الآن «لقد أتصلنا بك، لكن...» هذا يكفي. لقد فهمت. إن كنت قد قلت «لقد اتصلنا بك و....» أو «لقد اتصلنا بك بسبب...»، كان سيعني شيئًا ما. لم تفعل هذا. قلت «لكن».

عاد موراليس ينظر للمطر. وافترضت خاطئًا انه قد انتهى من الكلام:

-إنها أكثر كلمة عاهرة أعرفها.

انطلق موراليس في الكلام مرة أخرى، لكن لم يبد لي أنه حوار، وإنما مونولوج داخلي حميمي أصبح مسموعًا بسبب السهو فقط.

-»أُحبك، لكن...»؛ «هذا ممكن، لكن»؛ «الأمر ليس خطيرًا، لكن...»؛ «لقد حاولت، لكن...». هل تدرك هذا؟ إنها كلمة حقيرة كافية لنسف أي شيء حدث بالفعل أو يمكن أن يحدث، لكنها...

نظرت إلى جانب وجه ذلك الرجل الذي يتأمل سقوط المطر. كنت أعتقد

أنه مجرد فتى بسيط ضيق الأفق انهار عالمه قبل قليل. لكن كلماته، والنبرة التي استخدمها، كانت جديرة برجل اعتاد السير في طريق الألم. كان يبدو شخصًا مُهيئًا دائمًا لتلقي أفظع الهزائم.

-هذا يبسط لي الأمور إلى حدٍّ ما.

رغم أن هذا مثير للخجل، إلا أنني عثرت في هذا الحزن الحكيم على ملاذ لكي أتخلص من الشعور الغريب بالذنب الذي كان يحاصرني.

-هيا، إنني أسمعك -أدار موراليس المقعد نحوي، كأنما لكي يركز بشكل أفضل، أو لكي لا يأسره المطر مرة أخرى.

حكيت له كل شيء. حينئذ لم أجد نفسي مُجبرا على استخدام صيغة الجمع التي تشتت مسؤولية رومانو وسيكورا. فليذهبا للجحيم. وانتهى الأمر بأن حكيت له أنني ذهبت إلى مجلس القضاء لكي أرفع شكوى ضدهما، وأنني انتظر تقرير الأطباء الشرعيين بشأن الضرب الذي تعرض له عاملا البناء.

-مسكينان -قال موراليس - أي مشكلة أوقعوهما بها.

قال هذه الكلمات بنبرة محايدة، خاليةً تمامًا من التأثر، وتعطي الانطباع أنه يتحدث عن أمر لا يخصه مُطلقًا. كنت أخشى من رفض موراليس لتصرفي، أن يصر بشدة على التمسك بالمسار الذي صاغه رومانو مع الأبله الآخر من دخان غباءهما. حينئذ بدأت أدرك أن الفتى على قدر من الذكاء بحيث لا يجد عزاء في أي حكاية بخلاف الحقيقة.

-إن أمسكوا بالقاتل، ماذا سيحدث له؟

تحدَّث موراليس بدون التوقف عن النظر للمطر الذي أصبح خفيفًا.

لم يمكنني تفادي أن تخطر نصوص قانون العقوبات على رأسي،

بخصوص السجن المؤبد، بالإضافة للعقوبة الإضافية بالسجن مدى الحياة لمن « يقتل من أجل الإعداد، تسهيل أو إكمال أو إخفاء جريمة أخرى». أعتقد أنني أدركت أن أي حقيقة لا يمكنها أن تؤذي ذلك الرجل، ببساطة لأنه لم يعد هناك أي جزء سليم في روحه يمكن أن ينكسر.

-جريمة القتل. المادة 80، القسم السابع من قانون العقوبات. في هذه الحالة المؤبد.

-السجن المؤبد...

قال موراليس، كأنما يبذل جهدًا لفهم مغزى الفكرة. انتبهت إلى أنه لم يقل «عقوبة مؤبدة»، كما يقول كل من يجهلون القانون تقريبًا، وأن استخدم المصطلحات التي تظهر في الأفلام. كان ذلك الفتى ما زال يدهشني. وجرؤتُ على سؤاله:

-هل يحبطك هذا؟

خشيت أن أبدو قاسيًا بذلك السؤال شديد الخصوصية. في نهاية الأمر كنا غريبن. عاد موراليس للنظر لي بحيرة مفاجئة بدت لي حقيقية. وردَّ في النهاية:

-لا. يبدو لي عادلًا.

التزمت بالصمت. ربما كان من واجبي أن أوضِّح له أنه لدى تطبيق العقوبة الإضافية بالسجن مدى الحياة المذكورة في المادة 52 من القانون الجنائي، إن لم يكن القاتل قد ارتكب جرائم سابقة، فقد يخرج من السجن مع الوضع تحت المراقبة بعد عشرين أو خمس وعشرين سنة. لكن بدا لي أن هذا قد يزيد من ألمه. ولأن نظرتي كانت ثابتة على موراليس، الذي كان ينظر بدوره للرصيف، لاحظت فجأة أن حاجب مُحدثي ينقبض كإشارة على الاستنكار.

نظرت أيضًا للخارج. كان المطر قد توقَّف، والشمس تضيء الشوارع المبتلة وتلمع في البِرك، كأنها لم تطلع الشمس من قبل. قال موراليس فجأة:

-أكره حدوث هذا.

وكأنني يجب أن أدرك إلام يشير بـ»هذا»، أضاف:

-لم أتحمل مُطلقًا رؤية طلوع الشمس بعد عاصفة. فكرتي عن اليوم الممطر أن المطر يجب أن يسقط حتى الليل. أن تطلع الشمس في الصباح التالي، دورة طبيعية، لكن هكذا؟ أن تتدخل الشمس حيث لم يستدعها أحد... في الأيام الممطرة تُعتبر الشمس دخيلًا لا يمكن التسامح معه.

توقف موراليس خلال ثانية، ورسم ابتسامة شاردة وأضاف:

-لا تشغل بالك. لابد أنك تعتقد أن المأساة قد أتت على عقلي. ليس لهذا الحدِّ.

لم أعرف بم أجيب. لكن موراليس، الذي بدا أنه لا ينتظر إجابة، أضاف:

-أُحب الأيام الممطرة منذ طفولتي. دائمًا ما بدا لي حُمقًا أن يتحدث الناس عن «الطقس السيء» لدى سقوط المطر. لماذا طقس سيء؟ أنت أيضًا قلت شيئًا شبيهًا لدى الخروج من دار القضاء، أليس كذلك؟ لكنني أعتقد أنك قلت هذا لكي تقول أي شيء، لأنك لم تكن تشعر بالراحة ولم تكن تعرف كيف تملأ ذلك الصمت. ربما لم تكن تقصد هذا.

واصلتُ الالتزام بالصمت.

-أنا جاد. هذا طبيعي. أعتقد أنني شخص غريب. لكنني أرى أن المطر يتمتع بسمعة سيئة لا يستحقها. الشمس... لا أعرف. مع الشمس يبدو كل شيء أسهل. كما يحدث في أفلام ذلك الممثل... ما اسمه؟ بلاتيو أورتيجا.

هذه السذاجة المفترضة دائمًا ما تخرجني عن أطواري. الشمس لديها دعاية كبيرة. ولهذا يثير حنقي أن تتدخل في الأيام الممطرة. كأن الشمس اللعينة لا تتحمل ببساطة أن نتمتع نحن من لا نبجلها بيوم كامل من المطر.

في تلك اللحظة كنت أنظر له مذهولًا تمامًا. كان أطول خطاب أسمعه منه. وسمح موراليس لنفسه بحدٍّ أدنى من تحريك اليدين بينما يتحدث، كأنما يشرح التحركات في فيلم يفكر في إخراجه:

-إنه يوم مثالي، بالنسبة لي بالطبع، هذه هي الحقيقة. صباحٌ مُحَمَّلٌ ببضعة سحب ثقيلة، بضعة مرات من الرعد، وقدر جيد من المطر طوال اليوم. لا أقول سيول، لأن الحمقى مُحبي الشمس سيضاعفون شكواهم إن امتلأت المدينة بالمياه. لا، يكفي مطر منتظم يستمر حتى الليل. لكن حتى وقت متأخر من الليل. لكي يمكن للمرء أن ينام على إيقاع تساقط المياه. وإن أمكننا إضافة بضعة مرات من الرعد مرة أخرى فسيكون هذا أفضل.

ظل صامتًا خلال دقيقة، كأنما يتذكر ليلة كتلك. وامتعض فمه مستنكرًا قبل أن يضيف:

-لكن هذا... هذا نصب.

ظللت أنظر لوقت طويل إلى وجه موراليس، وكان ما زال ملتفتًا إلى الشارع بتعبير من يشعر بالخداع. مِلتُ إلى الاعتقاد أن عملي جعلني مُحصنًا ضد المشاعر والتأثر. لكن ذلك الفتى الذي كان متهاويًا فوق المقعد بعجز جدير بخيال المآتة، والذي كان ينظر مُحبطًا للشارع، جسَّد بالكلمات شيئًا شعرت به منذ طفولتي. أعتقد أنني أدركت في تلك اللحظة أن موراليس كان يذكرني بنفسي كثيرًا، أو ربما أكثر من اللازم. أو أنه كان يذكرني بنفسي إن كنت قد أصبحت مُستنفد القوى ومرهقًا من التظاهر بالثقة بالنفس والصلابة

اللذين كنتُ أضعهما كقناع كل صباح، في اللحظة التالية لاستيقاظي، كأنهما سترة، أو ما هو أسوأ، كأنهما زي تنكري. أعتقد أن هذا هو السبب خلف قراري بمساعدته قدر استطاعتي.

11

رغم أنني كنت أعرف أن لحظة حفظ هذه القضية ستصل آن عاجلًا أم آجلًا، حاولت تأخيرها عبر أقدم آلية عرفتها وأقلها نفعًا: محوها من عقلي كلما خطرت على بالي. ولهذا، وبسبب عدم جدوى مقاومتي وبسبب الظروف التي لا يمكن تفاديها، جاءت اللحظة بدقة شديدة أطاحت برفضي وتأجيلي الشبيهين بعناد الأطفال.

ذات يوم من أواخر شهر أغسطس كنت جالسًا في ركني بالقسم، كنت أعمل في إجراءات خروج من السجن. لاحظت أن مدير القسم بيريث يقترب بقضية في يده. عندما ترك الملف يسقط فوق زجاج المكتب صدر عنه ضجيج رخو. وقال قبل العودة لمكتبه:

-أترك لك قضية قتل باليرمو لكي تحفظها.

وفقًا للغة الاصطلاحية التي كنا نستخدمها هناك، كان «ترك قضية القتل لي» يعني أنه يطلب مني أن أقوم بإصدار قرار، و«باليرمو» تشير لمنطقة الأحداث، لعدم وجود مُتهمين مقبوض عليهم يتم تعريف القضية بأسمائهم، و«لكي تحفظها» ترتبط تحديدًا بالقرار الذي يطلب مني بيريث إصداره: ثلاثة شهور من الإجراءات بدون أي إنجاز إيجابي، لا توجد أي معلومة لكي يمكن مواصلة العمل في الملف في أي اتجاه. قُضي الأمر. وداعًا أيتها القضية. حرَّرت قرارات شبيهة مئات المرات، أو أمرت مرؤوسيي بها

في حالة القضايا البسيطة. لكنني كنت أقاوم في هذه الحالة، لأن الأمر لم يكن يتعلق بالنسبة لي بقضية قتل باليرمو، وإنما بقضية مقتل زوجة ريكاردو أجوستين موراليس، الذي قررت مساعدته بقدر استطاعتي. وفي الحقيقة لم استطع سوى فعل القليل للغاية حتى تلك اللحظة.

نحيت القضية التي كنت أعمل بها جانبًا وقرَّبت الملف الأزرق مني. «ليليانا إيما كولوتو قتل». قلَّبت الأوراق. وجدت النتيجة المُنتظرة. محضر الشرطة الأول، مع شهادة أول ضابط يصل لمسرح الجريمة، والتي تتضمن أقوال الجارة التي تعيش في نهاية الممر. وصف الجثة والمكان. استدعاء الطب الشرعي. ملاحظة بإبلاغ المحكمة الابتدائية، أي أنا. أنا من تلقيت الخبر ناعسًا فوق المكتب الكبير في حجرة القاضي، مع اللعين رومانو الذي كان يحتفل بالتقافز بجواري. شهادة بايث التي أصبحت ضمن شهادات الشهود. صور مسرح الجريمة. مررت بها سريعًا رغم اعتقادي أنني تعرَّفت على طرف حذائي بالقرب من يد الضحية، في إحدى الصور المائلة التي تم تصويرها للجثة من اليمين. قلَّبت أوراق التشريح بسرعة، لأن تلك التوصيفات كانت تثير تقززي، لكنني توقفت أمام نتائجه.

اغتصاب... موت نتيجة الخنق... وتلك النتيجة الثالثة؟ لم أنتبه لها عندما تلقيت التقرير قبل بضعة أسابيع. على الرغم من أن هذا لا يبدو ممكنًا، كانت تلك الحكاية قادرة على مضاعفة الألم بغض النظر عن الموت. واصلت قراءة بقية القضية بينما أشعر بضيق مفاجئ، على الرغم من أنني قد تعثرت بمعلومة أخرى غير مُنتظرة. كانت المسخرة الوحشية لرومانو وسيكورا مع عاملي البناء مذكورة: الصفحات البائسة عن «الوقائع المباشرة» حيث قام الوحش سيكورا بالحصول على اعتراف المسكينين عن طريق طحنهما ضربًا. بعد ذلك نسخة من بلاغي أمام المجلس بسبب الممارسات غير القانونية

ونتيجة فحص إصابات كلا الموقوفين.

تذكَّرت رومانو، كما كان يحدث لي كلما رأيت مكتبه فارغًا. فور أن قدمت البلاغ تم فتح تحقيق معه وإيقافه عن العمل احترازيًا. في البداية خشيت أن يُكِنَّ لي موظفوه الغضبَ: في نهاية الأمر كنا كلنا زملاء في ذات المحكمة. لكن علاقتي بهم ظلت ودودة للغاية لدرجة أنني تساءلت إن لم يكونوا ممتنين لي سرًا لأنني أزحت هذا الأحمق عن كواهلهم. واصلت القراءة على الرغم من أنه لم تتبق سوى أوراق قليلة للغاية. إرسال القضية من قسم الشرطة إلى المحكمة، شهادات ذات الشهود في قسمنا، حيث اكتفوا بالتوكيد على ما قالوا. في النهاية تقرير إضافي من الطب الشرعي (دراسة حول الأحشاء لم تضف أي معلومة، وعلى أية حال تجاوزته منقبضًا).

عندما أدرت الورقة الأخيرة قرأت تاريخ ذلك اليوم مكتوبًا على الهامش بقلم رصاص. كان بيريث قد كتبه مُتبعًا التعليمات الواضحة للقاضي: «أي قضية تصل من قسم الشرطة بدون مشتبه بهم ولا جناة معروفين يجب حفظها بعد شهرين. بحد أقصى ثلاثة». كم كنت أود أن يكون فورتونا قد اتخذ هذه القاعدة لأنه صاحب طريقة في العمل. لكن لا، ببساطة كان يفعل لأنه متواضع القدرات. كان شعاره الحقيقي هو «كلما كانت القضايا أقل فهذا أفضل». لهذا هوسه بحفظ القضايا بدون مُتهمين في أسرع وقت، بدون أن يشغله إن كانت سرقات أم وقائع قتل.

تخيَّلت الخطوة التالية. يجب أن أضع ورقة بالشعار في الآلة الكاتبة، بيانات رأس الصفحة المعهودة وقرار من عشرة سطور، ينص على غلق القضية، بدون مُتهمين، وتوصية للشرطة بمواصلة البحث للوصول للجناة. هذا من أجل حفظ الوجه. في الحقيقة كانت مجرد شهادة وفاة للملف: القضية تذهب للمحفوظات وودعًا للأبد.

راجعت كل الأوراق من جديد. حقيقةً لم يكن بها أي شيء في أي مكان. رغم أن فورتونا شخص قذر وبيريث تابع ذليل كانا مُحقين، اللعنة. وصلت إلى التشريح وتوقفت لدى النتائج مرة أخرى. تساءلت إن كان موراليس على علم بما عرفت في تلك اللحظة. خمنت أنه لم يكن يعرف. فكَّرت في تلك المرأة الشابة الجميلة. شابة، جميلة مُغتصبة، ميتة ومتروكة فوق الأرضية الخشبية لغرفة النوم.

كان يجب أن أخبر موراليس. كنت مُتيقنًا أن روح ذلك الرجل بها مكان فسيح يسع الألم، لكنه لا يسع الخداع. على الرغم من هذا، فإن إخباره بذلك وفي ذات الوقت أن أقول له إن القضية ميتة في المحفوظات كان أمرًا بالغ القسوة يفوق القدرة على التَّحمُل.

أخرجت ممحاة من الدرج الأول للمكتب. محوت التاريخ المكتوب على هامش الورقة الأخيرة بعناية، وبدَّلته بآخر سيحل بعد ثلاثة شهور أخرى. فعلت هذا بالدقة المتعثرة إلى حدٍّ ما لشخص يُقلد خط شخص آخر. نهضت وتركت الملف في أحد تلك الأرفف حيث كنت أعرف، عن خبرة، أن شخصًا ما لن يضع أصبعه عليه إن لم يكن بأمر مباشر مني. لم يكن القاضي ولا رئيس القسم سيسألان عن القضية. عدتُ للمكتب وقضيت وقتًا طويلًا في قضم رأس القلم بينما أفكر أي طريقة أفضل لكي أشرح لموراليس أن زوجته، في لحظة اغتصابها وقتلها، كانت حبلى في شهرين تقريبًا.

تليفون

يعرف تشابارُّو أنه سيندم على مهاتفتها، لكن إمكانية سماع صوتها تجذبه بقوة لا تُقاوم، مثل كل شيء مُتعلق بها. لهذا أخذ يتقدَّم شيئًا فشيئًا، ويندم على القيام بهذا مرة بعد الأخرى منذ خطرت الفكرة على باله حتى سمعها ترفع السَّماعة.

يبادرها بقول إنه بحاجة لمعرفة معلومة محددة في الملف. هل هذه الحاجة حقيقية؟ في البداية يردُّ على نفسه بالإيجاب، فبعد ثلاثين عامًا أصبحت الكثير من المعلومات الهامشية (تواريخ، أماكن، التسلسل الدقيق لبعض التفاصيل) تشغل مكانًا ضبابيًا في ذاكرته. لكن سرعان ما يردُّ على نفسه بأن هذا التدقيق هوسي، مُبالغ فيه. هل توجد أهمية لمعرفة إن كانت القضية قد ظلت مُغلقة خلال خمسة أو ستة شهور؟ إنه لا يُوثق حبسًا احتياطيًا وإنما يحكي مأساة كان له شرفًا مشكوكًا في جدارته في أن يكون شاهدًا عليها وشخصًا من شخوصها. كل هذه الصرامة ليست ضرورية إذن. لكن هذا التفكير المتزن لا يحيد به عن مراجعة القضية. يستغرق يومين في هذا وخلالهما يستطيع بالكاد أن يملأ صفحتين غير صالحتين، حتى يجد القدرة على الاعتراف لنفسه بأن فكرة مراجعة الملف تأسره فقط لأنها تعطيه عذرًا قويًا ومقبولًا لزيارة إيريني.

كانت تعرف أنه «يؤلف كتابًا» لأنه أخبرها بهذا. حسنًا. من الطبيعي ان يحتاج الكاتب للتحقق من بعض المعلومات القديمة. رائع. القضية

موجودة في المحفوظات العمومية، في قبو قصر القضاء. أي طريق مُختصر أفضل من مكالمة غير رسمية من قاضية المحكمة الابتدائية التي تناولت هذه القضية القديمة يمكن أن يُسهل لتشابارُّو الوصول إلى الملف القديم؟ رائع. ستُتاح له فرصة تناول القهوة مع إيريني والتظاهر بأنه مؤلف يقوم بعمله. وهي تنظر بإعجاب لذلك المشروع الذي تراه منغمسًا فيه. إيريني تصبح أكثر جمالًا عندما تتحدث عن أمر يثير حماسها. وبالتالي فهذا عُذر مثالي. لماذا يشعر بالتوتر إذن؟ ولماذا يتراجع قبل أن يقرر مهاتفتها مباشرة؟ لأن كل هذا ليس سوى عذرٍ. هذه هي الحقيقة ببساطة. في نهاية الأمر، كل هذا حجة لكي يكون بالقرب منها. ويشعر تشابارُّو أنه موشك على الموت إزاء أدنى احتمالية لأن يكون مكشوفًا أمام المرأة التي يحبها.

إنه يعرف موظفي المحفوظات. مُعظمهم التحق بالقضاء بعده. إن ذهب إلى مائدة الوارد وطلب رؤية ملف، من الصعوبة بمكان أن يُواجه طلبه بالرفض. وحتى في هذه الحالة، توجد لديه إمكانية أن يطلب من رئيس القسم جارثيا أن يهاتفهم من المحكمة لكي يمهدوا له الطريق. ما معنى أن يلجأ لإيريني إذن؟

لا يوجد أي معنى، باستثناء أن يتوفر على خمس دقائق ليكون معها على انفراد مُتذرعًا بعُذر مُتماسك يحتمي به. بدون هذه الحماية لا يمكنه. حتى وإن رغب، لا يمكنه. يشعر بالرعب من أن يبدأ في الاشتعال من أحشائه إلى الخارج، وأن يتعثر بالكلمات، وأن يأخذ في الارتعاد وإفراز العرق البارد.

خجله مُثير للضحك، خاصةً وأن الأمر يتعلق بشخصين بالغين. لماذا لا يقول لها الحقيقة ببساطة. يزورها في مكتبها بدون أعذار ويملح لها بمشاعره. إنهما بالغان. يجب أن تكفيهما الكلمات غير المباشرة، إشارة عادية توحي لإيريني باهتمامه، ولتتخيل هي الباقي.

لماذا لا يمكنه أن يفعل هذا؟ لا توجد أسباب. لا يستطيع فقط. تشابارُّو يكتم مشاعره منذ سنوات طويلة لدرجة أنه يُفضل أن يُدفن بالحقيقة على أن ينطق بنسخة مائعة، مخففة، سهلة الهضم، مم يشعر تجاهها.

لا يمكنه أن يذهب أمامها ويقول لها ببساطة: «اُنظري يا إيريني، أريد أن تعرفي أنني أحبك بجنون منذ ثلاثة عقود، مع وجود فترات أقل حدة طوال السنوات الكثيرة التي لم نعمل خلالها معًا».

يسير تشابارُّو مثل الإنسان الآلي في المطبخ وغرفة الطعام. يفتح الثلاجة ويغلقها خمسين مرة. كان مُستغرقًا تمامًا في أفكاره لدرجة أنه كان يتوقف في كل جيئة وذهابٍ تقريبًا أمام المكتب، ولا يمكنه أن يدرك أن تلك الأوراق المبعثرة هي نطفة كتابه السعيد، على الرغم من كل توقعاته السيئة.

ينظر للتليفون للمرة الألف، كأنما يمكن للجهاز أن يساعده على اتخاذ القرار. فجأة يتقدَّم خطوة نحوه ويتسارع نبضه. ويشعر بالندم على ما سيفعل قبل الدق على الثلاثة أرقام الأولى. لكنه يستمر، لأنه قرر تجسيد رغبته في ذات الوقت الذي يشعر فيه بالندم على قراره، في ذلك المزيج من التهكم والأمل الذي يميز حياته.

يطلب رقم مكتبها المباشر. لا توجد لديه أدنى رغبة في اطلاع موظفيه السابقين على مكالمته. تردُّ بعد الجرس الثالث.

«أهلًا؟» إنه صوت إيريني. يشعر تشابارُّو بالدهشة من جديد إزاء تلك الإشارة، التي تُدرك بالكاد، على استقلالية معايير المرأة التي يعشقها: كل الأفراد، فور التحاقهم بالعمل في القضاء، ينسخون من زملائهم الصيغة البيروقراطية للرد على الهاتف بتعريف أنفسهم بكلمة واحدة «المحكمة» أو «النيابة» أو في أفضل حالات اللُطف والتهذيب يضيفون «صباح الخير».

لكن إيريني لا تفعل هذا.

منذ يومها الأول في السلطة القضائية قررت بدء حواراتها بتلك الكلمة الدافئة الحميمية «أهلًا؟»، كأنها ترد على مكالمة جدتها. تشابارُّو يعرف هذا لأنه كان رئيسها الأول. كان قد ترقى مؤخرًا إلى رئيس قسم عندما التحقت إيريني بالإدارة كموظفة مؤقتة. وبقرار سيندم عليه إلى حدٍّ ما بعد ذلك، لم يخاطبها بدون ألقاب عندما قدموها إليه. كانت تربيته صارمة فيما يتعلق باحترام النساء، وبالأخص مع الشابات اللائي انهين الدراسة الثانوية قبل قليل ويتقدَّمن نحوه بينما يمدن أيديهن ويقلن باقتضاب «تشرفت بلقائك». لهذا قال لها «كيف أحوالك؟ يشرفنا أن تعملي معنا». كان تشابارُّو في الثامنة والعرشين حينئذ، أكبر من موظفته الجديدة بعشرة سنوات، وكان مُقتنعًا أن الرئيس يجب أن يحافظ دائمًا على تراتبية واضحة مع مرؤوسيه. كان قد تلعثم قليلًا عندما نظر في عينيها، لأن تلك الفتاة كانت تتوغل في عيني المرء، وكأنها أصابت في إلقاء حجر وسط موجات حدقتيه السوداوين. خرج من المأزق بإطلاق اليد التي مدتها لها في الحال وتكليف الكاتب بمهمة تدريبها على المهام البسيطة. وبما أنهم كانوا في وسط الدورة القضائية العمل ومثقلين بالمهام، جعلوها ترد على الهاتف. بعد المرة الرابعة أو الخامسة من «أهلا؟» من الموظفة الجديدة، اعتقد تشابارُّو أنه سيكون من المناسب أن يشرح لها، من وجهة نظر العمل في المحاكم، أن ردها على التليفون بعبارة «الإدارة رقم 19» سيكون أفيد بكثير بدلًا من تلك التحية الأخرى العائلية الشائعة، لأنها ستوفر وقتًا في المهاتفة يجب أن يستخدمه محاورها في التغلب على دهشته من غرابتها والتحقق من أنه قام بالفعل بالاتصال بمحكمة. وقبل أن ينتهي من شرحه، شعر تشابارُّو أنه أبله، رغم أنه لم يكن يعرف بدقة إن كانت هذا بسبب الحمق الكامن في توصيته أم بسبب التعبير الخجل اللطيف الذي

كانت إيريني تنظر به إليه، التي أحنت رأسها مرتين على الرغم كل شيء، كأنها تقبل ملاحظته. ورغم هذا، عندما رنَّ الهاتف بعد ثلاث دقائق، ردَّت «أهلًا» شديدة الألفة وأبعد ما تكون عن اللهجة القضائية كسابقاتها. لم تكن هناك جرأة في صوتها. لم تُشعره بأدنى قدر من التحدي. ربما لهذا لم يمكن لتشابارُّو أن يشعر بالغضب واعتبر الأمر منتهيًا.

استمرت إيريني تردُّ طوال حياتها كما فعلت في ذلك اليوم من أغسطس، بعد ثلاثين عامًا من لقاءهما الأول، عندما توقَّف عن اللف والدوران في بيته، من الاقتراب من التليفون، من رفع السماعة ووضعها عشرين مرة، عندما قرر في النهاية أن يطلبها في مكتبها، أو لم يستطع تفادي هذا، وهي الطريقة التي تختمر بها القرارات الهامة داخل تشابارُّو . ويسمع «أهلًا؟» التي جعلت قلبه يقفز داخل صدره.

حُجَجٌ ومباعدات

يتَّجه بنجامين تشابارُّو مباشرة إلى مكتب القاضية. لم يمر بإدارته ولا بالدائرة رقم 18. اضطرابه شديد لأنه يوشك على رؤية إيريني، ويعتقد أن أي شخص من المعارف يلتقي به سينتبه للحب الذي يطفر من أذنيه. يدقُّ الباب مرتين. صوت إيريني يدعوه للدخول يطل برأسه بذلك التعبير غير الإرادي الخجول الذي يبغضه عندما يكونا منفردين. يضيء وجهها بابتسامة عندما تراه.

-أُدخل يا بنجامين. تفضَّل.

يخطو بنجامين بينما يشعر أنه يبدأ في الاتقاد. هل أخضب وجهه حمرةً؟ ينظر لها بينما يحاول ألا يبدو عليه انبهاره كما في المرة الأولى. طويلة القامة، وجهها نحيل. كانت أكثر نحافة في شبابها. السنوات أو الأبناء جعلوها أكثر امتلاء وأفضل مظهرًا. يتبادلان التحية بقبلة على الوجنة. وبعد أن جلسا، كل منهما على جانبٍ من المكتب الكبير المصنوع من خشب البلوط، ينفث تشابارُّو الهواء الذي كان يكتمه منذ اللحظة السابقة على القبلة. الآن يمكنه أن يتنفس على راحته: بما أنه لم يشم رائحتها، من الممكن ألا يصيبه عطرها بالسهاد خلال الليلتين أو الثلاث ليال التالية. يبتسمان بدون كلمات، يشعران بشيء من الخجل، كأنما اكتشف كل منهما الآخر بينما يقوم بشيء لطيف لكن محظور. يؤجل تشابارُّو نطق كلماته الأولى، لأنه يراها مخضبة بالحُمرة وهذا

يُشعره بالسعادة بشكل غريب. لكن عندما تنظر إلى أعماق عينيه ويبدو أنها تستجوبه فيها وراء كل حُجَجه، يشعر أنه فقد المبادرة ومن الأفضل أن يعود للخطاب العقلي الذي أعده مُسبقًا.

يخبرها بما يريد، ولكي يبرر طلبه يحكي لها باختصار عن «كتابه»، ويعطيها فكرة (وتتحمس بينما تسمعه) عن الحكاية التي تعرفها سطحيًا بالكاد من تعليقات تشابارُّو ذاته والديناصورات الأخرى في المحكمة. عندما ينتهي تنظر له إيريني نظرة مرحة.

-هل تريد أن أهاتف موظفي الأرشيف؟

-إن كان هذا ممكنًا... سيسعدني كثيرًا - يزدرد تشابارُّو لعابه.

-لا توجد أي مشكلة يا بنجامين -تقطب حاجبيها قليلًا -. رغم أنهم يعرفونك أكثر مني.

«اللعنة»، يُفكر تشابارُّو . هل كانت حُجَّته بريئة للغاية؟ كانت أوراقه تحترق. قال:

-الأمر يتعلق بقضية قديمة للغاية كما تعرفين.

-نعم، أعرف. لقد حكيت لي ذات مرة عن هذا الأمر. جاءت القضية بعد أن أرسلتني بترقية إلى الدائرة رقم 11، أليس كذلك؟

هل توجد نية خفية خلف «أرسلتني بترقية»؟ إن كانت موجودة، فإن إيريني أذكى مما يريد تشابارُّو أن يتخيل. في عام 1967، وبالتحديد في أكتوبر، بعد أسبوعين من تقديمها إليه كمتدربة، وعندما كان تشابارُّو قد تخلي تمامًا عن مساعيه لكي تردَّ على الهاتف كما يجب، حلم بها. استيقظ مرتعدًا. كان رجلًا متزوجًا، وحينئذ كان يحاول إقناع نفسه أن زواجه من مارثيلا على ما يرام. حاول نسيان الموضوع لكنه عاد ليحلم بها في الليالي الخمس التالية. في

المرة الأخيرة كانت صورة إيريني حية للغاية، كان بريق جلدها العاري مُقنعًا للغاية لدرجة أن تشابارُّو بكى عندما استيقظ واكتشف أن هذا لم يحدث حقيقة. في ذلك الصباح ذهب للمحكمة وقرر تطهير روحه من الحب الذي بدأ يقضي عليه. اتصل بكل زملائه ممن كانت تربطه علاقته بهم وثيقة إلى حدٍّ ما. حدثهم بشكل رائع عن المتدربة التي كانت تخطو خطواتها الأولى في القضاء، والتي كانت تدرس القانون وتستحق عملًا بأجر. في ذلك الحين كان تشابارُّو رجلًا يحظى بالاحترام في الأوساط القضائية، وربما كان محبوبًا.

بعد بضعة شهور هاتفه أحدهم ليعرض عليه وظيفة مُساعد «للفتاة». كسر تشابارُّو دائرة الصمت التي فرضها على نفسه طوال ذلك الوقت لكي يُبلغها بالخبر الجديد. ابتهجت إيريني كثيرًا، وآلمه هذا الابتهاج على نحو ما. ربما يعني عدم أسفها على الرحيل أنها لا تُخلِّف أي شيء في القسم. شيء لا يثير العجب مُطلقًا. قال لنفسه إن هذا منطقي. كانت مخطوبة لفتى يدرس الهندسة، صديق أحد أخوتها الكبار. شعر تشابارُّو بالذنب أمام مارثيلا بسبب ذلك الحب الخاطف الذي بدأ يستهلكه. معرفة أن مشاعره غير متبادلة، بالإضافة لكونه خائنًا، كان يُشعره بالوحدة. قال لنفسه إن هذا أفضل. نزعُ نبتة من جذورها، لأنها في كل الأحول لم تكن ستينع أو تُثمر.

كان هذا في مارس 1968، قبل قليل من وصول قضية موراليس. منذ ذلك الحين لم يرها. كانت المحاكم تنضوي على هذا المنطق الغريب. الشخص الذي يعمل في طابقين في الأسفل ينتقل للحياة في بُعدٍ آخر أو ما يشبه هذا. حتى 1976 لم تصله أخبارها، لكن في فبراير من ذلك العام سقطت عليه من السماء كرئيسة قسم: كانت قد حصلت على شهادتها في القانون وتم تعيينها في هذا المنصب. كما لم تكن تلك اللحظة مناسبة لكي يجرؤ تشابارُّو على أي شيء. كان رجلًا حرًا، لأنه انفصل عن مارثيلا قبل سنوات عديدة، لكن يوم

التقيا مرة أخرى عبرت إيريني الباب بينما تتقدمها بطن في الشهر السادس من الحمل. ولأنه لم يرغب في معرفة أي شيء عنها، لاعتقاده أنه يحافظ على نفسه بهذا، وأنه يوفر على نفسه الإقرار بأن لها حياة يجهلها، كان إفطاره في ذلك اليوم معرفة أنها تزوجت قبل عامين بالطالب السابق الذي أصبح مُهندسًا وأنها تنتظر ابنها البكر.

عندما عادت إيريني من إجازة العناية بالطفل كان تشابارُّو هو من رحل. اندهشت لقبول نائبها منصبًا شاغرًا في المحكمة الفيدرالية بسان سالفادور دي خوخوي، لكن وصل لها الهمس بأن القاضي أجيريجراي شخصيًا هو من عرض عليه المنصب. ورغم أن إيريني لم تكن مُطلعة على الأمور السياسية، إلا أنها أدركت بسهولة النبرة الخبيثة التآمرية في التعليق: بداهةً كان تشابارُّو مُعرضًا لخطر ما إن ظل في بوينوس أيرس في شتاء 1976 البارد.

خلال السنوات التالية تلقى كل منهما أخبارًا مُبتسرة على حياة الآخر. عرف تشابارُّو أن إيريني واصلت صعودها على درجات الترقي: أصبحت نائبة عمومية في 1981، رئيسة دائرة بعد بضعة سنوات. ومن جانبها، عرفت إيريني أنه عاد إلى بوينوس أيرس في 1983، عندما كانت الدكتاتورية تحتضر. جاء متزوجًا من امرأة من المدينة التي كان يقيم بها، والتي سينفصل عنها بعد فترة. سنوات عقد الثمانينات كان أكثر فترة موسومة بانعدام تواصلهما: بالكاد تبادلا حوارين سريعين في لقاء عابر في الشارع. عرفت إيريني أن زوجة تشابارُّو تُدعى سيلفيا وإنهما لم ينجبا. وعرف تشابارُّو أن إيرني ما زالت متزوجة من المهندس وإن بناتها الثلاث تكبرن بدون منغصات.

التقيا من جديد بعد بضعة أعوام، في 1992. كان تشابارُّو قد انفصل للمرة الثانية، ووصل إلى قناعة بأن الحياة في وحدة تامة حتى المات هي أكثر حياة مناسبة له. كان واضحًا أنه لا يصلح للزواج. كان قد تجاوز الخمسين

من عمره. ربما كانت لحظة جيدة للتخلي عن النساء. كان مُجهزًا لكي لا يحتاجهن. لكنه لم يكن مُجهزًا لتقاعد القاضي ألبرتي في بداية العام وأن تأتي إيريني كقاضية جديدة.

عندما جلسا وجهًا لوجه، في ذات المكتب الذي يجلسان فيه الآن، ابتسما كائنين من قدامى المحاربين في حرب كان بقية المشاركين فيها من المجندين الغضين. «لقد التقينا من قبل»، قالت إيريني مُبتسمة، وشعر تشابارُّو أن الخمسة وعشرين عامًا، التي كانت تفصله عن متتالية الأحلام التي زعزعت أركان روحه من أساسها، قد انهارت دون أن تترك أدنى أثر. لا يحق لهذه المرأة أن تُمارس هذه الابتسامة. لكنها كانت ما زالت تحمل لقب «أركوري»، وهذا يعني أن المهندس ما زال متزوجًا منها، وهذا هو نوع العقبات التي لم يكن تشابارُّو مُستعدًا لتخطيها. على الأقل ليس في هذه اللحظة من حياته. وهكذا قام بتحيتها بمصافحة وعبارة بشعة قال فيها «ماذا تقولين يا دكتورة؟»، والتي وضعت مسافة حذرة بينهما. قَبِلتْ هذا الحد وتعاملًا بكياسة مُتحفظة خلال العامين التاليين، رغم أنهما كانا معا خلال ثمان أو تسع ساعات يوميًا، خمسة أيام في الأسبوع.

ذات يوم، بلا تمهيد، خاطبته إيريني دون ألقاب. بتلقائيتها المعتادة الدائمة، قالت له ببساطة ذات يوم اثنين: «كيف حالك يا بنجامين؟ احتاج لمساعدتك في إجراءات إنهاء حبس آل ثاباتا، هل يمكنك؟». وأمكن تشابارُّو أن يساعدها. وهكذا استمرت الأمور خلال السنوات التالية، حتى أعلن أنه سيتقاعد. هل فاجآها الخبر؟ المتفائل الأبدي الذي يسكن تشابارُّو أراد أن يوعز له بأن وجهها قد اكتسى بتعبير حزين مكتوم ودهشة لم تستطع مداراتها. لكن لم يكن هناك دافع لهذا. كان مُفترضًا أن كل من يعملون في المحكمة يعرفون. هل ضايقها إذن أن يرحل؟ على أية حال، قضى تشابارُّو

على هذا التأملات من جذورها. تساءل -لم يستطع تفادي هذا- إن كان الأمر يستحق أن يعترف بالحقيقة لهذه المرأة التي كان يحبها، وفوجئ بأن الإجابة هي النفي، الأمر لا يستحق مُطلقًا. ألا يعني تصريحه بحبه لتلك المرأة اعترافًا بأنه أحبها طوال ثلاثين عامًا تقريبًا؟ ألا يعني الاعتراف بأنه قضي حياته يحبها عن بُعد؟ يمكنه الرَّد بثقة: لا. بالفعل، لم يتشاركا إلا وقتًا قليلًا طوال هذه المدة الطويلة. لكن في أعماق روحه كان تشابارُّو يعرف أنه لم يتوقف عن حُبها مُطلقًا، وأن مزيجًا من الحظ والكياسة والجُبن قد أبعدها عنه. كان مالكًا لصمته. إن تحدَّث سينتهي به الأمر بالسقوط في مستنقع شفقتها. كان عازمًا على يوفر عليها ويوفر على نفسه أي عبارة من نوع « مسكين يا بنجامين، لم أكن اعرف...» مجرد التفكير في هذا يجعل الغضب والخجل يغشيان عيني تشابارُّو ، ليمت حبه معه، لكن دون أن يتلوث.

-بنجامين... أليست هذه هي تلك القضية؟

ينتفض تشابارُّو . تنظر له إيريني مُبتسمةً ومستجوبةً، وهو يتساءل كم من الوقت ظل بوجه أبله. في الحقيقة لا يمكن أن يكون وقتًا طويلًا. كان معتادًا على التفكير في هذه الحكاية، التي يحبها والتي تؤلمه، ولهذا على الأقل فكَّر بسرعة.

-نعم، نعم. إنها تلك القضية.

-حسنًا. سأهاتفهم الآن.

تتردد إيريني لثانية، بينما تنظر له بثبات، قبل أن تبحث في أجندتها عن رقم المحفوظات. في النهاية تنفك عُقد أحشاء تشابارُّو عندما تنزل بعينيها إلى الأجندة والهاتف. تتصل وتحيي ببساطتها المعهودة، وتطلب التحدث للمدير. عيناها مفتوحتان تمامًا، وتبتسم بتعبير ذاهل إلى حدٍّ ما كمن يتحدث

مع شخص من دون أن يراه. هكذا، في وضعها من الجانب، مستديرة إلى النافذة تقريبًا، يمكن لتشابارُّو أن ينظر لها على راحته. على أية حال يتحكم في نفسه. يعرف عن خبرة أنه بعد برهة من النظر لها، سينتابه الضيق لعدم قدرته على أخذها بين ذراعيه وتقبيلها بلا كلل. في النهاية يُفضل النظر للجانب الآخر.

-حسنًا يا بنجامين -تقول عندما تضع السماعة-. لا توجد أي مشكلة. إن بلاطات المحفوظات تعرفك.

-هل هي مجاملة أم مزحة بسبب هِرمي يا دكتورة؟

تتخذ سمتًا جادًا. عيناها فقط تبتسمان بشكل خفيف.

-يجب أن أفترض أنك لن تطل بوجهك في هذه الأنحاء ثانيةً حتى احتياجك لنا مرة أخرى، أليس كذلك؟

«إن كان الأمر يتعلق بالاحتياج إليك، فلن يمكنني الخروج من هذا المكتب بقية حياتي». هذه هي الإجابة التي كان تشابارُّو سيقدمها إن كان جريئًا. لكن، لأنه لا يمتلك الشجاعة الكافية يقول بصوت عال:

-يمكنني المرور في أي يوم يا إيريني.

لا تردُّ. تنهض من مقعدها، تُقرب وجهه منها وتطبع قبلة كبيرة مسموعة على وجنته اليسرى. يشعر تشابارُّو بامتلاء شفتيها، الملامسة الخفيفة لشعرها، لدونة جسدها القريب وعطر وحشي لعين يتجه مباشرةً إلى مخه، إلى الذاكرة، إلى رغبة امتلاكها وإلى أرق من ثلاث ليال بنهاراتها.

المحفوظات

دخول المحفوظات العمومية يسبب لديه ذات الشعور دائمًا. في البداية تأثير كئيب، كأنما يدخل قبرًا. لكن بعد ذلك، ما أن يصبح داخل ذلك النوع من القبو الصامت المُعتم، فإن السير في تلك الممرات الضيقة التي ترتفع على جانبيها أرف ضخمة ممتلئة بالملفات يسبب له شعورًا غير معهود بالأمان، بالملاذ.

يسير أمامه موظفٌ يقوم مقام الدليل. يفكر تشابارُّو في سهولة إدراك مرور الزمن في التدهور الجسدي لمن يحيطون بنا. إنه يعرف ذلك الرجل منذ.... كم؟ ثلاثين عامًا؟ لابد أنه قد تجاوز سن التقاعد. ساقه اليسرى عرجاء قليلًا. مع كل خطوة يترك حذاؤه على البلاط صدى خفيف لورق صنفرة. لماذا يعمل حتى الآن؟ يخمن تشابارُّو أنه بعد كل تلك السنوات في حراسة تلك المقبرة الصامتة، حيث تموت كل الأصوات على الأرفف الممتلئة، فلابد أن ذلك الرجل يرى العالم الخارجي شبيهًا بعالم تعرض لانفجار مرعب، مثير للضيق ومنفر. يُشعر بالهدوء عندما يفكير أن ذلك الرجل ليس في سجن وإنما في ملجأ.

بعد فترة من السير، وعندما أصبح تشابارُّو تائهًا تمامًا في تلك المتاهة المعتمة، توقَّف العجوز أمام رف مُطابق للألف التي مرا عليها من قبلٍ ويرفع عينيه للمرة الأولى. حتى تلك اللحظة كان يسير من دون أن يحيد بنظره إلى

الجانبين مرة واحدة، بينما يدور من حين لآخر لليمين أو لليسار بثقة مُطلقة كفأر معتاد على العتمة. يرفع ذراعيه إلى رف يبدو أنهما لا يصلان إليه. تصدر عنه آهة خفيفة عندما يفرد أوصاله المُستهلكة. يشد حزمة من الملفات المُعرَّفة برموز من خمسة أرقام. ويستأنف السير عندما يمسك بها. يتبعه تشابارُّو حتى نهاية الممر ويستدير خلفه إلى اليمين. إن كانت كل الممرات سيئة الإضاءة، فإن هذا تحديدًا كان شبه معتم. لدرجة أن تشابارُّو يتوقف في محاولة لكي تعتاد عيناه على العتمة، لأنه يخشى الارتطام بالأرفف، بينما يوجد تائهًا في ذلك البئر ذي الحدود السوداء. خطوات موظف الأرشيف تواصل الابتعاد حتى تصبح غير مسموعة، كأنما ولج من فوره في بحر من الظلمات. بعد بضعة ثوان أوشك خلالها الضيق المفاجئ من الشعور بالوحدة على الإمساك بتشابارُّو ، يسمع طقطقة بعيدة: أشعل العجوز مصباحًا فوق مائدة عارية. وكان هناك مقعد مُحطم يستكمل أثاث «ركن القراءة» الذي يبدو أن الآخر يعده له. يسير نحوه مبتهجًا تقريبًا لنجاته من الثقب المظلم في الممر.

يفتح العجوز حزمة الملفات في حركتين جديرتين بخبير. يترك الحبل المصنوع من أليفات السيزال جانبًا لكي يمكنه ربط الحزمة مرة أخرى عندما ينتهي الزائر. يفصل الملف الذي جاءا للبحث عنه. الأجزاء الثلاثة متصلة بشريط أبيض. يتركه بعناية على المائدة الخشبية ويضع المقعد في مكانه.

-أتركه لك هنا -الصوت مُنهك، بالأحرى حاد. صوت رجل وصل للهِرم- عندما تنتهي عليك فقط أن تترك كل شيء كما هو. سآتي وأرتبها. - يبدأ في اليسر حتى يتوقف ويستدير، كأنما تذكَّر شيئًا ما-: لكي تخرج يجب أن تسير في اتجاه مائل. يجب أن تذهب مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار في التقاطعات، وهكذا -يُرفق كلماته بإشارة غامضة من ذراعه. -إن سمعت ضجيجًا لا تقلق، إنها تلك الفئران اللعينة الموجودة في كل مكان. لا نعرف

ماذا نضع لها: سم، شِراك... جربنا كل شيء. في كل يوم أُخرج الكثير من الفئران الميتة. لكنها أكثر في كل يوم وليست أقل. ربما لا تضايقك. إنها لا تحب الضوء.

-شكرًا -ردَّ تشابارُّو ، لكن العجوز كان قد استدار واختفى عندما دارَ في نهاية الممر.

الخياط

يتعرَّف تشابارُّو على يد بابلو ساندوفال الخبيرة في الخياطة الدقيقة لمؤخرة الملف. وكما يحدث دائمًا كلما استدعاه أي أمر تافه إلى ذاكرته، يشعر بافتقاده من جديد. أفضل موظف عمل معه. سريع التَّعلُم، كتابة ممتازة، ذاكرة فائقة. وكما يحدث دائمًا كلما تذكره، ينتبه تشابارُّو إلى أنه كان ظالمًا كما في كل مرة. بدأ ذكراه عن بابلو ساندوفال كاستدعاء مدحي لأفضل موظفيه. وهذا أمر سيء. ليس لأن هذه الذكرى زائفة. بالطبع كان بابلو ساندوفال أفضل زميل أمكن لتشابارُّو أن يعتمد عليه. لكن لكي يكون عادلًا مع بابلو ساندوفال يجب أن يقول إنه كان صديقًا جيدًا بالإضافة إلى أنه كان موظفًا استثنائيًا.

الاحتراز الوحيد الذي كان يجب على تشابارُّو أن يقوم به عندما كانا يعملان معًا هو الانتظار لبضعة دقائق ثم الإِطلال من نافذة القسم بعد انتهاء العمل، عندما يجمع ساندوفال أغراضه في وقت الغروب، ويودعه قائلًا «إلى الغد». إن رآه يعبر شارع توكومان باتجاه شارع قرطبة فهذا يعني أن كل شيء على ما يُرام: كان موُظفه يتجه إلى بيته كرجل جيد وزوج أكثر من جيد. وعلى العكس، إن مرت الدقائق ولم يمر ساندوفال هناك، كان تشابارُّو يُجهز نفسه لأسوأ الاحتمالات، لأن معاونه ذهب لركوب مترو يُقربه من البارات القذرة في (باسيو كولون)، بنية لا راد لها بأن يشرب حتى يسقط مغشيًا عليه. حينئذ كان رئيسه يغلق النافذة ويهاتف زوجة ساندوفال لكي يخبرها بأن زوجها سيعود متأخرًا في تلك الليلة، لكنه سيكون برفقته. تتنهد

المرأة وتشكره ثم تضع السماعة.

ويستمر في العمل بعض الوقت، على الأرجح حتى يحل الليل. بعد ذلك يخرج من مدخل الحرس، في شارع توكومان، ويأكل أي شيء في مقهى كورينتيس. قبل منتصف الليل يأخذ تاكسي حتى منطقة باخو ويجعله يتوقف بالتوالي في الثلاثة أو أربعة بارات المعهودة. عندما يعثر على ساندوفال كان يربت على كتفه، يفتش في جيوبه ليرى إن كان معه ما يكفي من النقود لدفع الكئوس الأخيرة ويضع الفارق. بعد ذلك يدفعه حتى التاكسي ثم يتجهان إلى بيته. عندما يتوقفان أمام الباب تخرج زوجته إلى المدخل وتُسرع لدفع أجرة التاكسي. لم يكن تشابارُّو يصر، لأن كان هذا يعني خرق اتفاق غير مُعلن معها ومع ساندوفال ذاته. لهذا كان يكتفي بحمله وتركه على باب الشارع، حيث تتولى الزوجة المهمة، إلا عندما يكون زوجها في حالة مزرية تُجبر تشابارُّو على حمله حتى الفراش. كانت تبتسم بحزن وتودعه قائلةً «ألف شكر».

في اليوم التالي كان ساندوفال يتغيب عن العمل. لكنه كان يذهب في اليوم الذي يليه، بأجفانه متورمة وهالات تحت عينيه. يعرف تشابارُّو أنه لا يستطيع العمل كالعادة عندما يكون على هذا الحالة من الاكتئاب. المحاولة بلا طائل، كأن الكحول قد محا فجأة كل العلامات في ذاكرته والدوائر الغامضة لذكائه. حينئذ كان يكلفه بخياطة الملفات. بدون أن يقول أي كلمة، كان يضع أمامه، فوق المكتب، الخيط الأبيض والإبرة الكبيرة الخاصة بحشيات الفرش، ويذهب الرجل بمفرده إلى الرف المقصود ويبدأ في حمل الملفات. بحركات جديرة بجرَّاح، ببراعة فنان، بوقار شخص شهير، كان ساندوفال يبدو مُجَلِّدَ كتبٍ خبير. عندما ينتهي من قضية كان ملفها يبدو مجلد موسوعةٍ. بعد ثلاثة أو أربعة أيام، عندما تكون أسوأ لحظات حالة اكتئابه قد

مرت، يذهب ساندوفال ذاته مبتسمًا لإعادة الخيط والإبرة، كأنما يعلن عن عدم حاجته لهما.

مات في بدايات الثمانينات، بينما كان تشابارُّو في سان سلفادور دي خوخوي. عناق الأرملة وتكريم ساندوفال كان اندفاعًا كافيًا لكي ينفق تشابارُّو مدخراته في تذكرة طائرة لكي يحضر الدفن، وعلى الأخص لكي يبتعد خلال يومين عن خوفه من الموت على أيدي مجموعة من القتلة الذين كانوا أخطأوا التصويب، وهو أسوأ ما كان في الأمر.

الآن، بعدما مرت عشرون سنة تقريبًا، ينسى تشابارُّو خلال لحظة سبب ذهابه هناك ويقوم بشد الحبل الذي يربط مؤخرة أحد الملفات. يترك الحبل ويتحقق من متانته. كأنما ترك ساندوفال هذه الرسالة الخفية لكي يتذكره تشابارُّو كأحد أبطال هذه الحكاية التي يعمل الآن على حكيها. وحسنًا ما فعل.

يبتسم تشابارُّو بينما يفكر أن ساندوفال وروحه الرقيقة كانا سيقدران هذا التتابع الدقيق للأحداث، هذا البعث البسيط، الحصول ضمنيًا على تكريم يستحقه من صديقه ورئيسه بعد عقدين، عبر الطريق الملتوي للاحتفاء بمهارته كخياط بعد الموت.

أوراق

يمسك تشابارُّو بأحد الأجزاء ويقربه من ضوء المصباح. له غلافان متتاليان من الكرتون. يحتوى الغلاف السفلي على هذه الكلمات «ليليانا إيما كولوتو – قتل» بحروف كبيرة مكتوبة بلون أسود سميك وبيانات المحكمة. وعلى العكس، يحمل الغلاف الآخر هذه الكلمات «إبسيدرو أنطونيو جومث، قتل مُصنف، مادة 80، القسم السابع من القانون الجنائي». يفتح الملف، وعلى الرغم من أنه لا ينتبه لهذا في البداية، يتعثر بذات الإجراءات البوليسية، ذات التصريحات من الشهود، ذات تقرير الطب الشرعي الذي راجعه في أغسطس 1968، عندما تلقى الأمر بحفظ القضية لعدم وجود متهمين وقرر تجاهل الأمر.

يقرأ بضع صفحات. وعلى الرغم من ندمه في الحال تقريبًا، لا يمكنه التغلب على رغبة إعادة رؤية صور مسرح الجريمة. بعد ثلاثين عامًا ما زالت ليليانا إيما كولوتو دي موراليس ملقاة فوق باركيه غرفة النوم بإهمال، بلا حول ولا قولة، عيناها جامدتان وميتتان ومتسعتان، الجلد بنفسجي في منطقة العنق. يشعر تشابارُّو بذات الخجل الذي شعر به يوم القتل، لأنه يتذكر نظرات رجال الشرطة الشهوانية بينما يحيطون بالجسد قبل أن يطردهم بايث، ولا يمكنه التأكد إن كان خجله يعود إلى تلك النظرات أم لتذكر رغبته البذيئة في الانخراط أيضًا في تأمل ذلك الجسد الرائع الذي مات قبل قليل.

يُقلِّب صفحات تقرير التشريح واحدةً بعد الأخرى لكنه لا يقرأها ولا حتى بشكل عابر. يغلق عينيه ويُركز في العطر القديم الذين تنشره أوراق الملف المنفرطة. إنها هنا منذ أكثر من عشرين عامًا، متراكمة واحدة فوق الأخرى، ولا يمكن لتشابارُّو أن يتجاوز صورة تغويه منذ كان طفلًا. يتخيل نفسه وقد تحول إلى إحدى تلك الأوراق. أي ورقة. يُفكر أنه ظل ينتظر سنوات بعد سنوات في عتمة كاملة، بوجه مُلتصق بالورقة المُقابلة، غارقًا للأبد في النعومة اللامعة للصفحة المجاورة. إن كان المرء إحدى تلك الأوراق -يُفكر تشابارُّو -، فإن الخطوات التي تدوي في الممر كل بضعة شهور أو بضع سنوات لن تفيد في قياس الزمن. بالكاد يمكنها أن تؤدي للتعرف على العمق المفزع للوحدة. فجأة، بدون سابق إنذار، بدون بوادر تُعلن عن الكارثة وتسمح له بإعداد نفسه، يشعر بهزة. ودفعة أخرى. ودفعة ثالثة. يشعر بالدوار بسبب أرجحة مفاجئة، إيقاعية إلى حدٍّ ما، كأنما يقوم شخص ما بنقل كتلة الورق المنتظمة التي تحمي المرء أو تحبسه إلى مكان ما. السكون من جديد، لكن هناك غمغمة الوراق التي تنتقل من مكان لآخر.

وفجأة جرح الضوء عندما يحين دوره، أو يحين دور الصفحة التي أصبحها، الصفحة التي تحول لها. لا يهدر هذه الفرصة لرؤية العالم من جديد، على الرغم من أن الكينونة مُرتبطة بوجهه، وجه رجل، رجل عجوز، رمادي الشعر، عيناه صغيرتان، أنفه عقابية، بالكاد ينظر له وبسرعة يُدير رأسه إلى الصفحة التالية، التي ظل فيها طوال سنوات وسنوات مع شخص آخر، في مواجهته، جلداهما متلامسان، حروف فوق حروف. وبعد ذلك تُعتم اليدُ سطحَ الصفحة لأنها تتجه نحو الزاوية وترفع تلك الصفحة المجاورة نحو المرة وتعودان للانصهار معًا مرة أخرى في ذات اللحظة التي ينفد فيها الضوء من جديد ويدرك المرء أنه بدأ أبدية أخرى من العتمة والصمت.

يشعر تشابارُّو بشفقة غير مفهومة بينما يفكر في الأمل المفاجئ وخيبة الأمل الكارثية التي تسببها يداه في كل ورقة بينما يواصل تقدمه. لكن عندما يصل لصفحة 208، تقريبًا في بداية الجزء الثاني من الملف، يتوقف لأنه وصل لوجهته.

إنه قرار من أربعة سطور، مكتوب على ماكينة الكتابة ريمنجتون الخاصة به من دون شك. حروف □ أعلى قليلًا من بقية الحروف. حروف □ ممتلئ التجويف لأن الزر مُستهلك.

شهادة، بتاريخ خاطئ في منتصف أغطس 1968، وفيها يعلن ريكاردو أجوستين موراليس أن لديه معلومات هامة للكشف عن الأحداث. وإلى الأسفل، قرار مُوقَّع من القاضي فورتونا بإعادة الحصول على شهادته.

في ورقة 209 تأتي شهادة موراليس، بتاريخ افتراضي في بدايات سبتمبر. وهو نص أطول بشكل ملحوظ من بقية النصوص. وفيه يظهر لأول مرة اسم إيسيدرو أنطونيو جومث. وفي صفحة 210، قرار جديد بتاريخ 17 سبتمبر بتوجيه خطابات إلى الشرطة الفيدرالية ولمحافظة توكومان بطلب للبحث عن مكان المدعو جومث. كلها تحمل توقيع القاضي والسكرتير. توقيع فورتونا لاكايه ضخم، مُنمق، ملئ بالانحناءات غير المفيدة. توقيع بيريث صغير وعادي، مثل صاحبه.

ينظر تشابارُّو للساعة. يشعر بالتهاب خفيف في عينيه. ذلك المصباح المضيء، وحيد في وسط العتمة، كان يغشي بصره. إنه منتصف اليوم تقريبًا، وسيتوتر موظف المحفوظات إن لم يره يخرج قريبًا. من الصعوبة بمكان أن يستشهد كتابه نصيًا بتلك القرارات القضائية المملة. لكنها أفادته للعودة لأجواء تلك الأيام. لتلك اللقاءات العقيمة التي كان يعقدها مع موراليس لكي لا يخيب أمله بضربة واحدة، أو لكي يخبره شيئًا فشيئًا أن القضية تحتضر

لعدم وجود من تُلقى عليه التهمة، في الحر الذي يُطاق في شهر ديسمبر الجحيمي ذاك.

ينهض تشابارُّو ويرتب أجزاء القضية واحدًا تلو الآخر. لا يطفئ المصباح، لأنه يخشى من التيه بشكل كامل إن سار في الممرات في العتمة. يسير في طريق المدخل بينما يتَّبع الزجزاج الذي أوصاه به الموظف. عندما يتبقى له القليل على الوصول، ينتفض عندما يدور في إحدى الدورات الأخيرة. هناك، في أحد الممرات الضيقة، بساقيه مفرودتين والعينين على الرف المواجه، كان العجوز جالسًا. يشعر تشابارُّو بذات الانقباض الجليدي الذي ينتابه عندما كان يذهب لبيت عمته مارجاريتا التي كانت ضريرة منذ الميلاد. في نهاية الزيارة، في ساعة الغروب وبينما ترافقهم حتى الباب، كانت العمة تطفئ المصابيح بينما يتقدَّمون نحو المدخل، لكي لا تنسى أي مصباح مضاء و «تهدر الكهرباء هباءً». عندما كانت تودعه بينما يميل وجهها الشارد لكي يقبلها على وجنتها، كان الصغير بنجامين يرى البيت غارقًا في الظلام خلف العجوز. صورة عمته جالسةً، بينما تتناول العشاء في العتمة على سبيل المثال، أو بينما تجوب الثقب اللانهائي الذي تمثله الغرف بينما تتحسس طريقها في الظلام، كانت تلاحقه حتى يركب القطار في فلوريستا، وكانت ترعبه.

يودع تشابارُّو الموظف باقتضاب قائلًا «صباح الخير» ويخرج من المحفوظات جاريًا تقريبًا. يصعد إلى الطابق الأول من قصر القضاء وبعد قليل يبتهج لاستعادة بوينوس أيرس المترعة بالشمس والأصوات التي تنتظره على سلالم مخرج شارع لافايه.

بعد ثلاث ساعات، إن كان أحد المشاة قد مر مصادفة على رصيف بيته بشارع كستيلار، لأمكنه أن يسمع الدقات المحمومة للآلة الكاتبة وسط الصمت التام في الشارع، أو أن يرى عبر النافذة هيئة تشابارُّو المنحني على

المكتب ويدق على الأزرار لكتابة المقاطع التي يبدو أنها تشكل الجزء الثاني من كتابه. على أية حال، لم يكن أي شخص يسمعه أو يراه. كان الشارع خاويًا.

12

لم أجرؤ على الرفض، رغم وجود أساس لشكوكي بأن أمرًا سيئًا سيحدث.

كان موراليس قد قال لي في لقائنا الأخير:

-سأتخلص من الصور - قال لي عندما كنت أودعه تقريبًا.

سألته عن السبب، رغم أنني كنت أحدس، بينما أسأله، أنه سيخبرني على أي حال.

-لأنني لا أتحمل رؤية وجهها دون أن ترد لي النظرة. لكنني أود رؤيتها معك قبل حرقها. لا أعرف لماذا. ربما يكون عرض الصور عليك طريقة جيدة لتوديعها.

كان يمكنني أن أرد عليه بالرفض، لأنني دائمًا ما رفضت رؤية الصور. لكنني لم أتمتع بسرعة رد الفعل المناسبة، أو ربما كنت أطور مع ذلك الفتى نزعة لقبول ما يصدر عنه، أو أنني شعرت بذات الحمق المفاجئ المعتاد طوال حياتي الذي يمنعني من رفض طلبات الآخرين. لكنني قبلت.

اتفقنا على اللقاء بعد ثلاثة أسابيع. كانت بدايات ديسمبر. كانت القضية مُعلَّقة منذ أغسطس، وآن أجلًا أم عاجلًا سأجد نفسي مُجبرًا على فتحها من جديد، وعلى مراجعتها وغلقها بدون توجيه الاتهام لأي شخص. على الرغم

من أن الوضع لم يكن يرق لي، فإن القضية وموراليس وأنا ذاتي (لدرجة أنني ورَّطت نفسي في تلك المشكلة) كنا نتجه مباشرة نحو الارتطام بحائط أسمنتي. ربما لهذا أيضًا قبلت موضوع الصور.

خرجت من المحكمة بهامش ضيق من الوقت وأسرعت في قطع المربع ونصف مربع السكني الذي يفصلني عن المقهى الذي كنا نلتقي فيه. كان موراليس جالسًا إلى مائدة مزدوجة، وبعناية كبيرة جديرة بجامع طوابع كان يرتب أكوامًا من الصور التي يُخرجها من صندوق حذاء رجالي. اقتربت منه على مهل ومن فوق كتبه رأيت معروضات مقتنياته من الذكريات الدامية.

ضغطت بقوة على الأرض حتى أصدرت صريرًا والتفت موراليس نحوي. كان يحمل نظارة كالتي يستخدمها موظفو المكتبات ويمسك بين شفتيه بقلم رصاص. بإشارة كالتحية أشار لي للجلوس أمامه. عندما جلست لاحظت أن أكوام الصور كانت مُوَّجهة نحوي، كأنما يتعلق الأمر بعرض منزلي يقوم فيه بدور المرشد.

-أنا جاهز تقريبًا - قال بينما يُخرج الحزمة الأخيرة من الصندوق ويأخذ في توزيعها على الأكوام التي كانت في مواجهتي.

كلما وضع صورة كان يمسك بالقلم الذي يثبته في فمه ويضع علامة في قائمة طويلة مُرقمة. لم يكن لدى أدنى شك في أنه شخص مُرتب لدرجة الهوس. بينما كان يضع علامات الصور الأخيرة، انتبهت إلى أن القائمة تصل إلى الرقم مائة وأربعة وسبعين، وقلقت من إطالة الأمر وتأخري على العشاء. لُمتُ نفسي قليلًا لعدم اتصالي بمارثيلا قبل خروجي من المكتب. الوصول إلى هاتف عمومي بعد الخروج سيكون محنة، لكن لا يمكنني ألا أخبرها بتأخري. لمَ إضافة المزيد من الحطب على النار الجليدية لخلافاتنا؟ ليس لأننا كنا نتشاجر. لا. يمكنني أن أقول إننا حتى لم نكن نتشاجر، على الرغم من

أنني كنت أشعر بحالة البرودة المتزايدة.

-لقد وضعتها بالترتيب. هذه هي أولها - قال بينما يمد لي يده بأول مجموعة من الصور.- إنها لليليانا عندما كانت صغيرة.

لاحظت أنها كانت جميلة للغاية في طفولتها. أم أنني كنت أراها هكذا لأنني كنت أتذكرها بنصاعة الصور الأخيرة؟ تلك الصور حيث كان جمالها يفرض حضوره وسط الموقف المرعب. صورها كطفلة كانت الصورة التقليدية في تلك الفترة. بضعة مشاهد في ستوديو التصوير. لا توجد أي صور عفوية. أفضل الملابس، شعر مصفف بعناية. تخيلت أبويها خلف المُصور ويأتيان بحركات لانتزاع تلك الابتسامات المراوغة، التي ربما كانت ستعبر عن الحيرة بعد كل فلاش.

-هذه صور ليليانا في شبابها. عيد ميلادها الخامس عشر... تلك الأمور. هل تعرف؟ في ذلك الوقت لم تكن قد انتقلت إلى بوينوس أيرس.

-لم أكن أعرف أن زوجتك لم تكن من هنا. هل أنت أيضًا وافد للمدينة؟

-لا. أنا نشأت في بيكار. لكن ليليانا من توكومان، من عاصمة المحافظة، من سان ميجيل. جاءت بعد أن حصلت على الشهادة كمُعلمة لتعيش مع بضع عمات.

يبدو واضحًا أن العائلة قد اشترت كاميرا، لأن الصور لم تعد شحيحة. مجموعة من الفتيات ببنطلونات ضيقة على ضفة نهر، برفقة مُعلمة لا يمكن تحديد عمرها وبالغة الصرامة. فتاتان بإزارين أبيضين تحملان علم الأرجنتين، كانت ليليانا إحداهن. كلب أبيض صغير غزير الشعر يلعب مع فتاة، بالطبع كانت ليليانا.

صور عيد الميلاد الخامس عشر. بضعة صورة من تلك المطبوعة بحجم

أكبر. ليليانا ترتدي فستانًا فاتح اللون وعقد مزدوج، الزينة على وجهها تبدو مصطنعة، ربما كان هناك ظل مُبالغ فيه في الجفنين. صورة بجوار كل مائدة في القاعة، مع كل مجموعة من المدعوين: مجموعة من العجائز المحترمين، على الأرجح كانوا الجدود وأخوة الجدود، صورة أخرى مع مجموعة من الفتيات، بعضهن مكررات في صورة الملابس الرياضية بجوار النهر، صورة أخرى مع مجموعة من الفتيان المدفوسين في بذلات مُؤجَّرة أو مُستعارة، صورة أخرى مع مجموعة من الصبية من الأولاد والبنات، ربما كانوا أبناء الأخوة. صور رقصة الفالس، على المنصة المُرتجلة أمام الموائد، مع الأب، مع الجد، مع الأخ وبعد ذلك مع عدد لا نهائي من الفتيان المتوهجين بسبب الظرف الذي سمح لهم بوضع اليد لحظيًا على خصر ذلك الجمال.

نزهة خلوية في مكان يصعب تحديده، ربما كان في باليرمو، لكن بسبب وجه ليليانا الآخر، وجه السادسة عشر أو بحد أقصى السابعة عشر، لابد أنها كانت في توكومان في ذلك الحين، مع مجموعة من الفتيان والفتيان المستلقين على العشب، بجواره نهر أو جدول ماء.

-هذه الصور تعود لفترة خطوبتنا - أوضح موراليس بينما يمد يده بمجموعة أخرى. كان هذه الصور قليلة. أضاف موراليس بنبرة تشبه الاعتذار- ليست كثيرة. استمرت خطبتنا عامًا واحدًا فقط.

سعدت بالخبر. لم أكن أرغب في أن أبدو كشخص وقح قليل التأثر، لكنني كنت أرغب في إنها هذا الوضع بأسرع ما يمكن، وكانت هناك الكثير من الصور التي يجب رؤيتها. انتابني ذات الشعور كما يحدث لي كلما أخذت في النظر لصور فوتوغرافية: فضول حقيقي، اهتمام خالص بهذه الحيوات التي تطل من الصمت الأبدي للأوراق الكرتونية اللامعة؛ لكنه أيضًا اكتئاب عميق، شعور بالضياع، بالحنين الذي لا داء له، بوجود فردوس ضائع

خلف كل واحدة من تلك اللحظات القصيرة للغاية القادمة من الماضي مثل مسافرين متطفلين. كان ذلك الاكتئاب يثقل علي وما زال أمامي عدد مُعتبر من الصور. مددت أصابعي نحو إحداها كأنما، الخروج عن المجموعة التي أعدها لي موراليس سيعيد لي حريةً لن تفيدني كثيرًا رغم كل شيء.

-هذه الصور تعود إلى حصول ليليانا على شهادتها كمُعلمة - أوضح لي موراليس من دون أدنى قدر من الغضب كما كنت أخشى بسبب جرأتي-. عملتَ خلال عام واحد فقط، قبل أن تأتي هنا.

كانت تلك الصور حديثة، تسريحات شعور النساء وياقات سترات الرجال وعُقَد رابطات العنق كان لها هيئات توحي بأنها تعود إلى وقت قريب، وهو كان يجعل الشعور بالحنين أقل وطأة. كان واضحًا أن عائلة تلك الفتاة كانت تحب الاحتفال بالمناسبات. المائدة عامرة دائمًا، زينة ما على الجدار، مقاعد كثيرة على الجانبين لاستقبال حشود الأصدقاء والأقارب والجيران الذين يتكررون في كل مناسبة.

لا أعرف لماذا توقفت لتأمل ما رأيت. أعتقد أن السبب هو إعجابي الدائم بالأشياء عندما تكون من الجانب، كأنما تُركز الانتباه على ما هو في الخلفية. توقفت عن تقليب مجموعة الصور التي كانت أمامي وأخذت أتأمل لوقت طويل في الصورة التي كنت أمسكها بين يدي. ليليانا مُتألقة ومبتهجة، ترتدي فستانًا فاتح اللون وبسيطًا وخفيفًا، على الأرجح فستان صيفي، وكان تعرض الشهادة بينما تقف على قدميها في وسط دائرة من الفتيات والفتيان. رفعت عيني نحو موراليس:

-هل يمكنك أن تعطيني صور عيد الميلاد الخامس عشر من جديد؟

حاولت أن يبدو طلبي عرضيًا. واستجاب موراليس لي، رغم أنه نظر لي

مندهشًا. عندما أعطاني الصور التي طلبتها لم أستغرق وقتًا طويلًا في العثور على الصورة التي كانت تثير اهتمامي: إحدى صور الحفل الراقص، حيث كانت ليليانا تقف بجوار رجل بدين، أصلع ومُبتسم، ربما كان أحد أعمامها أو أخوالها، وصورة أخرى حيث ترقص مع فتى لا يظهر وجهه تقريبًا، لأنه كان ينظر إلى أسفل بحنق. تركتها فوق مجموعة الصور التي وضعتها بجوار صورة الشهادة.

-الآن ابحث من فضلك عن تلك الصور في النزهة الخلوية حيث يظهر ما يشبه حديقة بأشجار كثيرة، تلك التي أريتني من قبل. هل تعرف إلى أيها أشير؟

أحنى موراليس رأسه. لم يقل أي شيء، ولهذا تحديدًا أدركت أنه قد فطن إلى اللهفة المضطربة في كلماتي ولم يكن يرغب في تشتيتي بطلب تفسير لهذه الأوامر أو الطلبات الغريبة. عندما أصبحت بين يدي اخترت صورتين بسرعة. كانتا صورتين بانوراميتين، وفيهما تظهر كل المجموعة.

بعد برهة طويلة، جرؤ موراليس على السؤال بصوت يخنقه الشك:

-ما الخطب؟

كنت قد نحيت أربع صور جانبًا، وانخرطت في مراجعة الصور بدون الاهتمام بأي شيء سوى إمكانية العثور على وجه مُكرر. وجدت صورتين أخريين أثارتا اهتمامي. كانت هناك ست صور بين يدي. أبعدت المائة وثمان وستين صورة الأخرى بشيء من الحدة. ربما كان يجب أن أشرح الأمر لموارليس، أو على الأقل الإتيان بإيماءة توحي بأنني سمعت سؤاله. لكن فكرتي كانت مباغتة للغاية، وفي ذات الوقت متهورة للغاية، لدرجة أنني كنت أخشى من نطقها بصوت عال لكي لا تنهار بلا رجعة. في النهاية، بدلًا

من الرَّد عليه سألته سؤالًا آخر:

-هل تعرف هذا الشخص؟ -تحدثتُ بينما أنتهي من إخلاء المائدة بضربة من يدي، في مخاطرة بإلقاء كل الصور على الأرض، ووضعت الست الصور التي أثارت اهتمامي أمامه دون تنظيم.

تأملها موراليس بطاعة، لكن بحيرة أيضًا. لم ير تلك الملامح حتى مساء يوم الجمعة ذاك، لكن كان مُقدرًا له أن يراها في مواجهته للأبد، حتى وإن كانت عيناه مُغلقتين. ولأن كل هذا كان سيحدث، لكن موراليس لم يكن يعرف بعد، ردَّ علي ببساطة:

-لا.

أدرت الصور نحوي متوخيًا عدم تلويثها بأصابعي. في صور النزهة الخلوية يوجد فتى مرتديًا فانلة فاتحة اللون وبنطلونًا قصيرًا وحذاءً رياضيًا، على أقصى يسار المجموعة تقريبًا، كان يواجه الكاميرا بجانب وجهه الشاحب للغاية وأنف خطافية، وشعره أسود أشعث. كان ذات الفتى يجلس في العتمة تقريبًا بجوار مائدة مليئة بأطباق بها بقايا طعام وزجاجات نصف ممتلئة، وكان ينظر إلى الفتى والفتاة اللذين يرقصان الفالس، بالتحديد كان ينظر إلى ليليانا ذات الشعر الناعم الطويل والمكياج المبالغ فيه وتتشارك وسط الصورة مع رجل عجوز. في الصورة الأخرى من ذات الليلة يمكن رؤية الشاب بشكل أفضل بينما كان ذراعاه متصلبين وممتدين إلى الفتاة، كأنما يريد ويخشى لمسها في ذات الوقت، وعيناه متسمرتان في الأرض وليس في وجهها، ولا حتى في فتحة الصدر الناهض.

وكانت الصورة الخامسة في صالة المعيشة ببيتها بالطبع. شهادتها كمُعلمة في الوسط، بفخر وبابتسامة لا نهائية تمسكها ذات الفتاة التي تظهر في الصور

الأخرى لكنها أصبحت أكبر قليلًا. مجموعة من الأصدقاء (أو الجيران؟؟) حول الفتاة المُتخرجة، التي يقف إلى جانبيها رجل وامرأة، الأبوان الفخوران بالطبع. وهذه المرة يقف الفتى إلى اليمين: مرة أخرى شعره أسود وأشعث، ذات الأنف، تعبير جامد مُطابق، النظرة التي لا تبحث عن الكاميرا وإنما عن الفتاة التي تضفي ابتسامتها بهاءً على الصورة بالكامل.

والصورة الأخيرة، أفضلها (للبساطة التامة التي تتبدى بها الحقيقة التي تنمو أمام عيني وتأخذ أبعادًا من اليقين وسط الصمت المتجمد): الفتى بظهره للموقف تقريبًا (حيث تتكرر المجموعة من جديد حول المتخرجة، لكن الآن بدون الشهادة) بنظرته مغروسة في رفٍّ مُعلق على الحائط المجاور له. فوق هذا الرف، وعلى مستوى أنفه تقريبًا توجد صورة لوجه ذات الفتاة المبتسم، بالطبع كانت ليليانا إيما كولوتو، لكن بميزة إضافية لذلك الفتى الذي كان يتأملها بنشوة، حيث أنها من موقعها فوق الرف كانت غير منتبهة، كما كانت متاحة تمامًا لذلك الفتى المدله. ولهذا لم ينتبه إلى أن هناك من يقوم بأخذ صورة أخرى بينما كل الأصدقاء والأقارب ينظرون للكاميرا إلا هو، لأنه كان يُفضل التيه في هذا التَّعبد الصامت، بمنجاة عن أعين الآخرين. لا يمكنه أن يعرف بالطبع أن هناك شخصًا آخر ينظر له بينما ينظر هو لها على مبعدة ألف وخمسمائة كيلومتر من موقعه هناك، بعد سنوات عديدة من تلك اللحظة. وأن الشخص الآخر، أي أنا، اكتشف على التو بمعجزة تقريبًا، إن أردنا التفكير في أن الوصول للحقيقة أمر جيد، أو بشؤم، إن فضلنا اعتبار أن الحقيقة ليست أفضل نهاية مطاف لشكوكنا، أو بحظ لا يمكن تصوره، إن اكتفينا بالتحقق من التسلسل العجيب الدقيق للأحداث، والذي يبدو ظاهريًا كمصادفة.

رفع موراليس عينيه نحو الصور التي عرضتها عليه على التو. اختار

إحدى صور النزهة الخلوية. رفع ورق الزبد في الألبوم والذي توجد عليه العلامات ووضع الصورة تحته. حينئذ فهمت عندما انطبقت علامات الحبر الصيني على الأشكال الموجودة في الصورة. كانت تنطبق تمامًا، ويوجد رقم لكل منها. أسند موراليس أصبعه فوق الخطوط التي تسمح بالكاد بتمييز هيئة المراقب الأبدي لليليانا. وغمغم:

-تسعة عشر.

وجهنا نظرينا إلى قائمة الحاضرين. قرأ موراليس الإشارة في رأس القائمة.

-نزهة خلوية في ضيعة روسيتا كالاميرو، يوم 21 سبتمبر 1962.

وأخذ يهبط بالسبابة اليمنى حتى الرقم الذي يبحث عنه:

-رقم تسعة عشر: إيسيدرو جومث.

13

رغم أنه قرأ الرسالة مرتين، الأولى عندما تلقاها والثانية بصوت عال، قرر ديلفور كولوتو قراءتها مرة أخرى أثناء قيام زوجته بالمشتريات لكي يتأكد من أنه فهم جيدًا. ارتدى نظارته وجلس في أرجوحة البهو. كان يقرأ ببطء لكي لا يضطر للقراءة بشفتيه أيضًا: إن كان قد جلس في الحديقة المقابلة لم يكن سيشعر بالراحة لرؤية شخص ما له.

عندما انتهى خلع النظارة وطوى الرسالة إلى طياتها الأصلية. كان ورقًا ناعمًا وشديد البياض، ويتناقض مع يديه اللتين تشبهان الصنفرة الخشنة. فهمها على الرغم من خشيته الأولى من أن تكون بعض كلماتها أنيقة الخط المكتوبة بحبر أسود قد اختلطت بالخطين الرأسيين الجانبيين فتبدو له غير مفهومة. «أمر هام للغاية»، كان التعبير الوحيد الذي أصابه بالضيق. كانت لديه فكرة عم يعني، لكن لكي يتأكد استعان بالمُعجم الذي تركته ابنته في البيت ليحلَّ الأمر: كان زوج ابنته يطلب مساعدة... عاجلة، كبيرة رغم كل الظروف. وبعد ذلك فهم كل شيء. اختتم صهره قائلًا «يترك الأمر بين يديه» لأنه كان «سيعثر على أفضل طريقة». كان هذا هو الأمر الشائك الذي شغل ديلفور كولوتو منذ وصول الرسالة قبل يومين: ما هي أفضل طريقة؟

نهض لأن جلوسه لن يؤدي إلا لشعوره بالتوتر أكثر وأكثر. ربما لم تكن خطة جيدة، لكن لم يخطر له أي شيء آخر. كان يجب على صهره أن يكون أكثر وضوحًا في تلك الرسالة. كان الرجل يشعر أن صهره لم يكن صريحًا

تمامًا معه. هل كان يعتبر أنه ليس جديرًا بالثقة؟ أو الأسوأ من هذا، هل كان يعتبر أنه لم ينه المدرسة لأنه شبه أبله. وفكَّر كولوتُّو «من الأفضل ألا أعطي الأمر أهمية». ربما لم يعطه تفاصيل أكثر لكي لا يثير أعصابه. في تلك الحالة كان تصرفه سليمًا. وإن كان الأمر هكذا، فبالقليل الذي يعرفه والكثير الذي يتخيله، فقد أصبح كالمجنون ولم يغمض عينيه خلال ليلتين تقريبًا. ربما إن كان قد عرف المزيد، أو مع توكيد ما كان يخشى، فإن الأمر كان سيصبح أسوأ. فضلًا عن هذا، كان الصهر قد وقع منه موقعًا حسنًا دائمًا، رغم أن تعبير «دائمًا» كان مُبالغًا فيه إلى حدٍّ ما: كم مرةً رآه؟ ثلاث مرات؟ أربع مرات بجد أقصى. لم يكن يعرفه جيدًا، هذا حقيقي، لكن في نهاية الأمر لم يكن هذا ذنب الفتى، اللعنة.

التفكير في هذا منحه الدفعة التي كان يحتاجها. دخل البيت وسار حتى غرفة النوم. ارتدى القميص المُعلق بعناية على ظهر الكريس فوق الفانلة التي كان يرتديها. أدخله في البنطلون وأعاد ربط الحزام. خرج للشارع وسار حتى الناصية. ردَّ تحية بضعة جيران يتناولون مشروب الماتيه على الرصيف. كان شهر ديسمبر مُحملًا بحرارة جحيمية والبعض يبحثون عن نسمة باردة في الهواء الطلق وقت غروب.

وعندما وصل للناصية دار إلى اليمين، وقال لنفسه «إنه ذات المربع السكني». وشعر بعدم الراحة، كأنما تم الاستهزاء به. توقف أمام بيت شبيه ببيته وبكل البيوت التي تم بناءها في خطة الحكومة للمساكن. الحديقة المتواضعة، البهو، الباب الذي توجد نافذتان على جانبيه، السقف الأمريكي. صفَّق بيديه. جاء كلبان مهرولين من الجزء الخلفي. صوت امرأة قادم من البيت جعلهما يصمتان تمامًا. امرأة قصيرة القامة، بيضاء البشرة وعيناها زرقاوان، خرجت بينما تجفف يديها في مئزر المطبخ الذي ترتديه فوق الجونلة.

-كيف حالك يا سيد كولوتو ؟ يا لمفاجأة رؤيتك هنا.

-الأمور تسير يا سيدة كلاريسا. الأمور تسير.

بدا أن المرأة تشك كيف تواصل الحوار.

-وكيف حال زوجتك؟ منذ فترة لم أرها في الحي.

حكَّ الرجل رأسه وقطب حاجبيه وقال:

-كالعادة. هل تعرفين؟ إنها أفضل إلى حدٍّ ما.

فسَّرت المرأة كلماته كرغبة في تغيير الموضوع، ولهذا مدَّت يدها لتفتح البوابة السوداء بينما تعود للكلام:

-أدخل، أدخل. هل يمكنني دعوتك إلى تناول الماتيه؟

-لا يا سيدتي، شكرًا جزيلًا- فتح كفيه كأنما يؤكد على رفضه بهدوء-. أشكرك على الدعوة، لكنني توقفت عرضًا فقط. في الحقيقة كنت أبحث عن ابن أخيك أومبرتو.

-آه...

-يتعلق الأمر بعمل عارض. عرض عليَّ المشرف على المخازن البلدية بضعة أعمال بناء في بيته، وقد أحتاج لعمال مساعدين، وفكَّرت أن أومبرتو قد..

-للأسف يا دون كولوتو. لقد ذهب لمساعدة أخي في الحقل، في سيموكا.

فكَّر كولوتو أن الأمر يسير بشكل جيد. وعلى نحو ما، فإن انسياب الحوار وفقًا لخططه كان يوتره إلى حد ما.

-آه، بالطبع. يا لسوء الحظ. أكثر من أي شيء فكَّرت في هذا لكي لا

اصطحب معي شخصًا لا أعرفه.

-آي... أشكرك يا دون بلفور على تفكيرك فينا...

كانت هذه هي الفرصة الأخيرة

-أخبريني يا سيدة كلاريسا:- وماذا يفعل إيسدرو الآن؟ هل يمكن أن يهتم بهذا العمل؟

-لاااااا...-كانت «لا» حادة وطويلة وصريحة، واثقة وعن اقتناع-، إيسيدرو رحل إلى بوينوس أيرس منذ عام، ألم تكن تعرف؟ حسنًا. ليس عامًا. أقل قليلًا. لكن لأن المرء يشعر بالحنين تبدو له الفترة أطول.

اتسعت عينا الرجل كثيرًا. فسرت المرأة هذا كمجرد اندهاش.

-دعني أفكر. نحن في بدايات ديسمبر... -رفعت يديها وأخذت تعد على أصابعها- لقد رحل منذ عشرة شهور. في نهايات مارس. كنت أعتقد أنك تعرف. وأنا أخرج قليلًا بسبب الروماتيزم.

-بالطبع يا سيدتي، بالطبع.

ثم قال لنفسه :»لم يتبق سوى القليل يا دلفور. تحكَّم في نفسك، أطلبُ منك هذا حبًّا في الرب». ثم أضاف:

-لم تكن لدي أدنى فكرة. كنت أعتقد أنه هنا، يعمل في المنطقة.

-لا... كان العمل شحيحًا للغاية في الصيف الماضي. عمل صغير من حين لآخر. القليل أو لا شيء، كنت أطلب منه أن يجتهد قليلًا. كان يغضب أحيانًا. لكنه كان يقضي اليوم بالكامل في غرفته، بوجه مريض، بينما ينظر للسقف. لم يكن يخرج، ولا حتى لكي يلهو قليلًا. وكنت أسأله ماذا بك يا إيسيدرو، احك لأمك. لكنه لم يكن يفتح فمه. أنه كتوم مثل أبيه، الذي

يستريح في سلام، الذي يُعتبر الحصول على كلمتين منه انتصارًا. لهذا لم أكن ألح عليه. كان يسير في البيت مثل الأسد المحبوس في قفص، بوجه متجهم. حتى أخبرني ذات يوم بموضوع بوينوس أيرس، وقال إنه لا يريد أن يعيش هنا مُطلقًا. في البداية حزنت. ابني الوحيد بعيد للغاية: المرأة منا لديها قلب. لكنني كنت أراه على حال سيئة للغاية... كأنما غاضب للغاية، حتى فكَّرت في النهاية أن رحيله خير.

كانت المرأة ترغب في مواصلة الحكي، لكن الوقوف على قدميها لوقت طويل كان يرهق أوصالها ويجبرها على تغيير الساق التي ترتكز عليها باستمرار. انتهى بها الأمر بالاستناد على العامود.

-قد لا تعرف يا سيد ديلفور، لكنه يرسل لي حوالة كل شهر. باستمرار. أدبر أموري على أفضل حال بالجمع بين الحوالة والمعاش.

فكَّر كولوتو «ما زالت لدي فرصة. فرصة أخرى».

-ممتاز يا سيدتي. كم أسعد لهذا. لأن الحصول على عمل ثابت وبهذه السرعة في ظل هذه الظروف....

وأكدت المراة بحماس:

-بالطبع. هذا ما أقول له. يجب أن تسرع لتقديم الشكر لعذراء المعجزات يا إيسيدريتو. لكنني أخاطبه «إيسيدرو» بدون تصغير لكي لكي لا يغضب. إنها معجزة في ظل هذه الظروف. يجب أن يكون المرء شكورًا. في البداية ذهب للعمل في مطبعة بتوصية حصل عليها صهري، لكن لم يُكتب له النجاح. وفي الحال، على الفور، حصل على عمل في البناء. وبالإضافة إلى هذا يبدو أنه مشروع كبير، ممتد إلى وقت طويل.

ازدرد كولوتو لعابه وقال:

-هذا لا يُصدق... تبدو حكاية خيالية، أليس كذلك؟

-هذا حقيقي يا سيد كولوتو . أخبرني أنها بناية في منطقة كابابيتو. بالقرب من المجلس،... أعتقد هذا. بالقرب من ذلك القطار. بناية من عشرين طابقًا.

سهى دلفور كولوتو عن جزء كبير مما قالته المرأة بعد ذلك لأنه ظل يفكر إن كان يجب أن يبتهج أم يحزن لما عرف. حاول التركيز فيم تقول السيدة وترك شكوكه لوقت لاحق. كانت تتحدث عن السفر إلى سالتا من أجل عيد «المعجزة» إن سمح لها الروماتيزم، لأنها كانت مُحبة كبيرة للعذراء.

فجأة تذكر عذره:

-حسنًا يا سيدة كلاريسا. سأرحل الآن. وإن عرفت عن شخص ما بحاجة للعمل.... شخص موثوق به بالطبع.

-لا تقلق يا دون دلفور. رغم أنني محبوسة هنا تقريبًا ولا أطَّلع على الكثير من الأمور، إلا أنني سأخبرك إن عرفت بأي شيء. في مباركة الرب.

سار دلفور كولوتو إلى بيته مُحاطًا بضوء شاحب من مصابيح الشارع التي أضيئت قبل قليل. قبل عامين حرَّك السماء والأرض كرئيس لجمعية الإنشاءات لكي يتم تركيب إضاءة عمومية. الآن لم يعد هذا يهمه في أي شيء، مثل كل شيء تقريبًا.

دخل بيته ونظر للساعة. كان الوقت متأخرًا على الذهاب إلى سنترال التليفون. يجب أن ينتظر لليوم التالي. سمع ضوضاء آنية. زوجته في المطبخ. قرر ألا يقول لها أي شيء في تلك اللحظة. خلع القميص بينما يتجه إلى غرفة النوم. علَّقه مُجددًا على ظهر المقعد. عاد للخروج وجلس في البهو. كان الهواء البارد يسري.

14

التقيت ببايث بعد عشرة أيام من ظهيرة الصور. ذهبت لزيارته في وحدة جرائم القتل بعد الاتفاق على موعد هاتفيًا. فتح باب مكتبه، طلب مني الدخول ودعاني إلى فنجان قهوة طلبه من جندي مراسلة. وكما يحدث كلما اقتسمت معه بعض الوقت، انسقت خلف شعور بالاحترام مشوب بالإعجاب، لكنه غير مريح في ذات الوقت.

كان رجلًا جامد التعبيرات، ضخم الجثة. هل كان يكبرني بخمسة عشر عامًا؟ بعشرين عامًا؟ يشق معرفة هذا بدقة، لأن شاربه الكث كان سيجعل أي فتى مراهق يبدو عجوزًا. أعتقد أن طريقته الهادئة والمباشرة في ممارسة السلطة هي ما كانت تثير إعجابي. كنت قد رأيته مرات كثيرة بينما يتحرك وسط رجال الشرطة بثقة رجل دين مُقتنع بحقه في إصدار الأوامر. وأنا كنت في منصب رئيس قسم في القضاء منذ عامين، وكنت أشعر أنني لن أصل إلى إصدار أي أمر طوال حياتي بدون أن تنقبض روحي. كنت أخشى أن يشعروا بالغضب من طلباتي فلا يطيعوني، أو أن ينفذوا ما أطلب بينما يسخرون مني من وراء ظهري، وهو ما كان يبدو لي أكثر إثارة للضيق. بالطبع لم يكن بايث ينشغل بمثل هذه التأملات.

على الرغم من هذا، كنت أشعر في ذلك المساء بشيء من الأفضلية على

الرجل الذي يثير إعجابي. كنت قد أتيت ممتطيًا صهوة النشوة التي تسبب فيها حدسي الفوتوغرافي. ما بدأ كمشاهدة جمالية تحوَّل إلى دلالة، الدلالة الوحيدة التي كنا نمتلكها.

في ذلك الوقت لم أكن قادرًا على أن أعيش حياتي بمشاعر معتدلة. إما كنت أعتقد أنني موظف كئيب روتيني وشفاف، بالكاد يملأ منصبًا يتفق مع قدراته المتواضعة وطموحاته البسيطة، أو كنت أرى نفسي كعبقري لم يحصل على فرصته، مُهدرٌ في ممارسة أعمال ضجرة تافهة جديرة بأرواح لم تهبها الطبيعة الكثير من المواهب. كنت أقضي معظم الوقت في التنقل بين هذين التأملين. وغالبًا ما كنت أميل إلى الثاني، والذي كنت سأتخلى عنه بعد وقت ليس بالطويل، بعد هجرت تلك الواحة بسبب خيبة أمل عظيمة. كنت أجهل هذا، لكن كانت أمامي عشرين دقيقة لكي تحدث إحدى عمليات التطهر المشئوم التي كانت تطحن اعتزازي بنفسي.

أخذت في حكي موضوع الصور. في البداية وصفتها. بعد ذلك عرضتها عليه.شعرت بالامتنان للاهتمام الذي كان يوليه لحكايتي. كان يسألني عن تفاصيل، وفي أغلب المرات كنت أرد على استفساراته. دائمًا ما أبدى بايث احترامًا لطريقتي في ممارسة العمل بالقضاء. لم أكن أخشى خلال حواراتنا أن تظهر فجوات في درايته بهذه الأمور (دافع آخر للإعجاب به، أنا من كنت أعيش في جهلي المخزي). لكن في تلك المرة كنت أنا من يغامر بالدخول في مجاله الخاص، ولم يكن لدي انطباع بأنني أفعل هذا دون إدراك. عندما انتهيت من عرض الصور عليه حكيت له التعليمات التي أعطيتها للأرمل: يجب أن يكتب موراليس لصهره لكي يستفسر عن مكان إيسيدرو جومث ذاك. لكي لا تخونه أعصابه، ولكي لا يوهم بانتقام شخص أحمق، يجب أن يقتصر على الحصول على تلك المعلومات وأن يعطيها لموراليس، وهي العملية التي

أدت إلى نتائج هامة. وأخبرت بايث أن أهمية المعلومات جعلتني أطلب من موراليس تكليف آبا زوجته بدفعة ثانية من المعلومات، على أن يحصل عليها من جيران آخرين وصداقات مشتركة محتملة. كنا نستند على قائمة المشاركين في تلك النزهة الخلوية الربيعية. عندما أوشكت على عرض دفعة أخرى من النجاحات التي تؤكد الانعزال المتواصل لجومث، قراره الذي يبدو مفاجئًا ظاهريًا بالسفر إلى بوينوس أيرس، التأكد من وصوله قبل بضعة أسابيع من وقوع جريمة القتل، قاطعني بايث بسؤال:

-متى حدثت زيارة هذا الرجل لأم المُشتبه به؟

قمت بالحساب وبدا لي غريبًا. ألم يكن يرغب في سماع الاكتشافات التي أوشكت على البوح لها؟ ألم يكن يرغب في معرفة أن صديقين أكدا أن الفتى يعشق الضحية سرًا منذ سنوات؟

-عشرة أيام، أحد عشر بحد أقصى.

نظر بايث للتليفون الأسود القديم الموجود فوق مكتبه. بدون سابق إنذار رفع السماعة وطلب رقمًا من ثلاثة أرقام. قال بغمغمة للشخص الذي ردَّ عليه:

-أريدك أن تأتي هنا على الفور. بمفردك. شكرًا.

عندما وضع السماعة، وكأنما قد انهرتُ، بحث بإشارات سريعة في أدراج المكتب حتى عثر على دفتر أوراقه بيضاء ونصف مُستعمل. وأخذ يكتب بحروف منمقة كبيرة. كان يبدو كطبيب جاد الوجه بينما يصف لي دواء ما. إن كان أقل حدة فإن الموقف كان سيبدو لي مُسليًا. قبل أن ينتهي، دق الباب مرتين ودخل شاويش عجوز ثم ألقى علينا التحية ووقف بجوار المكتب. ترك بايث القلم في الحال، قطع الصفحة وأعطاها للشرطي.

-لنر يا ليجيثامون. فلتحاول العثور على هذا الشخص. لقد كتبت لك هنا كل المعلومات التي قد تكون مفيدة لك. وخذ حذرك إن عثرت عليه. قد يكون خطرًا. لتأت به موقوفًا وبعد ذلك تأتي للقائي هنا مع الدكتور.

لم أندهش للقب الدكتور، ولا خطر على بالي تصويبه. يُفضل رجال الشرطة أن يطلقوا لقب دكتور على كل موظفي القضاء ذوي الأقدمية، لكي لا يشعر أحدهم بالإهانة. وهذا تصرف جيد من جانبهم. لم أعرف طائفة أكثر حساسية للألقاب الشرفية أكثر من المحامين ورجال القضاء. لكن العبارة الأخيرة التي أنهى بها أوامره هي التي أثارت حيرتي.

-لتُسرع. أشك أنه قد يكون قد فرَّ إن كان من نبحث عنه.

15

حولَّتني عبارة بايث إلى تمثال من الملح. ما سبب هذا التشخيص المشئوم. انتظرت خروج الشاويش محاولًا الاحتفاظ بتماسكي بأقصى قدر ممكن وبعد ذلك سألته بصراخ تقريبًا:

-كيف يكون قد فرَّ؟ لماذا؟

كان تشاؤمه قد أخذني على حين غرة وأمسكت بأخر كلماته وكررتها في صيغة سؤال، رغم أنني لم أكن أفهم أو حتى أشك في طبيعة الاعتراض الذي أحاول صياغته. لم يتبق أي أثر من رغبتي في أن أبدو سريع البديهة أمام بايث.

أعتقد أن الشرطي حاول أن يكون حذرًا لأنه يكن لي الاحترام.

-انظر يا تشابارُّو - توقَّف ليشعل سيجارة ووضع عقبها في جانب فمه، كأنها عقبة يمكن أن تمنع وصول كلماته لي- إن كان هذا الشخص هو من نبحث عنه (ويجب أن ندرك أنه وفقًا لما حكيت لي فهناك احتمال شبه مؤكد أن يكون هو)، لن يكون الإمساك به سهلًا. يمكنه أن يكون ابن عاهرة لأقصى حد، لكنه لا يبدو شخصًا متهورًا يندفع في تنفيذ أفعاله. يوجد أشخاص آخرون هكذا. يوجد بلهاء يمسك بهم المرء لأنهم يأتون بأفعال حمقاء كثيرة ولا ينقصهم سوى تعليق لافتة على الصدر مكتوب فيها «أنا الجاني، أدخلوني السجن»، لكن هذا الفتى....

توقف الشرطي لبرهة، كأن يزن القدرات الفكرية للمشتبه به وتبدو له

جديرة بالاحترام. أطلق الدخان من أنفه. كانت رائحة التبغ الأسود كريهة. شهرت بالتهاب الأغشية المخاطية، لكن الكبرياء الذكوري منعني من السعال ومن فرك عيني كما كنت أريد.

كان بايث يبني فرضيته بينما يتحدث معي. أثناء حديثه كان يترك فجوات لوقت لاحق، وفي مرات أخرى كان يتوقف لكي يدحضها بتفكير صائب

- ترحل الفتاة التي يعشقها بجنون إلى بوينوس أيرس. لا يفكر في الذهاب خلفها. لا يمتلك المال الكافي للقيام بهذا. أو ربما يمتلكه لكنه يحتاج لوقت لكي يفر من بيته. بالإضافة إلى هذا، ربما يكون قد تحدَّث معها في توكومان. والفتاة رفضته تمامًا. لابد أن الفتى قد شعر بخجل شديد بسبب الرفض، وكان يرغب في أن تبتلعه الأرض. أعتقد أنه ظل في مدينته بسبب هذا، ولا يدعوها للبقاء، لا يمتلك ما يجعلها تبقى، ولا يتبعها. لماذا يحاول؟

يتوقف بايث لتقدير استنتاجاته، وفي النهاية يواصل:

-نعم. لابد أنه قد تحدث معها وتلقى الرفض كإجابة. لهذا قام بالبيات الشتوي. لكن فجأة يصل إلى علمه أنها ستتزوج. لم يكن مستعدًا لهذا، لكنه أيضًا لا يستطيع التصرف. ما هو التصرف بالنسبة لذلك الفتى؟ كيف يفعل هذا؟ يترك الوقت يمر. لكن هذا ليس هباء. إنه لا ينساها. على العكس. يراكم الغضب. يراكم الحنق. يبدأ في الشعور أن شيئًا ما سُلب منه. كيف ستتزوج ليليانا من رجل من بوينوس أيرس عرفته قبل قليل؟ وهو؟ هل هو شخص شفاف لا يمكن رؤيته؟ يقضي أيامه في التفكير في هذا، كما حكيت لي. أو كما حكت أم الفتى للشخص الذي أرسلته. طوال اليوم في الفراش بينما ينظر للسقف. وفي النهاية يأخذ قرارًا. في النهاية أم في البداية؟ هل يقضي شهوره مفكرًا هل يقتلها أم لا؟ أم أنه قد قرر منذ البداية أنه سيقتلها لكنه يأخذ وقته في استجماع شجاعته لكي ينفذ نيته. وعندما تتضح كل الأمور

بالنسبة له، يتجه رأسًا إلى بوينوس أيرس.

يرفع بايث سماعة التليفون ويضغط على حامل السماعة بضعة مرات. يظهر جندي المراسلة ويطلب منه المزيد من القهوة.

-هل تعرف؟ أقسم بكل غال ونفيس أن الفتى، إن كان من نبحث عنه، أخذ وقته في تدبير إقامته. يبحث عن بنسيون. يحصل على عمل. وبعد ذلك يهتم بأمر بالفتاة. يقف على ناصية البيت لكي يعرف عادات الزوجين. متى تنفتح بوابة الشارع، لأنه قادر على تخمين متى تنفتح أبواب المسكن، وتنقلب أحشائه وربما يتساءل أيضًا إن لم يكن من الأفضل أن يصفي كلاهما. هل تتخيل ما يمكن أن يشعر به رجل عندما يرى رجلًا آخر يخرج سعيدًا كل صباح من فراش المرأة التي يرغب فيها بجنون؟ وهكذا يذهب يوم الحادثة. يرى موراليس بينما يخرج. ينتظر خمس دقائق ثم يتسلل إلى المدخل. باب الشارع مفتوح طوال اليوم لأن عمال البناء في الشقة رقم 3 يقومون بإخراج الحطام. لا. إنني أتحدث بترهات. في ذلك اليوم لم يذهب عمال البناء. ولهذا يدق الجرس وتردُّ الفتاة عبر الداتافون. بغض النظر عن دهشتها، كيف يمكنها ألا تفتح له؟ أليس صديقها وجارها منذ كانا طفلين؟ ألم يقتسما الكثير من الأشياء معًا؟ من المرجح أن تتذكر بينما تُدير المفتاح في الباب، بشيء من الشعور القديم بالذنب، الطريقة التي خيبت بها أمله عندما صرَّح بحبه قبل سنوات. بالطبع يبدو غريبًا أن يذهب لزيارتها بدون سابق إنذار، لأنه لم يحضر حفل الزفاف أيضًا، لكنها لن تتركه واقفًا أمام الباب من أجل هذا. ورغم أنها ما زالت ترتدي قميص النوم إلا أنها قد وضعت الروب فوقه. وهي شابة. ربما كانت امرأة أكبر سنًا قد اعتبرت أن فتح الباب بهذا المظهر غير مناسب. لكنها ليست شديدة الالتزام بالشكليات. ولا يجب أن تكون هذا. ربما لا يهتم الفتى بكل هذا. ما حدث أنها فتحت الباب وقالت

«يا للمفاجأة يا إيسيدرو»، وتفسح له لكي يدخل بينها تُقبِّله في وجنته. لهذا لم تسمع الجارة من يدق على باب الشقة المجاورة. لأن ليليانا خرجت لتفتح باب الشارع له، وتصحبه الآن إلى الداخل. مسكينة.

أطفأ بايث سيجارته وبدا أنه يتردد في إشعال سيجارة أخرى على الفور. يتراجع.

-وهل جاء عازمًا على اغتصابها أم أنه قرر الارتجال؟ لا أعرف. رغم أنني أميل إلى أنه تدبَّر الأمر طوال وقت طويل. هذا الفتى لا يأتي بالأمور عفوًا أو بدون تدبير. وهكذا فإن مضاجعتها رغمًا عن إرادتها، على أرضية غرفة النوم، كانت بالنسبة له تصفية لحسابات قديمة. وكان خنقها بيديه انتقامًا لرفضها إياه، لتركها إياه وحيدًا وحزينًا في الحي، كأضحوكة للأصدقاء والأعداء. والآن أواصل التخمين، لكن يبدو لي أن إيسيدرو هذا لا يقبل بأن يسخر منه أي شخص. هذا يخرجه عن أطواره. وبعد ذلك؟ بعد ذلك لا شيء. كم من الوقت استغرق هذا؟ خمس أو عشرة دقائق. لم يترك بصمات في أي مكان. الخدوش على الباركيه فقط، حول جسد المرأة التي حاولت التملص منه قبل نفاد قوتها. لكنه لا يغفل عن مسح هذه الآثار بفانلة وجدها على أحد الأرفف، ربما كانت بصماته قد انطبعت (لا يجب أن يعرف أن حمقى الشرطة الفيدرالية سيبدؤون التحقيق سيدوسون في كل مكان، وسيدمرون أي أثر ربما يكون قد غفل عنه). ولا ينظف مطرقة الباب لأنه يتذكر أنه لم يلمسها. هل تعرف لماذا أخبرك بهذا؟ لكي تدرك أي نوع من الأشخاص هو ذلك الفتى. سنجد على مقبض الباب في الداخل والخارج بصمات لآل موراليس. وهكذا كان لديه الهدوء أو الوقاحة (اختر ما تشاء)، بينما يسير بالفانلة في يديه ليقرر بهدوء أي مكان سينظف: الأرض حول المكان الذي اعتدي فيه على الفتاة المسكينة. نعم، مطرقة الباب التي يتذكر أنه لم يلمسها.

هل تعرف ماذا فعل بعد ذلك؟

توقَّف كأنه يستجوبني بالفعل، لكن لم يكن يرغب في هذا. كما لم يكن يتباهى. لا شيء من هذا. لم يكن بايث يهدر ذكائه في تلك الحماقات.

-هل تعرف ما هو الشيء الذي لم أفهم في شبابي، عندما التحقت بالعمل في وحدة جرائم القتل؟ ليس المجرمين في حد ذاتهم. ليس الفعل الوحشي بالقضاء على حياة شخص ما. لقد اعتدت على هذا بسرعة. وإنما الأفعال التالية على الجريمة. لا أتحدث عن بقية حياة القاتل. لا. لكن فلنقل الساعتين أو الثلاث ساعات التالية. كنت أتخيل أن كل القتلة لابد أن يكونوا مرتعدين ومتوترين بسبب فظاعة أفعالهم، وتظل ذاكرتهم ثابتة على لحظة اقتلاع حياة إنسان آخر.

تنهد بايث بقوة، وارتسم على وجهه ما يشبه الابتسامة، كأنما يتذكر شيئًا مسليًا، ثم أضاف:

-تقريبًا مثل ذلك الفتى في رواية دستويفسكي. هل تعرف من أعني؟ الفتى في الجريمة والعقاب. لكن هذا الشخص كان يشعر بالندم: «قتلت العجوز؟ ماذا أفعل لكي أستمر في الحياة؟».

نظر لي بايث، كأنما تذكر شيئًا ما فجأة:

- معذرة يا تشاباڑو، لقد انسقت وراء الحديث بلهجة تعليمية. أنا متأكد أنك قرأت الرواية التي أحدثك عنها. لكنها عادة أن يحيط بك الجهلاء. تخيل الأهوج سيكورا بينما يتحدث عن الأدب. لا. لا ترهق نفسك. هذا مستحيل. لكن حسنًا، كنت أريد أن أقول أن الشعور بالذنب والندم ليس أمرًا شائعًا. هذا نادر. حذار، يمكن للمرء أن يرى أشخاصًا قادرين على إطلاق النار على أنفسهم بسبب شعورهم بالذنب. لكنه يلتقي أيضًا بآخرين

يمكنهم الذهاب للسينما وآكل البيتزا. حسنًا. يبدو لي أن ذلك الفتى ينتمي للفئة الثانية. لكن بما أنه صباح يوم ثلاثاء لابد أنه سيذهب للعمل كأنما لم يحدث أي شيء. يسير حتى المحطة ويركب الأتوبيس. وربما اشترى جريدة «لا كرونيكا» لدى نزوله. لم لا؟

الآن يشعل بايث سيجارة أخرى. قبل قليل تحدثتُ عن تقلُّبات حالتي المعنوية، وكتبت أنني وصلت إلى لقائي برجل الشرطة في قمة النشوة. وبعد عشرين دقيقة انهارت هذه النشوة. لكنني لم أشعر فقط بالهزيمة إزاء الوقائع، وهو معهود لديأ وإنما شعرت بالذنب أيضًا. بدلًا من مهاتفة بايث فور أن خطرت الفكرة على بالي، لكي يقرر أفضل طريقة للاقتراب من ذلك الشخص، فعلت ما عنَّ لي: انسقتُ خلف مبادراتي، جعلت من الأرمل والصهر المسكينين مجرد دميتين، وجعلتهما يهدمان عش النمل بدون طائل.

على الرغم من كل شيء، حاولت التذرع بالهدوء. ألا يمكن أن يكن بايث مُبالغًا؟ وإن كان جومث أقل ذكاءً وألمعية مما يفترض؟ وإن كان قد تخلى عن الحذر طوال هذه الشهور؟ وفي كل الأحوال: ما هي دلائل بايث على فرضياته؟ لا شيء سوى ما حكيته له قبل قليل.

وأمر آخر: وإن لم تكن لجومث هذا علاقة بكل هذا؟ برغبة صبيانية رغبت في أن تكون الدلائل الخاصة بهذا الشخص مجرد سراب. نهضتُ وتبعني بايث ثم تصافحنا.

-أعتقد أن الغد سيحمل لنا أخبارًا.

رددت عليه، ربما بجفاء لا داع له:

-حسنًا.

-سأهاتفك.

خرجت مُختنقًا تقريبًا، أو على الأقل بشعور بالضيق. عدْتُ إلى المحكمة سيرًا. ورغم الحقارة، كنت مُنشغلًا في تلك اللحظة بألا أظهر كأحمق أكثر من اهتمامي بالإمساك بابن العاهرة ذاك الذي فعل هذا، سواء كان جومث أو أي مجرم آخر.

قبل السابعة مساء بقليل رنَّ جرس الهاتف في القسم. كان بايث.

-لدي هنا ليجثامون بالأمر الذي كلفته إياه.

-أنا أسمعك.

كان رد فعلي كطفل غاضب مثيرًا للسخرية، لكن لم يمكنني فعل شيء آخر. بالإضافة إلى هذا لم أكن مُستعدًا للمكالمة. كنت أعتقد أنهم سينتظرون حتى اليوم التالي.

-حسنًا. لنبدأ بالخبر السيئ. إيسيدرو جومث اختفى منذ ثلاثة أيام من بنسيون فلوريس الذي كان يقيم به منذ نهايات مارس. كلمة «اختفى» مجرد طريقة لإبلاغك بالأمر: دفع حتى اليوم الأخير ورحل بدون أن يخبرهم بوجهته. وحدث ذات الأمر مع العمل. عثرنا على مكانه: بناية من خمسة عشر طابقًا، في ريبادابيا، في قلب حي كابابيتو. قال رئيس العمل إنه فتى غريب. صامت دائمًا، وأحيانًا غير ودود، لكن يؤدي عمله جيدًا، نظيف ولا يتناول الخمور. جوهرة. لكنه ذهب قبل أيام وأخبره أنه سيعود إلى توكومان لأن أمه مريضة للغاية. دفع له رئيس العمال مستحقاته عن الأيام التي لم يتسلم راتبها وقال له أن يأتي إن رغب بعد عودته، لأنه كان شديد الرضا عنه.

برهة صمت. رغم أنني كنت راغبًا في العودة للآلة الكاتبة، لحامل الأقلام، للقضية التي كنت أعمل بها والتليفون، إلا أنني عضضت على

شفتي وانتظرت.

-تلخيصًا. الأمر الجيد أننا يمكن أن نفكر أن هذا هو من نبحث عنه. وأنه فرَّ لأنه عرف أن هناك من يسعى خلفه. أتى لي ليجيثامون بمعلومة قيِّمة: رئيس العمال كان يحتفظ ببطاقات التوقيع الخاصة بالعمال. هل تعرف كم مرة وصل متأخرًا خلال الشهور الثمانية التي عمل خلالها في هذه البناية؟ مرتان. عشرة دقائق في مرة، وساعتان ونصف في المرة الأخرى. هل تعرف متى؟ يوم الجريمة.

استطعت الرد في النهاية. لم تعد نبرتي جافة. لم أكن أتقبل الخسارة بشكل سيء مُطلقًا:

-فهمت. أشكرك على المعلومات يا بايث. سأتولى الآن تحديث القضية بهذه المستجدات وسأخبرك بالمستندات التي أحتاجها منك.

-حسنًا يا تشابارُّو . مساء الخير.

-مساء الخير. وشكرًا. -أضفت كأنما استكمل إزالة سوء فهم.

أوشكت على وضع السماعة عندما جاءني الصوت مرة أخرى من الطرف الآخر. كان صوت بايث يبدو مترددًا.

-لدي شكٌ. كيف خطر لك أنه يمكن أن يكون ذلك الفتى؟ أعرف أن الفكرة جاءتك بسبب موضوع الصور، لكن: لماذا توقفت أمامه بشكل خاص؟ أقول لك هذا لأنك قمت بعمل جيد للغاية. أقول هذا صادقًا. ربما تكون قد وصلت للجاني، من يدري.

كان بايث شخصًا طيبًا بالطبع. هل كان صادقًا في مديحه أم أنه كان يريد التخفيف من شعوري بالذنب والحمق؟ فكَّرت جيدًا في الكلمات التي سأرد بها.

-لا أعرف يا بايث. أعتقد أنه نظرته لفتت انتباهي. طريقته في النظر عن بُعد للمرأة التي يعشقها. لا أعرف. أعتقد أن نظرات المرء تصبح مُحملة بالكلمات عندما يعجز عن النطق بما يريد.

لم يرد بايث على الفور.

-أفهم هذا. لا يمكنني التعبير عن هذا بشكل أفضل. أنت تجيد استخدام الكلمات يا تشابارُّو . هل تعرف؟ كان يجب أن تكون كاتبًا.

-لا تسخر مني يا بايث.

-لا أسخر منك. أقول هذا جادًا. حسنًا. سأهاتفك خلال الأيام القادمة، عندما أتلقى طلباتك.

وضعت السماعة ودوى صرير حاملها في صمت المحكمة. نظرت للساعة. كان الوقت متأخرًا للغاية. رفعت السماعة مرة أخرى وطلبت رقم البنك الذي يعمل به موراليس. وطلبت من الحارس أن يخبره فور وصوله في اليوم التالي أن يمرَّ على المحكمة لكي يوقع شهادةً. ووعدني بإبلاغه بالرسالة.

صرير حامل السماعة مرة أخرى. سرت حتى حامل الأرفف الذي أخفيت في أعلى رفوفه قضية موراليس قبل شهور عديدة. شببت على أطراف أصابعي وجذبت الملف الذي سقط في يدي وسط سحابة من الغبار. عدتُ إلى مكتبي. لم أراجعه من البداية. ذهبت إلى القرار الأخير مباشرة. كان يعود إلى شهر يونيو وينص على إضافة التقرير الإضافي للتشريح إلى الملف: فحص الأحشاء. نظرت إلى ساعتي لأتحقق قبل ملء خانة التاريخ. وضعت ورقة بشعار «السلطة القضائية الوطنية» وفي الآلة الكاتبة وكتبت تاريخًا وهميًا يعود لشهر أغسطس.

لم أكذب على بايث عندما أجبت على سؤاله الأخير، لكنني لم أقل له

كل الحقيقة. بالفعل لفتت نظرة جومث انتباهي، وفسرتها كرسالة صامتة وعقيمة لامرأة لم تكن قادرة ولا راغبة في فهمه. ما لم أقله لبايث إنني توقفت إزاء هذه الطريقة في النظر لأنني تفحصت امرأة بذات الطريقة. كان غروبًا حارًا في شهر ديسمبر 1968، مثل مرات كثيرة طوال العام الذي مرَّ على تعارفنا. وشعرت بأسف شديد على أنني لم أتزوج منها.

16

«لا أطلب من الرب سوى ألا يأتي ساندوفال ثملًا اليوم»، فكَّرتُ ذلك الصباح عندما دخلت المحكمة. لم أنم تقريبًا خلال الليلة السابقة. لم أرجع للبيت في وقت متأخر للغاية فقط (وشعرت بالذنب لأن مارثيلا كانت تنتظرني مستيقظة)، وإنما لم أنم إلا بعد وقت طويل. ماذا سيحدث إن أدرك القاضي أنني كنت أحاول الاستهزاء به عندما عصيت أوامره؟ هل يستحق الأمر التعرض لهذا الخطر؟ جعلني التوتر أقفز من الفراش في وقت مبكر للغاية. لابد أن التعبير على وجهي كان فظيعًا، لأن زوجتي أدركت أن هناك ما يقلقني وسألتني عن هذا أثناء الإفطار.

اليوم، بعد ثلاثين عامًا، أتذكر هذا ويشق علي تصديق أنني صاحب خطة كهذه. ما الذي كان يدفعني للتورط في مثل تلك المشكلة؟ أعتقد أن المشكلة هي الشعور بالذنب. والشك: إن لم يكن جومث هو الجاني، لم إثارة تلك العاصفة التي أوشكت على التسبب بها؟ لكن، إن كان هو القاتل، كيف يمكنني النظر لنفسي في المرآة حتى يوم مماتي بدون الشعور بالجُبن لتفضيل سلامتي الشخصية وعملي؟

مشكلتي الحقيقية لم تكن نابعة من البحث غير الناجح عن إيسيدرو جومث وإنما من قبل ذلك: منذ اللحظة التي قررت فيه التحايل لتفادي حفظ القضية، قبل عدة شهور. في تلك اللحظة فكرت أن القاضي سيشعر بالرضا الشديد لدى الإيقاع بالجاني، وبالتالي لن يهتم بالتلاعب غير المبرر

بالقضية. على العكس، بضعة عبارات تقدير لزجة ومبالغ فيها إلى حد كبير، أنسبُ بها جدارة الإمساك بالقاتل إليه، كانت ستجعله يغض البصر عن أي عقاب.

لكن أصبحت أوراقي مكشوفة الآن. ولهذا كنت أحتاج لساندوفال. لكن ليس أي ساندوفال، وإنما المُلهَم، الماهر، السريع، الجريء. إن كان من نصيبي ساندوفال الثمل فقد انتهى أمري. لحسن الحظ، بينما كنت غارقًا في تلك التأملات، دخل مثل صباح مشرق في شهر مايو، تفوح منه رائحة اللافندر. قطعت عليه الطريق بينما يتجه إلى مكتبه وشرحت له خطتي بكلمات قليلة. بشكل لا يقبل الجدل كان شخصًا بالغ الذكاء. فهمني في الحال. وكان وفيًا، لأنه قَبِل المشاركة في التدليس من دون أدنى تردد.

وجاء موراليس مُبكرًا. جعلته يُوقع في المدخل على مُلحق إضافي للشهادة التي أدلى بها. لم أعطه تفاصيل وجعلته يرحل بسرعة بينما أقول له إنني سأشرح له الأمر جيدًا في وقت لاحق. عندما دخل القاضي فورتونا لاكايه الإدارة بعد قليل، أسلَّمت أمري للروح القدس بينما أتذكر دعوات أمي لكي أتغلب على الشعور بالضيق. كان لاكايه متأنقًا للغاية كالعادة. حلة داكنة، ربطة عنق وقورة تتسق مع المنديل في الجيب العلوي، شعره مخضم بالفازلين ومفرود، بشرته برونزية. أعتقد أن ملاحظتي له جعلتني أطور نظريتي بأن الأغبياء لا يتدهورون جسديًا لأنهم لا يعانون من القلق الوجودي الذي يعمل على اهتراء وتآكل الأفراد الذين يتمتعون بقدر ما من الذكاء. لا أمتلك براهين قاطعة في هذا الصدد، لكن حالة فورتونا لاكايه دائمًا ما بدت لي جلية الوضوح.

جلس على مقعدي بحركاته كأمير، وأخرج القلم الباركر من جيب السترة العلوي. بالغتُ في أدائي بينما أقوم بمراكمة الملفات فوق المكتب،

كأنما لكي يفهم أنه سيقضي الساعتين أو الثلاث ساعات التالية من حياته في توقيع قرارات وأوامر. لحسن الحظ كان يوم خميس، اليوم الذي يلعب فيه التنس في السادسة، وبدءًا من الثالثة يتملكه نفاد صبر حاد إزاء أي أمر عارض يمكن أن يحيد به عن المهمة العظيمة التي تنتظره. وأتى هذا بأثره عليه. اتسعت عيناه دهشة، وأتى بتعبير ظنَّه لطيفًا حول السرعة التي يعمل بها موظفوه في تلك الإدارة. مُبتسمًا، بدأت أمرر له القضايا لكي يوقعها، بينما أعلق بشكل موجز على كل ملف. كانت معلومات بلا طائل، أو فلنقل أنها معلومات مكررة وسطحية، لكن القاضي كان على قدر من الغباء لا يسمح له بإدراك أنني كنت أسخر منه.

حينئذ أطل ساندوفال لأول مرة من خلف حامل الأرفف الذي يمنح مكتبي حدًا أدنى من الخصوصية.

- يا دكتور - بدأ كلامه متوجهًا إلى فورتونا، بنبرة تجمع بين المداهنة والسخرية، لكنها على قدر كبير من التفخيم بحيث لم يشعر الآخر بأنه ضحية وإنما شريك - متى سنراك تركب سيارة دودج كورونادو مثل زميل حضرتك موليناري؟

نظر له القاضي بحذر. على الرغم من بلاهته، كان يمتلك غريزة البقاء التي يطورها الأناس على شاكلته إزاء المواقف المُعقدة والعدائية. وبكل وضوح كان ساندوفال يمثل جزءًا من هذا العالم المليء بالتعقيدات. «سيطلب منه أن يكرر التعليق. سيطلب منه أن يكرره»، قلت لنفسي. وبحركة سريعة أمسكت بقضية موراليس، وفتحتها على صفحة 208 مباشرة، والتي كنت قد وضعت فيها علامة.

-ماذا تقول يا ساندوفال؟

كان فورتونا يولي كلمات نائبي اهتمامًا أكبر من القضية المفتوحة أمام عينيه.

-قرارٌ بتشكيل ملف ثان يا دكتور -قلت مُغمغما، كأنما لا أرغب في مقاطعة الحوار الذي كان فورتونا يعقده بهذا الأمر التافه.

-نعم، نعم -ردَّ دون أن ينظر لي.

-لا شيء. لا شيء يا دكتور -ابتسم لهساندوفال ابتسامة ماكرة-. كنت أعتقد أنك رأيت الدكتور موليناري بسيارته الجديدة. ألم تره؟

كان فورتنا يبذل جهودًا لكي يردَّ بسرعة وبذكاء. كان الوصول لهذين الهدفين بشكل منفصل صعبًا عليه. لكن كان الوصول لهما معا في ذات الوقت مستحيلًا. لكن بدا أنه مُستعدٌ لبذل هذا الجهد، ومثل هذا الهدف كان يستهلك كل قواه العقلية. وهكذا كان الانتباه لما يُوقِّع خارج نطاق قدراته. ولهذا وضع توقيعه على قرار بتاريخ 2 يوليو، والذي كان ينص على إنشاء ملف ثان في القضية بدءًا من الصفحة 201، لكنه أيضًا كان ينص على الحصول على شهادة إضافية من ريكاردو موراليس. أبعدتُ الملف من أمامه فور أن وقَّعه، ربما تحدث المعجزة ويدرك أنه كان يُوقِّع على قرار يعود إلى أربعة شهور سابقة.

-لا. لم أكن أعرف.... موديل كورونادو؟

-كورونادو يا دكتور. أزرق ميتالك... -كان ساندوفال يرسم ابتسامة غائبة، كأنه مأسور في الذكرى-. هدية من السماء. مقاعد من الجلد الأسود. المقابض مطلية بالكروم... ألم ترها بالفعل يا دكتور؟

-لا. حسنًا. في الحقيقة لم أتناول الطعام مع آبيل منذ فترة طويلة.

فكرتُ «حسنًا، لقد سقط في حباله تمامًا». كان يمكن لساندوفال أن

يكون قاسيًا مع من لا يحبهم، لكن طريقته كان رائعة في ممارسة هذه القسوة بحيث يُوقع غريمه في بحر من نقاط ضعفه. كان لاكايه أبلهًا ممتلئًا بغرور وتباهي رجل القضاء. لكن بالإضافة لغروره كان يموت حسدًا إزاء القضاة الذين يستحقون المناصب التي يشغلونها. موليناري كان أحدهم، وتلك الحركة اليائسة الجديرة بغريق بذكره باسمه الأول، كأنها تجمع بينهما علاقة حميمة، كانت تسعى لإضفاء المصداقية على ألفة لا وجود لها، وتؤكد على أن الحسد أذهب بعقله.

قررت انتقال إلى الجزء الثاني: وضعت أمامه الشهادة الإضافية التي أدلى بها موراليس. وكانت هذه الشهادة مُحيطة إلى قضية أخرى، وفيها يصرح موراليس بشكوكه حول جومث انطلاقًا من رسائل تهديد مُفترضة تلقتها زوجته قبل مقتلها، وكان المُعجب المرفوض قد أرسلها. لكنهما تخلصا من الرسائل تمامًا. كنت قد حررت الشهادة في الليلة السابقة ووضع موراليس توقيعه عليها قبل قليل.

-هذه شهادة أحد الشهود في قضية مونيوث، قضية عمليات النصب المتكررة -كذبت.

-آه... وكيف يسير هذا الأمر؟

«لقد فشلنا»، قلتُ لنفسي. الآن يتصنَّع الاهتمام. ماذا يمكنني أن أخترع؟ منذ متى أخلط قرارات قضية بأخرى؟ وكيف سأبرر هذه الشهادة القادمة من العدم.

-هل ما زلت تمتلك السيارة فالكون يا دكتور؟ -هبَّ ساندوفال لنجدتي.

-نعم، هذا حقيقي -ردَّ فورتونا بنبرة حاول أن يُحملها بعدم الاكتراث.

-نعم، نعم، لأنها.... إي موديل؟ 63 أم 64؟

-إنها موديل 61 -قال فورتونا بخشونة، على الرغم من محاولته تخفيف إجابته-. أداؤها رائع لدرجة أنني لا أستطيع التخلص منها.

كان ساندوفال فنانًا. لقد ضحكنا ألف مرة من وراء ظهر القاضي، ليس من سيارته فالكون موديل 61 (بعد كل شيء كنا من فئة المشاة الأبديين)، وإنما لأن فورتونا لاكاييه كان يعاني من هذا الأمر كعذاب داخلي. كان سيعطي إحدى أذنيه مقابل سيارة جديدة (بافتراض أن هناك مجنون ما يقبل مثل هذه المقايضة). كان يتلقى راتبًا يسمح له بهذا. لكن العادات اليومية لزوجته وابنتاه كانت جديرة بأميرات، ولهذا كان المسكين فورتونا ينجو من شبح الإفلاس بأعجوبة شهريًا. كان وجه القاضي الشفاف يكشف لي عن القائمة التي يعدها في عقله للأشياء التي يمكنه شراءها إن لم تكن نساء عائلته يعانين من هذه الحمى الاستهلاكية. وأعتقد أن دودج كورونادو كانت على رأس القائمة.

أدرت الورقة بسرعة. كانت قرارات الشرطة الفيدرالية وشرطة توكومان التي تأمر بالبحث عن جومث، وكانت هناك نسخة منها. كانت بتواريخ في أكتوبر ونوفمبر بشكل تكراري. كنت قد رتَّبت هذا الأمر مع بايث. وقَّع عليها فورتونا كأنما يتعلق الأمر بفاتورة محل التنظيف الجاف.

-وأمر آخر -كان ساندوفال مُلهمًا-. لا أعرف إن كان الدكتور موليناري قد أحسن صنعًا في موضوع السيارة دودج -كان يُحرك يديه كأنه يتردد في طريقة عرضة المشكلة- حضرتك، كشخص يفهم في هذا الأمر يا دكتور... -بدا أنه قد حزم أمره، كأنما قد قرر الثقة في القدرات العقلية ومعارف مُحاوره-، أي سيارة تُفضل؟ سيارة دودج كورونادو أم سيارة فورد فيرلاين؟

«حضرتك كشخص يفهم»، كررت لنفسي، كان ساندوفال عبقريًا. وفي الحقيقة لم يكن فورتونا يفهم في السيارات ولا في القانون ولا في أي شيء تقريبًا. لكن لأنه لم يكن يدرك أنه لا يفهم، استعد بحماس لتنوير الحاضرين حول المزايا التي لا تُحصى للسيارة فورد فورلاين، وعن العيوب التي لا يمكن التهاون فيها لدودج كورونادو. وهي طريقة ضمنية أيضًا لكي يكشف أن الدكتور موليناري لم يكن في الحقيقة شخصًا كاملًا كما يبدو. واستغرق الأمر عشرة دقائق ورسمًا توضيحيًا، لكي يشرح الفارق بين ذراع نقل السرعة المتصل بعلبة التروس في كلتي السيارتين.

انتهى الأمر بشكل رائع. عندما انتهى من الحديث عن التفاهات كان قد وقَّع لي إيصال استلام ردَّ الشرطة (الذي كتبه بايث وأرسله هذا الصباح بأقصى سرعة) حول عدم العثور على أيسيدرو جومث. كان قد وقَّع أيضا على قرار يأمر بمواصلة البحث عن مكانه من أجل الحصول على شهادته، وطلب هذا من الشرطة الفيدرالية. ساندوفال، الذي كان متكئًا على أحد الأرفف، كان يتظاهر بالاستماع باهتمام لحديث فخامته، وانتبه لبادرة الارتياح على وجهي وأدرك أن مهمته قد انتهت.

على الرغم من هذا، ولأنه انسان حساس، لم يرغب في إجهاض حماس فورتونا لاكايه وتركه يستفيض خلال دقيقتين أو ثلاث أخرى. بعد ذلك شكره على وقته وأضاف:

-حسنًا يا دكتور. سأترككما، يجب أن أواصل العمل.

وقبل أن يرحل هز رأسه من جانب لآخر واختتم

-حضرتك تعرف الكثير فيما يتعلق بالسيارات يا دكتور.

أغمض الآخر عينيه وابتسم بتعبير حاول أن يبدو متواضعًا في قبوله

للمديح. ولكي أُدير رأسه تمامًا، وضعت عشرين أو ثلاثين مستندًا تافهًا آخرين لكي يوقّعها.

بعد عودة فورتونا إلى مكتبه جمعت القرارات التي نثرتها في الملفات الأخرى ووضعها في ملف قضية موراليس حسب الترتيب الصحيح. كانت تحمل توقيع القاضي، لكن كان يجب أن يضع لها رئيس الإدارة أكوادًا. لم يكن استعمال ذات الاستراتيجية ممكنًا. كانا متشابهان في درجة البله، لكن ليس لدرجة شد حبل حظي السعيد حتى تلك الدرجة. قررت الاعتماد على طبيعة بيريث الشخصية: كان فاقد الهمة والعزم ومن دون شك سيوقع على أي ورقة تحمل توقيع رئيسه. وهكذا حملت له القضية في ذات تلك الظهيرة، مع عشرين قضية أخرى جعلت فورتونا يوقّع عليها. ومن الممكن أن ينتبه للمناورة. ماذا يفعل كل هذا العدد من القرارات في قضية كهذه بتواريخ متصاعدة ماضية إن لم تكن مناورة تم تدبيرها من خلف ظهره؟

وتحسبًا لامتلاكه ورقة آس رابحة، إن شكك في تصرفي، أو شكَّ في وجود أمر قذر في هذه الكتلة من القرارات الوهمية التي وقعَّ عليها فورتونا لاكايه قبل قليل، كنت سأبتزه بدون لف ولا دوران: كنت سأحكي لنصف العاملين بالسلطة القضائية أنه يرعى الضيعة الصغيرة، باهتمام يثير الحسد، التي تمتلكها السيدة المحامية العمومية في الدائرة رقم 3 الخاصة بالجرائم الجنائية، والتي لم تكن زوجته الشرعية ولا أم الفتيين الجميلين اللذين تزين صورتهما مكتبه. لحسن الحظ لم يكن هناك داع لهذا. وقَّع بدون اعتراض بجوار توقيع خبير السيارات فورتونا لاكايه. عندما انتهيت سقطت مُنهكًا فوق مقعدي بسبب توتر أعصابي. اقترب مني ساندوفال مُبتسمًا، وأطلق العبارة الفلسفية التي لا يستخدمها إلا في المناسبات الاستثنائية الهامة مثلك تلك المناسبة:

-كما قلتُ في مرات عديدة يا صديقي العزيز بنجامين، يوم يقوم بلهاء العالم بإقامة احتفال، سيقوم هذان باستقبالهم على الباب، سيقدمان لهم المشروبات الباردة، وسيعرضان عليهم المأكولات، سيلقيان بعبارات الاحتفاء باللقاء، وسينظفان فتات الطعام من فوق شفاههم.

الاسم واللقب

يجذب تشابارُّو الصفحة التي انتهى منها بقوة كافية لتحريرها من الآلة الكاتبة من دون تمزيقها، ويعيد قراءتها. الكلمات الأخيرة تدفعه للابتسام.

تمرين الذاكرة يبدو له مُبهجًا: تلك الجملة التى أنهى بها الفصل، جملة «يوم يقوم بلهاء العالم بإقامة احتفال»، التي كان يظن أنها قد سقطت تمامًا في النسيان. لكنها تعود للظهور الآن مع الكثير من الذكريات الأخرى عن ماضيه وعن الأشخاص اللذين عاش معهم ذلك الماضي.

ينهض ويكرر الحركة التي قام بها طوال الحياة: يمسك بعظام أنفه، على مستوى العينين، بين سبابة وإبهام اليد اليسرى، ويضغط حتى يشعر بشيء من الألم تقريبًا. فعل هذا طوال نصف حياته تقريبًا، عندما ينهض من المقعد بعد الجلوس منكفئًا على مكتبه في المحكمة خلال وقت طويل. والآن يكرر هذه الحركة هنا، في بيته، بعد أن ظل طوال ساعات كثيرة في استدعاء ذكرياته وذكريات الآخرين التي كان غارقًا فيها. يعتقد تشابارُّو أننا سهلو التوقع، نشبه أنفسنا بشكل بدائي وبسيط. هذه الحركة وحركات أخرى كثيرة لا يتوقف أمامها دائمًا ما كانت جزءًا من شخصيته، وستظل معه حتى يرتاح تحت الأرض.

يفكر في إيريني. لماذا يفكر فيها الآن تحديدًا بعد أن فكَّر في موته؟ هل كان يربط بينها وبين موتها؟ لا. على العكس تمامًا. إيرينى تربطه بالحياة. إنها

تُشبه الدِّين الذي يدين به للحياة، أو تُداينه الحياة به. لا يكن أن يموت بينما يمتلك هذه المشاعر تجاهها. كأنما تَحَلُّل هذا الحب وتحوُّله إلى تراب مثل لحمه وعظامه يُعتبر إهدارًا له.

لكن، كيف يمكنه انتزاع هذا الحب من داخله؟ لا يوجد سبيل لهذا. فكَّر في هذا مرارًا، لكن هذا غير ممكن. رسالة؟ هذا الاختيار به جاذبية المسافة الفاصلة، ألا ترى وجهه المثير للسخرية، أو الأسوأ من هذا، الشاعر بالإهانة، أو ما هو أسوا من هذا، أن يثير شفقتها عندما تعرف. ذهابه ليقول لها هذا وجهًا لوجه لا يوجد بين قائمة الاختيارات التي يُفكر بها تشابارُّو. حبُ «الناضجين» يبدو له مثيرًا للسخرية. لكن إعلان الحب لامرأة متزوجة منذ ثلاثين عامًا تقريبًا يبدو له مُهينًا ومنفرًا أكثر منه أمرًا مثيرًا للسخرية.

العقلانية، التي يبدو أن تشابارُّو يعثر عليها من حين لآخر داخل رأسه، تقول له إن المرء لا يجب أن يكون وقورًا ومحترمًا وحازمًا لهذه الدرجة. ما هي المشكلة في علاقة غرامية مع امرأة متزوجة؟ لن يكون أول ولا أخر من يعرض عليها هذا. ما المشكلة إذن؟ هذا تحديدًا. يردُّ تشابارُّو على نفسه في الحال أنه لا يرغب بأن يقول إنه يريد عقد علاقة غرامية معها. ما يجب أن يقول لها، ما يحتاج لأن يقول لها، و في ذات الوقت يثير ذعره أن تعرف هذا، إنه يريدها بجواره، للأبد، في كل مكان وفي كل ساعة، أو تقريبًا في كل ساعة، لأنه غرق في مثل هذه الحالة من العشق، وأصبح لا يتخيل الحياة بدونها. لكن عندما يصل إلى ذلك المستوى من الأفكار يتوقف تشابارُّو منهارًا. ففي أحلامه، ستتلقى إيريني اعترافه اليائس وستأتي بذات التعبير الذي يمكن أن تثيره الرسالة التي لن يكتبها في كل الأحوال: الدهشة، أو الغضب، أو الشعور بالشفقة.

وبعد ذلك لا شيء. فبعد الرفض لن يكون هناك مجال لتلك اللحظات المسروقة من حياتها، بينما يتناولان القهوة في مكتبها ويتحدثان عن الكائنات الفضائية، بينما يتظاهران بأن الأمر لا يتجاوز مجرد حوار بين زميلين -زميلين سابقين- في العمل. يبدو أن إيريني تستمتع بهذه اللقاءات العابرة. لكن ما أن يتجاوز خط التهذيب لن يكون أمامها خيار سوى أن تطلب منه ألا يعود لرؤيتها مرة أخرى.

بينما يُعد تشابارُّو مشروب الماتيه، يجد نفسه غارقًا فجأةً في ذات الرغبة المثيرة للشعور بالذنب كما في مرات أخرى كثيرة، على الرغم من أنه يعود لرشده في الحال. أيريني أرملة فجأة.... هل يمكنها أن تعشقه؟ لا يوجد ما يضمن له هذا. لهذا من الأفضل أن يترك المهندس المسكين في سلام، فليواصل الاستمتاع بحياته وبزوجته، ليشقه برق من السماء.

يضع الورقة الأخيرة التي كتبها على الآلة الكاتبة فوق بقية الأوراق ويُقدِّر سُمكها. ليست أوراقًا قليلة بالنسبة لهذا العمل الأول. هل مرَّ شهر ونصف الشهر؟ هذا ممكن. الوقت يمر بسرعة بفضل هذا الأمر. يخطر على باله شك كثيرًا ما يطرق بابه: ما هو العنوان الذي يمكن أن يضعه لهذه الرواية؟ لا يعرف. لا توجد لديه أدنى فكرة.

يشعر تشابارُّو أنه ليس جيدًا فيما يتعلق باختيار العناوين. للبرهة الأولى فكَّر في وضع عنوان لكل فصل، لكنه تخلى عن هذا الطموح الآن. إن لم يكن قادرًا على العثور على اسم للمُجمل، كيف يمكنه وضع اسم لكل فصل؛ وقد كتب ستة عشر وما زال أمامه الكثير.

ويشغله أمر آخر: اسمه تحت العنوان. «بنجامين ميجيل تشابارُّو» يبدو كركلة بالنظر له من كل الزوايا. قبل أي شيء، ألم ينتبه أبواه إلى أن المقطع الأخير في اسمه الأول والمقطع الأول في اسمه الثاني يشكلان قافية مكررة

ومنفرة؟ «مين-مي». فظيع. وبالإضافة إلى هذا موضوع الأسماء التي لها معنى. لأن هذا أيضا منفر، خاصة جزئي اسمه معا. «بنجامين»، بمفرده، يثير نفورًا. بنجامين ليس اسمًا مناسبًا طوال الحياة. إنه يناسب طفلًا، أصغر طفل بين أشقائه. لماذا أطلقوا عليه هذا الاسم رغم أنه ابن وحيد؟ وموضوع العمر هام أيضًا. قد يكون مقبولًا أن يكون اسم المرء بنجامين في السابعة أو الثامنة من عمره. لكن بنجامين في الستين؟ إنه مُضحك. لكن الأمر لا ينتهي هنا. لأن إطلاق اسم تشابارُّو على شخص ينهض فوق سطح الأرض بمقدار المائة وخمسة وثمانين سنتيمترًا يبدو منافيًا للمنطق. وهكذا فإن كتاب بنجامين تشابارُّو (إن ألغينا الصوت النشاز ميجيل) يمكن أن يبدو، للجمهور الذي لا يعرفه، كتاب شابٍ قصير القامة. أم أنه شخص ملتوي التفكير بينما الناس تمتلك تقديرات أبسط؟ لكن قد يفهمه أحد القراء بهذه الطريقة. وبعد ذلك يأتي هذا الشخص ليراه، ويجد أن بنجامين تشابارُّو عملاق ضخم الجثة، ذو قامة معتبرة وفي الستين من عمره. يبدو هذا تناقضًا.

قد يكون الحل في توقيع الرواية باسم مستعار. لا. لا يمكن، يردُّ على نفسه في الحال. إن أمكنه نشرها، حتى وإن دفع من جيبه الخاص طبعة منخفضة التكاليف، يريد أن يظهر اسمه على الغلاف، مهما كان اسمه مثيرًا للضحك. السبب بسيط، وهو أن تراه إيريني.

17

ما أن وضعتُ الأختام على أمر البحث عن مكان إيسيدرو أنطونيو جومث، وما أن وضعتُ الملف مع الفارين، وما أن أطلعتَ موراليس على التطورات الجديدة، شعرت بالرضا عن أدائي الشجاع، وبمنجى من منزلقات هذه المأساة، وعدتُ إلى إيقاع حياتي الروتيني كرئيس هادئ الطباع، وكزوج يعود للبيت في السابعة، ولقراءة الصحف ليلًا، وكموظف قضائي مُحترم، ونسيت تلك القضية تقريبًا.

لكن بعد شهور قليلة تعرضت لضربة موجعة مُتعلقة بهذا الأمر. كان علي أن أدلي بشهادتي في التحقيق ضد رومانو والشرطي سيكورا بسبب التجاوزات غير القانونية بحق عاملي البناء. كانت الشهادة في حد ذاتها مجرد إجراء روتيني: مجرد التوكيد على المعلومات الواردة في بلاغي الأصلي وإيضاح بضعة تفصيلات. اندهشت (شعرت بالضيق) لقيام مُتدرب بهذا التحقيق: إشارة سيئة، كأنها قد عزموا في تلك المحكمة على إماتة القضية ويكتفون بالحفاظ على المظاهر. ماذا ينقصهم لمحاكمة هذين المجرمين؟ كانت لديهم شهادتي، وشهادة رجلي شرطة من القسم الذي حدثت به الواقعة والتقرير الطبي حول إصابات المسكينين. على الرغم من قلة الثقة التي شعرت بها قررت الانتظار. كان القاضي هو باتيستا، الذي شخص كنت أعتبره مُخلصًا في عمله، وكنت قد عرفته إلى حد عندما عملت معه في بعض المرات. بالإضافة إلى هذا، كما قلت من قبل، كنت قد تجاوزت حالة

الاهتمام العنيف بكل هذه القضية.

بعد فترة طلبني باتسيتا ذاته للقائه في مكتبه. استقبلني مُبتسمًا، شدَّ على يدي بحرارة، وعندما جلسنا قال لي إن ما سيخربني به يُعتبر بالغ السرية، وطلب مني ألا أبلغ أي شخص به لأن وظيفة كلينا كانت على المحك. «اللعنة»، فكرت. ما هو الأمر بالغ الأهمية؟ أعتقد أن القاضي لم يكن يشعر بالراحة، لأنه بعد أن تردد لبرهة تقيأ كل الموضوع في أقصر وقت ممكن، كأنما يريد التخلص من بسرعة من شيء قذر ومثير للضيق. وهكذا أخبرني من دون مقدمات أن الأمر قد جاءه من فوق (واستكمل الصورة بالإشارة بالسبابة إلى سقف المكتب، لكم ماذا كان يعني؟ المجلس؟ البرلمان؟ الحكومة؟)، لكي يوقف الأمر برمته وحفظه بدون مُتهمين. أضاف أنه لا يمكن أن يكون أكثر وضوحًا، لكن فيما يبدو أن ذلك الفتى... رومانو، زميلي، كان لديه واسطة كبيرة، في مكان عال. عندما قال باتسيتا «واسطة كبيرة» لمس كتفه الأيسر بأصبعين من يده اليمنى. لم يكن مجلس القضاء ولا البرلمان. الإشارة كانت تعني بشكل لا يقبل الخطأ «رتبة عسكرية كبيرة». فجأة تذكرت حماه، العقيد في المشاة، وفهمت. كم كنت ساذجًا، لم أنتبه لهذه الدرجة من القرابة عندما قدمت الشكوى ضده. ممتاز. إن كنت بحاجة لأمر آخر ليكتمل حنقى من أونجانيا وفرقته، كان هذا هو الأمر. سألني باتيستا:

-هل تريد أن أحكي لك شيئًا آخر؟

رددت بالإيجاب، خاصة لأن وجه القاضي كان يوحي بالرغبة في الحكي.

-كان علي أن أطلبه للشهادة -أحنيت رأسي موافقة-، وبما أن التحذير كان قد وصلني -نظر باتيستا نحو السقف-، فضَّلت أن أحصل على شهادته بنفسي.

فكرتُ: «كُلنا جبناء، لا يتطلب الأمر سوى أن يخيفوننا بالقدر الكافي». لقد أخذ شهادتي متدرب له وجه صبي في الخامسة عشر. وابن العاهرة ذلك، صهر العقيد، يدلي بشهادته أمام القاضي ذاته بينما يتصبب الأخير عرقًا.

-لا تتخيل يا تشابارُّو قدر الغرور لدى ذلك الشخص. دخل المكتب كأنه يصنع بي معروفًا، كأنما يتفضَّل علي بجزء لا يُقدر بمال من وقته الثمين. عندما بدأت أسأله حول القضية، أخذ يتحدث بشكل بذيء عن كل ما عنَّ له. لكن ليس عنك، صدقني. اختص بهذا الفتيين المسكينين اللذين أمر بطحنهما ضربًا. سُمر البشرة في هذا المكان، اللصوص في ذلك المكان، النصابون من مكان ثالث. يجب قتلهم جميعًا وغلق الحدود. أقول لك الحقيقة، لم أسجل معظم الفظائع التي قالها، لكي لا أقول كلها، في الشهادة المكتوبة، لأنه لم يكن سيترك لي مجالًا إلا لإدخاله السجن بتهمة الحض على الجريمة، تخيل.

كان السؤال الذي كان يفرض نفسه في تلك اللحظة: «ولماذا لم تفعل هذا يا دكتور؟». لكنني لم أنطق به. كان انتصار ذلك الوقح يوشك على جعلي أنفجر. لكنني أنا أيضًا، على طريقتي، كنت خامل الروح وأبتعد على المخاطر، على الرغم من كل شيء.

-وعندما سألته عن عاملي البناء تحديدًا، نفى أي صلة بهذه الوقائع، وكان هذا هو كل شيء. قلت له أيضًا إن حفظ القضية الجنائية سيؤدي في الغالب إلى غلق التحقيق الداخلي وأن مجلسُ الاستئناف سيلغي قرار الإيقافَ عن العمل الذي صدر بحقه.

فكَّرت «رائع. سيصبح زميلًا لي من جديد».

-لكن لدهشتي تلقى المعلومة بدون أي اكتراث، وردَّ بأنه يعتقد بعدم

قدرته على أداء الأعمال المكتبية بعد ذلك. وأن هذا هو وقت العمل الميداني، لأن الوطن يعني من المخاطر ومُحاط بالأعداء والملحدين والشيوعين إلخ. وهكذا قاطعته فجأة وطلبت منه التوقيع على شهادته وصرفته. لم تكن لدي رغبة لسؤاله عن خططه المستقبلية.

خلَّف اللقاء مع باتيستا مرارة في حلقي بسبب الشعور بالظلم، والحصانة المشئومة التي اصطدمت بها. لكن في تلك اللحظة لم يمكنني توقع، ولا تخيل، تبعات تلك الأحداث على الحكاية التي أرويها، وعلى حياتي الخاصة.

أقرأ «حياتي الخاصة». كيف كانت حياتي الخاصة في 1969؟ في تلك الفترة اقترحت مارثيلا أن ننجب ابنًا. لم تسألني. كأنها كانت تنطق بصوت عال بفكرة تلاحقها منذ فترة. «يمكننا إنجاب ابن»، قالت أثناء العشاء. كنا نشاهد نشرة الأخبار. نظرت لها وأدركت أنها جادة في حديثها. نهضت وأطفأت التلفزيون. دائمًا ما اعتقدت أن مثل هذه الأمور تتطلب أجواء أخرى وظروفًا أخرى. لكن شيئًا ما لم يكن يسير جيدًا. ماذا كانت مشكلتي معها؟ لماذا لم أكن مُتحمسًا لفكرة أن أكون أبًا؟ «إننا متزوجان منذ أربعة أعوام، وسننتهي من دفع أقساط الشقة الشهر القادم»، أضافت عندما رأت التعبير على وجهي.

كان المنطق الذي تتحدث به مارثيلا ساحقًا. كنا قد تعارفنا في شقة ابنة عمي إيلبا. أمضينا عامين في الخطوبة. قرض من بنك الإسكان، شقة من غرفتين في راموس ميخيا، شهر عسل في مار دي لا بلاتا، أدوات مائدة جميلة من أمبوريو دي لا لوثا. كانت الخطوة التالية هي التي تقترحها علي، إن كانت تلك الجملة التي قيلت بنبرة تقريرية يمكن أن تُعتبر اقتراحًا. كنت أنا الشخص التائه. كانت هي العقلانية.

لم يمكنني الرَّد سوى ببعض العبارات المراوغة. احترمت مارثيلا تلك

المسافة. لا أعرف إن كان هذا ليأسها أو لبرودها أو لاعتيادها. قالت إنها تنتظر ردي عندما أرغب في هذا. وحتى اليوم يهجم علي، من حين لآخر، اليقين المثير للضيق من أنني فقدت فرصة إنجاب ابن. أوشكت على كتابة «ترك ذريتي» أو «تخليد اسمي». هل هذا هو ما يعنيه إنجاب ابن؟ لن أعرف هذا مُطلقًا. إنه أحد الأسئلة التي سأحملها معي إلى القبر بدون إجابات.

18

في ذلك المساء من أغسطس 1969، عندما التقيت بريكاردو موراليس كنت أؤجل عودتي للبيت، على الأخص لكي لا أجد نفسي مضطرا للإجابة على سؤال زوجتي (أو اقتراحها، أو مبادرتها، أو أي ما كان الاسم) حول موضوع «إنجاب ابن». لم أكن أعرف بم أجيبها، لأنني لم أكن أعرف بم أجيب نفسي قبل ذلك. عندما خرجت من المحكمة في ذلك اليوم لم أستقل أتوبيس رقم 115 في المحطة القريبة، المُطلة على شارع تالكهوانو. عبرت ميدان لابابيه سيرًا، جلست لبرهة تحت شجرة مطاط ضخمة، وعندما بدأ البرد يشتد قررت الذهاب حتى محطة شارع كوردوبا. وصلت إلى محطة أوثنيه مع نوبة المد البشري في السابعة. لم أقلق بسبب هذا، لأنه كان سيفيدني كعذر لترك بضعة قطارات تمر حتى أركب قطارًا يمكنني الجلوس به.

ولأنني كنت أتحرك ببطء أكثر من المشاة الآخرين، تنحيت جانبًا لأتفادى الارتطام بهم وبدأت أسير ملتصقًا بواجهات المحلات الحقيرة التي تملأ المحطة. حينئذ أمكنني التوقف للنظر إلى اللافتات المصنوعة يدويًا والمليئة في الكثير من الأحيان بأخطاء إملائية فظيعة، الإشارة الجادة من عاهرتين تبدأن نوبة العمل. يرى المرء الكثير من الأشياء عندما لا يكون متجهًا لأي مكان. حينئذ رأيته.

كان ريكاردو أجوستين موراليس جالسًا على مقعد مدور عال في أحد مقاهي المحطة، بيديه في حجره ونظرته متسمرة على كتلة الرُكَّاب الذين

يسرعون نحو الرصيف. هل كنت سأقترب منه إن لم يكن قد تعرَّف علي أولًا ورفع يده اليسرى قليلًا مُحييًا؟ على الأرجح لا. لقد قلت من قبل إنه ما أن هدأ ضميري بعد أن لوثت مسيرتي وشرفي القضائي بما كنت أعتبره خدعة جريئة للقاضي والسكرتير، عُدتُ من دون أي شعور بالندم إلى روتين حياتي البسيط المتواضع. رؤية موراليس خارح السياق المُتوقع -أي خارج بنك بروفينثيا أو مقهى شارع توكومان- كان يزعجني، بل ويمكنني أن أقول إنه كان يقلقني.

لكنه رآني. رفع ذراعه ورسم على وجهه ما يشبه الابتسامة. وهكذا اقتربت، صافحته وجلست على المقعد المجاور. حياني قائلًا:

-كيف أحوالك بعد كل هذا الوقت؟

هل يوجد شيء من العتاب في «كل هذا الوقت»؟ اعترضت في داخلي مُفكرًا أن هذا ليس عدلًا. لماذا كان يجب أن ألتقي به؟ لكي أخبره بعدم العثور على جومث، الذي قد يعيش حياته في مكان آخر الآن كفتى ممتاز؟ وأنني فعلت كل ما باستطاعتي؟ نظرت له. لا. لم يكن يلومني على أي شيء. بينما كان ينظر نحو الخارج، بقدميه مستندتين على عارضة المقعد، نظرته هادئة، فنجانه فارغ وبارد فوق كاونتر المقهى خلف ظهره، كان يوحي بذات الشعور المتكرر بالوحدة كما في كل لقاءاتنا تقريبًا.

-ها نحن نعيش -رددتُ بينما ينتابني شعور أنه لا ينتظر إجابتي - وأنت؟ على الأقل كان من المريح أن يستمر الحوار بهذه العبارات المهذبة المعتادة الفارغة لكنها آمنة.

-لا يوجد أي جديد- رمشت عيناه، استدار للخلف قليلًا وتحقق من انتهاء قهوته وعاد ليعطي ظهره للكاونتر. نظر للساعة المغطاة بالشحوم

والمعلَّقة على الحائط المواجه- ما زالت أمامي نصف ساعة حتى أنتهي.

رأيت أنها السابعة والنصف. أي مهمة سينتهي منها في الثامنة؟

-ذلك الشرطي كان مُحقًا - قال بعد صمت طويل- لم يرجع إلى توكومان. حموي متأكد من هذا.

كان موراليس يتكلم بتلقائية حوار لم ينقطع، حيث لا يجب وضع أسماء للأشخاص لأن المتحاورين يعرفان جيدًا لمن تعود الإشارة. «ذلك الشرطي» كان بايث. «حموي» كان أبا المتوفية، «من لم يرجع إلى توكومان» كان جومث.

-أيام الخميس يكون دوري هنا. أيام الاثنين والأربعاء في كونستيتوثيون. الثلاثاء والجمعة في ريتيرو.

من حين لآخر كان يتبع أحد المشاة بنظرته. وأضاف.

-هذا هو ترتيب هذا الشهر. سأغيره في مايو. أغيره شهريًا.

عبر مكبرات الصوت صدر صوت خشن يجرجر الكلمات ويلتهم أصوات «السين» ليعلن عن مغادرة قطار موران السريع في 19:40 من رصيف أربعة. على الرغم من أنني لم أكن أفكر في ركوبه -لم أكن أرغب في السفر واقفًا-، بدا عذرًا ممتازًا لكي أنهض وأودعه. أوقفني صوت موارليس، الذي طرق موضوعه مرة أخرى بدون مُقدمات.

-يوم قتَلَها أعدَّت لي ليليانا شاي بالليمون.

لاحظت أنه صرَّف فعل «قتل» بضمير المفرد، لم يعد يستخدم الجمع أو المبني للمجهول «يوم قتلوها» أو «يوم قُتلت»، ففي رأسه أصبح للقاتل وجهًا معروفًا واسمًا. وأضاف:

-قالت لي «القهوة تضرك، يجب أن تُقلِّل منها». ورددت عليها بالإيجاب.

كنت أحب طريقتها في العناية بي.

شككت أنني لن أفقد فقط قطار الضواحي إلى كاستيلار والذي يغادر في الثامنة إلا عشرة دقائق، وإنما عدة قطارات أخرى. نظرَ بثبات إلى رجل شاب قصير القامة بينما يعبر أمام الواجهة الزجاجية، لكنه استبعده في الحال وأخذ يبحث عن هدف آخر مُحتمل بينما يقول:

-بالإضافة إلى هذا، إن كنت قد رأيتها.... كلما رأى أبي عرضًا لعارضات الأزياء أو مسابقة جمال في التلفزيون كان يقول إن الحكم بأن هؤلاء الفتيات جميلات بالفعل أم لا يجب أن يتم برؤيتهن لدى النهوض من الفراش في الصباح، بدون ماكياج. لم أقل لها هذا مُطلقًا، لكن كان أول ما أفعله كل صباح بعد الاستيقاظ هو النظر لها لكي أتحقق من نظرية أبي. هل تعرف أنه كان مُحقًا؟ على الأقل مع ليليانا.

الصوت البشع في مكبر الصوت أعلن عن قطار 19.55 إلى كايستلار، والذي يتوقف في كل المحطات. تذكرت ملامح المرأة، وفكَّرت أنه لم يكن يبالغ فيما يتعلق بجمالها. كان الوقت متأخرًا تمامًا بالنسبة لي، لم تعد لدى رغبة في النهوض. على الأقل حتى يمكنني وضع اسم للشعور الذي يتشكل داخلي. شفقة؟ حزن؟ لا. كان شيئًا آخر، لكن لم يمكنني تحديده.

-هل تعرف ما هو أسوأ شيء؟

نظرت له. لم أعرف بم أرد.

-أنني أنساها شيئًا فشيئًا.

كان صوته مرتعشًا. لم أرتكب حماقة مقاطعته.

-أُفكر فيها، لا أتوقف عن التفكير فيها طوال اليوم. أستيقظ ليلًا وأسهد بينما أتذكرها. لكنني أميل دائمًا لتذكر ذات الأشياء. ذات الصور. ما هو

الشيء الذي أتذكر إذن؟ أتذكرها هي أم أتذكر الذكرى التي شيدتها خلال عام وبعض العام منذ موتها؟

شخص مسكين. لماذا لا يمكنني الذهاب في تأملي أبعد من «شخص مسكين» الذي كان تصنيفًا بلا قيمة.

-هل تعرف؟ لقد فكرت في الانتحار. أحيانًا أستيقظ في الصباح وأتساءل لماذا أعيش.

في ذلك الوقت كنت أنا أيضًا أتساءل لماذا أعيش. بم يمكنني الرد عليه؟ لكن في ذات الوقت، هل يمكنني الصمت إزاء اعتراف كهذا، إزاء شعور بالضيق كهذا؟ قلت له أول شيء خطر على بالي، وربما كان الشيء الوحيد:

-ربما تعيش لكي تُمسك بابن العاهرة الذي قتلها... -تدبَّرت في كلماتي وشعرت أنني مُجبر على إضافة كلمات أخرى، لكي أنأى بنفسي عن مثل هذا اليقين-، سواء كان جومث أم شخصًا آخر.

تأمل موراليس في إجابتي. بسبب الاعتياد أو مُتَّبعًا طريقة ما، كان يواصل النظر للأفراد الذين يتجهون إلى أرصفة القطارات. في النهاية ردَّ:

-أوافقك على هذا. أعتقد أن هذا هو السبب.

التزم بالصمت وأنا أيضًا. إن كانت الفائدة الوحيدة لبحثه الشخصي هي الإبقاء على حياته، فهو أمر جدير بالاعتبار. على أي حال كانت جهوده تنهار مُقدمًا. إن كان جومث بريئًا لن توجد طريقة لإلقاء التهمة عليه. وإن كان هو القاتل، يبدو لي من الصعوبة بمكان أن يمكننا الإمساك به. لقد عرف الفتى أن الشرطة تبحث عنه، وكان يعرف أيضا أن العثور عليه مستحيل تقريبًا وسط هذا البحر من البشر. بالنظر للأمر من هذه الزاوية، فإن هوس موراليس بمراقبة أرصفة محطات القطارات يبدو سذاجة مثيرة للتعاطف.

وسألت لمجرد الكلام:

-هل ما زلت تعيش في باليرمو؟

-لا. ما زلت أمتلك الشقة، لكنني أعيش في بنسيون في سان تيلمو. إنه أقرب للعمل ولـ..... ولهذا -أضاف مترددًا، كأنما يجد صعوبة في وضع اسم لهذا القنص الغريب.

ودَّعته وقلت إنني سأهاتفه إن ظهرت مُستجدات. بينما كان يشد على يدي نظر للساعة وانتبه إلى أنها ساعة رحيله أيضًا. أخرج ورقة مالية متجعدة وتركها فوق الكاونتر. خرجنا معا، بعد بضعة خطوات فهمت أنه مُتجه إلى الجانب المعاكس. تصافحنا مرة أخرى.

اقتربت من الأرصفة. قام أحد المُحصلين بثقب التذكرة لدى دخولي. كان قطار آخر سريع يوشك على المغادرة، فلوريس، لينيرس، مورون، وبعد ذلك يتوقف في كل المحطات. لم تعد هناك مقاعد شاغرة. رغم هذا ركبت. كنت قد قررت أنني أريد الوصول لبيتي في أسرع وقت ممكن. كنت قد عثرت على اسم، رغم أنه ليس اسمًا نهائيًا، لكل ما شعرت به أثناء استماعي لموراليس.

كان الحسد. الحب الذي عاشه ذلك الرجل كان يثير بي حسدًا رهيبًا، بغض النظر عن الشفقة التي تثيرها المأساة التي انتهى بها حبه. كنت أمسك كيفما اتفق بإحدى الحلقات البيضاء المتدلية فوق الممر، بينما أتأرجح مع حركات القطار، وقررت أنني سأذهب سيرًا حتى بيتي، وإنني سأخبر مارثيلا إننا يجب أن نتحدث، وإنني سأبلغها بقراري بالانفصال عنها. على الأرجح ستنظر لي مندهشة. بدون شك كان هذا القرار يبتعد تمامًا عن التسلسل المنطقي للمراحل التي خططت بها حياتها. كنت سأشعر بالأسف،

لأنني لم أحب التسبب في ألم الآخرين، لكنني أدركت فجأة أنني سأسبب لها ألمًا أكبر ببقائي معها.

عندما وصلت إلى البيت كانت مارثيلا تنتظرني بالمائدة جاهزة. تحدثنا حتى الثانية صباحًا. في اليوم التالي حملتُ بضعة أغراض في حقيبتين وذهبت للبحث عن بنسيون رغم أنني توخيت ألا يكون في سان تيلمو.

19

مرَّ عامان ونصف حتى الساعة 16.45 من يوم الاثنين 23 أبريل من عام 1972، عندما كان قطار متوقفًا على رصيف اثنين بمحطة «فيا لورو». وبعدما ضغط المُحصل ساتورنينو بيتروتشي على الزر انغلقت أبواب القطار أمام سيدة عجوز بدينة، وارتسم على وجهها عدم التصديق. بينما كان يطل بنصف جسده خارج العربة، داعب المُحصل زر المخاطبة مع السائق لكنه لم يضغط عليه. وبدلًا منه ضغط على زر «فتح الأبواب». وانفتحت كل أبواب القطار مرة أخرى بصرير معدني مصحوب بصوت الهواء المضغوط، وقفزت المرأة المبتهجة من الرصيف إلى العربة وسقطت على الفور فوق مقعد شاغر.

المُحصل ساتورنينو بيتروتشي -بزي موحد رمادي وشارب كث يشوبه الشيب وبطن معتبرة- ابتهج لأنه لم ينسق خلف القسوة المجانية بترك المرأة البدينة على الرصيف. كيف خطر بباله أن يأتي بمثل هذا الفعل الحقير؟ الإجابة كانت مُخجلة، لكنها واضحة. خطر له هذا كطريقة للانتقام. ليس من المرأة البدينة التي لم يكن يعرفها، وإنما من العالم بشكل عام. كان يرغب في الانتقام من العالم لأنه كان يلقي عليه بذنب مزاجه المتعكر منذ اليوم السابق، يوم الأحد إن أوضحنا بتفاصيل أكثر. وكان مزاجه المتعكر يعود إلى هزيمة جديدة، لا أكثر ولا أقل، لنادي راسينج كلوب دي أبيانيدا. أي أنه أوشك على إفساد المساء على امرأة مسكينة بسبب كرة القدم. موضوع كرة القدم الأبدي، بتعاسته وبهجته.

كان بيتروتشي يشعر أنه أحمق لشعوره بالمرارة بسبب نتائج فريقه. لكن شعوره بالحمق لم يكن يخلصه من المرارة. العكس تقريبًا: شعوره بالحمق كان يثبط من حالته المعنوية أكثر. ألمٌ هائل، خاصة وأنه غير قانوني، غير مُستحق، قذر. كان حملًا بالغًا لكي يحمله فوق كتفيه العريضين كمُشجع كرة قدم مُحنك. ألن تعود سنوات شبابه مرة أخرى مُطلقًا، عندما كان راسينج قد ملَّ الفوز بالبطولات؟ كان يعتبر نفسه رجلًا صبورًا شكورًا. لم يكن يرغب في أن يكون مثل مشجعي ريفير بلات الذين كانوا يطالبون بالنجاح بعد النجاح لكي يشعروا بالتحقق. كان يكفيه أقل من هذا بكثير. لكن حتى «فريق خوسيه» بدأ يصبح مجرد ذكرى. كم سنة مرَّت منذ هدف كارديناس وكأس العام؟ خمس سنوات. خمس سنوات طويلة. وإن مرت خمس سنوات أخرى؟ وإن مرت عشرة سنوات أخرى بدون أن يُتوج راسينج بالبطولة؟ يا إلهي. لا يريد التفكير في هذا، كأنما التفكير يعني على نحو ما استدعاء الأرواح الشريرة والحظ السيء.

بدأ يوم الاثنين ذاك بكل توابع الهزيمة: عناوين الصحف، المزح في مكتب المُحصلين، النظرة الساخرة لبعض السائقين. كان ذلك الحنق المكتوم، الذي يُقطِّر ببطء، هو الذي أوشك على جعل المرأة البدينة ضحيتَه. نظر عبر زجاج الباب. سيقوم بتسليم هذا القطار في محطة «أونثيه» وسيعود بقطار سريع. تنهد. كان قد استمسك بالقدر الكافي من الهدوء لكي يُخلص المرأة من انتقامه غير المجدي، لكن المزاج العكر ما زال يصاحبه. لا يرغب في العودة للبيت على هذه الحال، لأنه كان أبًا وزوجًا جيدًا. حينئذ اختار التخلص من غضبه بأكثر طريقة شريفة يعرفها: ملاحقة المسافرين الذين تسللوا بدون دفع التذاكر.

بحركة سريعة أخرج المثقاب من حزامه بينما يصيح «تذاكر، اشتراكات

وتصريحات». استند على عامود نحيف في نهاية العربة التي يركبها واستدار نحو الركاب القليلين. كرجل خبير بمهنته، فحص الرجال بنظرة واحدة. من النادر أن تسافر النساء بدون تذكرة. لم يكونوا سوى ستة أو سبعة ذكور، موزعين على المقاعد الجلدية الخضراء. وضع بعضهم أيديهم في جيوبهم. اثنان، على العكس، نهضا وأخذا يسيران في الممر نحو العربة المجاورة. دون تسرع، ثقبَ التذكرة الكرتونية ذات اللونين الأبيض والبرتقالي لأم شابة. لم يكن بحاجة لملاحقة الفارين بنظرته. نظرة واحدة فقط كانت كافية لكي يرى أن أحدهما يرتدي معطفًا. الآخر، قصير القامة وأسود الشعر، كان يرتدي سترة زرقاء. كان القطار يهدئ من سرعته. شكرَ عجوز مدَّ له التذكرة واقترب من الأبواب. وضع المفتاح في اللوحة وضغط على زر الفتح. هبط إلى الرصيف. كان الشيء الوحيد الذي كان يريده في محطة فلورستا هو تحديد مكان الفارين اللذين اختفيا مثل فأرين في البالوعات. عثر على أحدهما في الحال: الفتى الذي يرتدي معطفًا هبط من القطار، رسم على وجهه تعبير الشرود واستند إلى شجرة. منحه بيتروتشي عفوه. كان يكفيه أن ينزل من قطاره. والآخر؟ قصير القامة ذو السترة الزرقاء، أين يوجد؟ شعر بيتروتشي أن الغضب الذي كان يعتمل داخله طوال اليوم يستولي عليه من جديد. هل كان راغبًا في التذاكي؟ ألم تكن تكفيه هيئته المخيفة كمُحصل خبير؟ هل كان يشعر بالأمان لمجرد تغيير العربة؟ هل كان يستهزئ به؟ حسنًا.

أغلق الأبواب. ضغط على زر التقييد. انتظر حتى تحرك القطار وأطلق الباب الذي كان يحتجزه بقدمه. بعد ذلك وضع مثقاب التذاكر ومفتاح التحكم في الأبواب في جيبه. كان يُفضل أن تكون يداه فارغتين. أخذ في السير في الممر، بينما يتأرجح قليلًا بسبب دفع القصور الذاتي. لم يتوقف في العربة المجاورة: بنظرة واحدة أدرك أن المُطارد غير موجود في تلك العربة.

انتقل للعربة التالية. لم يكن هناك أيضا. ابتسم. الابله دخل العربة الأخيرة. صدر عن الباب صرير عندما فتحه فجأة. كان هناك: جالسًا إلى اليسار، متظاهرًا بالهدوء وينظر من النافذة بشرود. سار بيتروتشي منتفخ الأوداج بينما يهز كتفيه. وقف بجواره وغمغم بصوت جاد:

-التذكرة

لماذا كان هذا الأبله يُمعن في التعامل معه كأحمق؟ لماذا هذا الوجه المندهش؟ لماذا هذا الانزعاج المفاجئ والحركات كأنما يبحث في جيبه؟ ويبحث في جيب آخر ويتصنَّع الشعور بالضيق لأنه لا يجد التذكرة، طرقعة باللسان ليتظاهر بالقلق. هل كان يعتقد أنه لم يره يفر من العربة الخامسة قبل فلوريستا؟

-لا أجد التذكرة يا سيدي.

«سيدك، إنه يسخر مني»، فكَّر بيتروتشي. نظر له بحنان وقال بنبرة أب حازم:

-في هذه الحالة يجب أن تدفع الغرامة يا صغير.

حينئذ حدث شيء ما. حسنًا، في الحقيقة دائمًا ما تحدث أشياء. «حدث شيء ما» تعني هنا أن التصرف التالي لأحد المشاركين في الموقف المذكور كان له عواقب هامة لما أحكي في هذا الكتاب. نهض الشاب، نفخ صدره وقطب حاجبيه وتكلَّم بينما ينظر في عيني المُحصل:

-هذا مستحيل أيها البدين الحقير. لأنني لا أمتلك أي شيء.

اندهش بيتروتشي، لكن دهشته كانت مكسوة بالبهجة. هذا الشاب سقط له من السماء. هُزمت الأكاديمية المجيدة بالأمس. صنع معارفه حطبًا من شجرة تعاسته خلال جزء معتبر من يومه. لكن ذلك الشاب العنيد سيء

الطباع كان يمنحه فرصة للتنفيس عن المشاعر القاتمة التي كانت تتملكه. رفع ذراعًا وأسنده بقوة على كتف الفتى:

-لا تتذاكى. ستنزل معي الآن في فلوريس وسنرى كيف ستدبر أمورك لكي تدفع يا قزم.

-القزم في فرج أمك.

تكلَّم الفتى بينما ينظر له بحنق. بعد ذلك سيقول بيتروتشي إنه أخذه على غرة، وهو ما لم يكن صحيحًا تمامًا. كان المُحصل يشعر ويحدس، بل وكان يرغب تقريبًا في أن يثير الآخر شجارًا. لكن اللكمة التي رماه بها الفتى كانت سريعة للغاية وجيدة التصويب فارتطمت بأنفه وأغشيت بصره خلال برهة. هز الفتى يده الموجوعة قليلًا. بعد ذلك سيشخص الأطباء كسرًا في عظام كفه. جاء بمناورة خفيفة للخروج من الممر وتخطي جسد المُحصل الضخم. لكن، عندما أوشك على النجاح شعر بيد قاسية تُمسك بعنق السترة، وبمهارة تجعل ظهره للممر. وبعد ذلك شعر بيد أخرى تمسك به من الخلف، من الحزام، ورفعتاه كلتا اليدين إلى أعلى. في النهاية رأى نفسه مقذوفًا نحو إطار النافذة المصنوع من الألومنيوم، والتي تكسَّرت على جبهته. كان فتى قويًا. رغم فزعه نهض على قدميه بعد أن تحرر من يدي المُحصل اللتين تشبهان الكلَّابة. التفت إليه واشتبك معه. ربما إن كان الرجل ذو الزي الموحد الرمادي أقل وزنًا، أو ربما إن لم يكن قد مارس الملاكمة عندما كان شابًا، أو إن كان فريق راسينج قد فاز في اليوم السابق، لكان الفتى بدون تذكرة قد نجا من الشجار. لكن هذا لم يحدث. لهذا تلقى لكمة رهيبة في فُم المعدة جعلته ينحني، وتبعتها لكمة في الفك جعلت رأسه يدور. وفي النهاية وجَّه بيتروتشي لكمة خطافية إلى بطنه جعلته يذرف الدموع.

في تلك اللحظة توقَّف القطار. سعيدًا وفخورًا بنفسه، تلقى بيتروتشي

بضع تصقيفات من الجمهور القليل الذي حضر الشجار في المسافة بين فلورستا وفلوريس. ثم تعامل مع اللوحة لفتح الأبواب وأخرج الفتى الذي لم يدفع التذكرة بينما يجره تقريبًا من شعره. سار معه حتى المكتب، في الطرف الآخر من الرصيف تقريبًا. وكان بعض الفضوليين يطلون من الأبواب أثناء مروره بينما يسحب الفتى. بحث بيتروتشي عن الشرطي المُكلف بالمحطة. حياه بإيماءة من رأسه وحكى له ما حدث بالتفصيل. وتولَّى الشرطي أمر الفتى. بينما كان يقيد الشاب بالأصفاد إلى مقعد خشبي ظهره مصنوع من قطع خشبية رأسية وقال:

-سنفعل ما يلي. سأرسله إلى قسم الشرطة لنرى إن كانت له سوابق جنائية. لابد أنه لا يمتلك سوابق، لكنني سأفعل هذا إمعانًا في مضايقته. هذا الحقير سيتعلم كيف لا يعود لتجاوز حدوده.

تحسس بيتروتشي أنفه لأول مرة. الآن كانت قد بدأت تؤلمه بشكل حقيقي وردَّ:

-رائع.

سأل الشرطي:

-ألا يجب أن تذهب لكي يفحصوا أنفك؟ تبدو بحال سيئة.

-نعم. في الحقيقة لقد أجاد التصويب، ابن العاهرة هذا.

كانا يتحدثان أمام الفتى الذي كان ينظر للأرض بثبات.

رافقه الشرطي حتى الباب. كان القطار متوقفًا في الخارج. وشعر بيتروتشي بالحاجة لأن يُعبر عن نفسه:

-وكل هذا لكي يبدو كذَكر، هذا التعس. إن كان قد قال إنه لا يمتلك

مالًا، أو طلب بتهذب أن أتركه، هل تعرف؟ ربما لم أكن قد فعلت له أي شيء.

-ماذا سنفعل في هذا!! بعض فتيان اليوم يلتهمون العالم كما ترى.

-يا له من موقف... -اختتم المُحصل.

حيَّاه بإيماءة. أغلق الأبواب ودق الجرس. تأخر القطار في التحرك لبرهة لأن السائق كان شاردًا بعد كل هذا الانتظار. عندما وصل بيتروتشي إلى أونثيه كانت أنفه متورمة وتفوح برائحة الدم. أرسلوه لمستشفى السكك الحديدية لإجراء أشعة وليفحصه الطبيب. «شرخ في عظام الأنف»، قال الطبيب الذي فحص المُحصل. «ألم تفقد الوعي؟» نفى بيتروتشي برأسه، كأنما تحطيم عظام الأنف شيء عادي تمامًا. «اذهب لبيتك. عليك بالراحة خلال أربعة أيام. ستأتي يوم الجمعة لرؤيتي وسنرى كيف أصبحت حالتك».

فَّكر بيتروتشي إنه بدءًا من تلك اللحظة سيُمسك بأحد المتهربين من دفع التذاكر مرة واحدة على الأقل كل شهر إن كان هذا يضمن له مثل تلك الأيام من الراحة. كان مُرهقًا. أخذ القطار في أونثيه بدون المرور على المُفتش. كان يجب أن يُسلِّم الأوراق في مكتب كاستيلار مباشرة، وكان مُرهقًا تمامًا. عندما وصل بشهادات المستشفى، خرج بعض زملائه للقائه.

-ها هو المأمور sheriff، افسحوا الطريق -قال أحد زملائه مُستظرفًا.

-لا تثر أعصابي يا أبالوس -قاطعه.

-أنا جاد يا رجل. ألم تعرف؟

-ماذا؟

-الفتى الذي أمسكته. الذي تشاجر معك.

-نعم؟ ماذا حدث له؟

-أنت تعرف أنهم قد أبقوه في فلوريس للتحقق من السوابق الجنائية...

-ماذا؟ لا تقل لي إن الأحمق له سابقة ما..

-سابقة ما؟ كان قد صدر بحقه أمر توقيف أو شيء كهذا، ابن العاهرة هذا. أمر صادر من محكمة في العاصمة، بسبب جريمة قتل وأشياء كهذه...

-انظر كيف تسير الأمور - كان بيتروتشي مندهشًا بشكل حقيقي. مندهش وبشعور قديم بالخوف. وإن كان يحمل سلاحًا؟

-وكما ترى، فقد أصبحت الآن كذارع لتطبيق القانون -قاطعه آخر.

-توقف عن الترهات يا زيمرمان. بهذا الوجه الذي يشبه الخروف وأمر للتوقيف بسبب جريمة قتل؟ هل يمكن أن يكون هؤلاء الفتية من قوات مونتونيروس المناهضة للديكتاتورية أو شيء كهذا؟ أنا ذاهب لبيتي. أنا مرهق تمامًا.

تبادلوا بضع تحيات فاترة. بينما كان يسير حتى محطة أتوبيس رقم 644 ذي اللافتة البيضاء المكتوب عليها «هايدو حي سيريه»، فكَّر بيتروتشي أن نهاية اليوم ليست سيئة على الرغم من كل شيء. كان قد نفَّث عن غضبه مع ذلك الأحمق. حصل على أربعة أيام من الراحة، والتي ستفيده بشكل رائع في إنهاء بلاط الغرفة الداخلية. أنفه لا تؤلمه تقريبًا لأنه تناول مُسكنات تكفي حصانًا، حسب ما قال الطبيب. وبالتأكيد سيصبح راسينج بطلًا مرة أخرى آن عاجلًا أم آجلًا. كم من الوقت يمكن أن يمر لكي يحدث هذا؟

جلس في الأتوبيس. تحسس الورقة التي أعطاها له أبالوس والتي كانت في جيبه. «اسم الفتى»، قال له. لم يعر الأمر اهتمامًا في لحظتها، لكنه يشعر بالفضول الآن. فضَّ الورقة: «إيسيدرو أنطونيو جومث». كوَّر بيتروتشي

الورقة وتركها تسقط على أرضية الأتوبيس المتسخة. بعد ذلك استراح في جلسته كأنما لينام بضعة دقائق، مع الحرص على عدم إسناد أنفه على النافذة، لأن الألم سيجعله يرى النجوم في عز الظهيرة، وربما تنزف مرة أخرى.

20

عندما أصبح أمامي عدت للشك في أنني شيدت ناطحة سحاب على أساس من الدخان. هل يمكن أن يكون هذا الفتى ذي التعبير الهادئ الواقف أمامي مُذنبًا؟ كانت ساقاه منفرجتين قليلًا في وضع مريح، كأنما لم يكن متأثرًا بيديه المصفدتين خلف ظهره.

يبدو على وجوه الكثير من الموقوفين آثار الانصياع لإرادة أشخاص آخرين بعد يومين أو ثلاثة من العزلة وانعدام الحركة تقريبًا، ولشعورهم بالتقزز من طعام السجن، ومن اتساخ أجسادهم، بدون أي نشاط بينما يتراكم توترهم في الزنزانة.

لكن هذه لم تكن حال إيسيدرو أنطونيو جومث. بالطبع كانت آثار الحبس الذي خضع له منذ يوم الاثنين باديةً عليه: الرائحة العفنة لاتساخ الأجساد البشرية، اللحية النابتة، الحذاء غير المربوط. هذا بالإضافة للجبيرة في يده اليمنى والكدمة المائلة للون الأخضر فوق حاجبه الأيمن كعاقبة لشجاره مع المُحصل العدواني في شركة سارمينتو للسكك الحديدية.

كان الشك يلتهمني. هل يمكن لشخص ما أن يكون على هذا القدر من الهدوء مع درايته بأنه مُتهم بجريمة قتل؟ بل وربما لا يكون على دراية بسبب إحضارهم له لآخذ أقواله في المحكمة. ربما كان يعتقد أن كل هذا مجرد إجراءات، مبالغ فيها إلى حد ما، مُتعلقة بسفره بدون تذكرة والعراك مع الشخص المسئول عن منع هذا السلوك. قلت لنفسي لا: من بعيد يمكن ملاحظة أنه فتى ذكي. لابد أنه مُدركٌ أن وجوده هنا لسبب آخر. لكن، كيف

يمكن تفسير تورطه في هذه القضية الفظيعة إذن ؟ وانتهيت إلى أنه إما أن يكون بريئًا أو ابن عاهرة لا مشاعر له على الإطلاق.

كانت رأسي تعمل بسرعة ألف كيلومتر في الساعة: إن كان بريئًا.... لماذا اختفى منذ نهايات 1968؟ وإن كان مذنبًا.... لماذا ترك نفسه لكي يمسكوا به في واقعة تافهة؟

كان خبر إلقاء القبض على جومث ينتظرني في اليوم التالي في الإدارة. بايث شخصيًا أكد لي هذا هاتفيًا. كنا قد اتفقنا على تركه في حالة انتظار طوال يومين أو ثلاثة، حتى الخميس، بشكل خاص لكي أتوفر على وقت لأفكر كيف يمكنني التعامل مع أقواله، ولكي أتحدث عن الأمر باستفاضة مع ساندوفال. هل كان لدي شخص آخر بنصف قدرته على إصدار الأحكام الصائبة؟

خلال هذه السنوات الثلاثة لم تتغير أمور كثيرة في المحكمة. كنا قد تخلصنا من السكرتير التعس بيريث (الذي ترقى إلى محام عمومي)، رغم أن رحيل رئيسنا ترك لنا مذاقًا مرًا عندما تأكدنا أن درجة ما من الغباء الوراثي، كما كان هو ذاته يتفاخر بهذا، تبدو ضامنةً للترقي السريع في السلك القضائي. لم يكن حظنًا سعيدًا إلى هذه الدرجة مع الدكتور فورتونا لاكايه. ما زال قاضينا وما زال أحمق. والأسوأ من هذا أننا أصبحنا في 1972، وصداقة أحد أصدقاء أونجانيا لم تعد رافعة ناجعة في الطريق نحو مجلس الاستئناف. إن كان فورتونا قد عجز عن القيام بهذه الانطلاقة في عز نجومية الجنرال ذي الشارب الكث، فقد أصبح هذا مُستحيلًا الآن. هكذا ما زال يرعي في منصبه كالعادة. الخبر الجيد أنه تخلى عن محاولاته البشعة للتألق أمام رؤسائه. كان يتركنا نعمل، يُوقع حيث نشير له ولم يعد مهووسًا بذهاب نواب المديرين التابعين له إلى مسارح جرائم القتل. كان هذا حظًا سعيدًا، من بين أسباب

أخرى لأن الجثث أصبحت فائضة عن الحد في الأرجنتين في ذلك الوقت.

لكل هذا، وبسبب ما كان ساندوفال يُطلق عليه بسخرية «تيتُمنا من القادة الأكفاء»، جلست معه لإعادة قراءة القضية، والتي ظلت جامدة منذ ديسمبر 1968، قبل ثلاث سنوات ونصف، تحديدًا بعد إصدار أمر التوقيف الذي تم تنفيذه يوم الاثنين في محطة فلوريس.

ساندوفال، الذي كان يعبر بإحدى أطول فترات الابتعاد عن الخمر منذ عرفته، قال بمنطق حاسم:

-هل هو مذنب؟... لا أعرف يا بنجامين؛ إن لم يضع حبل المشنقة بنفسه حول عنقه في أقواله، فلا يوجد أمامنا أي شيء يمكننا أن نفعله.

كان هذا حقيقيًا بشكل مؤلم. ماذا نملك لكي نحمله إلى محاكمة على جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد؟ اتهامات أرمل بإرسال خطابات تهديد لا وجود لها (اتهامات زائفة إن توخينا الدقة، لأننا اختلقنا هذا خوفًا من غضب فورتونا بسبب أوامر الشرطة). بضعة تحريات للشرطة أرسلها لي بايث، وتؤكد على أن جومث هجر مكان إقامته وعمله قبل ساعات من توجيه الشرطة لهذه الاتهامات له. بطاقة التوقيع في العمل والتي يظهر فيها أن المتهم وصل إلى العمل متأخرًا للغاية يوم مقتل ليليانا إيما كولوتو دي موراليس. كل هذا مجرد هراء. لم يكن لدينا أي شيء مُطلقًا. وحتى أكثر المحامين بلاهة سيلغي الحبس الاحتياطي بالاستئناف عليه أمام المحكمة. ويجب أن نذكر أيضًا أن هذا سيحدث إن استطعنا الحصول على توقيع فورتونا على القرار.

أعتقد أن كل هذه الأسباب لم تجعلني أتحمل مشقة مهاتفة موراليس. لماذا أبلغه بهذا؟ لكي يرى كيف نجد أنفسنا مضطرين لإطلاق سراح المُتهم

الوحيد الذي أمكننا التعرف عليه طوال ثلاث سنوات؟ هل هو ذات المتهم الذي كان يبحث عنه في محطات القطارات في نوبات دورية في الأمسية من الاثنين إلى الجمعة؟ رغم أنني متأكد من هذا.

أمرت بإحضار جومث إلى مكتب السكرتير الذي كان خاويًا. لم يكن قد صدر قرار بمن سيحل محل بيريث، وكان سكرتير الدائرة رقم 18 يُوقع على القرارات مؤقتا. كنتُ أفضل عدم وجود الكثير من الشهود. لماذا؟ لم أكن أنا نفسي أعرف السبب، لكنني لم أرغب في وجودهم. وهكذا أعطيت الأمر بألا يقاطعنا أي شخص. دخلت ذلك المكتب بعد جومث والحارس الذي كان يمسك بذراعه. طلبت منه أن يفك قيوده. جلس جومث أمام المكتب وقد وضع ساقه اليمنى فوق اليسرى. «إنه واثق من نفسه، ذلك الحيوان»، فكرتُ. لم تكن رؤيته هادئًا هكذا بادرة جيدة.

في تلك اللحظة سمعت كيف ينفتح الباب الخارجي في المكتب المجاور وتحية «صباح الخير» مُنغمة جعلت شعري يقف. لا يمكن. لا يمكن. أطل ساندوفال برأسه في المكتب الذي كنا نشغله وكرر التحية المبتهجة مصحوبًا بابتسامة عريضة. رغم أنه اختفى في الحال في الصالة العمومية، إلا أننا ظللت أنظر خلال برهة إلى حلق الباب الذي أطل منه. «اللعنة عليه وعلى أمه»، قلت لنفسي. كان ثملًا. شعره غير مصفف، لحيته غير محلوقة، يرتدي ملابس اليوم السابق، وجزء من القميص خارج البنطلون. لسبب ما جاء لتحيتي بشكل عابر. رغم أنني لم أره سوى لحظة واحدة، كانت كافية لكي أتحقق من هذه الحالة لرؤيته هكذا بشكل متكرر خلال سنوات طويلة من العمل معا. حاولت تذكر عصر اليوم السابق. ألم أطل من النافذة ورأيته يتجه إلى بيته بدلًا من الذهاب إلى بارات حي باخو؟ أم أنني لم أفعل هذا لأن رأسي كانت مشغولة بأمر اليوم؟ هذا لا يهم. لقد انتهى أمرنا.

وضعت ورقة بشعار القضاء داخل الآلة الكاتبة التي حملتها من مكتبي إلى هناك. لم أكن راغبًا في تغيير عاداتي البسيطة. «في بوينوس أيرس، في اليوم الثاني والعشرين من شهر أبريل في عام 1972 ...».

توقفت. كان ساندوفال يقف في حلق الباب، كأنما ينتظرني. صعقته بنظرتي. لا يمكن أن يكون راغبًا في المشاركة في آخذ الأقوال بينما يوجد على هذا الحال... بما أنه قد أصبح تعسًا لدرجة إهدار سبعة شهور من الامتناع عن الخمور، وبما أنه لم يهتم بإفساد أمر كهذا بينما يعلم أهميته الشديدة لي، وبما أنه كان على حال لا يسمح له بنطق ثلاثة كلمات تحتوي كل منها على أكثر من مقطعين، كان يجب على الأقل أن يلتزم بالصمت ويتركني أفعل ما يمكنني مع جومث. إما أنه فهم إشارتي أو أن الدوار قد دفعه للجوء إلى مكتبي. لكنه رحل.

نظرت إلى جومث والحارس. ظلا بمنأى عن الموضوع وعن توتري المتزايد. على الرغم من كل شيء يجب أن أعترف أن ساندوفال كان يدخل نوبات ثمله بشيء من الكبرياء والكرامة. لا يوجد فواق، لا يتمايل أثناء سيره بين المكاتب والمقاعد. بحد أقصى كان مظهره الخارجي يشبه شخصًا محترمًا اضطر لقضاء الليلة في العراء لأسباب خارجة عن إرادته.

قررت الابتعاد عن اللف والدوران والانخراط في أقوال جومث. كنت قد قررت مواجهته بشكل خشن، كأنما هو مُذنب. على أي حال لم يكن لدي ما أخسره. طلبت بياناته الشخصية بأقصى ما استطعت من نبرة صوت باردة ومُهددة، وأخبرته بسبب الحصول على أقواله. أخبرته بحقوقه وأطلعته بخطوط عريضة على موضوع القضية. بينما كنت أتكلم، كنت أدق على الآلة الكاتبة، ذات الآلة التي أسجل عليها اليوم تلك الذكريات. توقفتُ عندما انتهيت من المُقدمة. الآن أو ستضيع الفرصة للأبد.

-أول سؤال يجب أن أوجهه لك إن كنت تعترف بوجود علاقة تربطك بأحداث القضية التي يتم التحقيق فيها.

«وجود علاقة» كان تعبيرًا غامضًا إلى حد كبير. إن زلت قدمه قليلًا وترك لي شيئًا أعتمد عليه. لكن لم تكن لدي آمال كبيرة في هذا الصدد. التعبير على وجهه كان يمكن أن يعني أشياء كثيرة، أو لا شيء. لكنني متأكد من أنه غير مندهش. تأخر في الرد، وعندما فعل هذا تحدَّث بهدوء:

-لا أعرف عمَّ تحدثني.

حسنًا. كان هذا هو كل شيء. ملك أو كتابة. لم يعد هناك ما يمكن فعله. لقد حاولت. بل وتسرَّعت في طلب إحضاره من الحبس قبل وصول المحامي العمومي المُكلف، لربما عنَّ له أن يساعده بنصائحه. لكن كان واضحًا تمامًا أن الأمر لا يخرج عن تفسيرين: إما أن جومث لا يعرف أي شيء عن الموضوع، أو أنه يدرك أن عنقي في يده ولا توجد لديه أي نية لإطلاقه. كان سيكتفي بالمقاومة، بنفي كل شيء، حتى أشعر بالضجر وأطلقه.

حينئذ دخل ساندوفال بحاجبيه مقضبين، كأنما ليركز نظرته. اقترب مني ومال على أذني

-هل رأيت قضية سولانو يا بنجامين؟

تحدث بصوت عال، صارخًا تقريبًا، كأنما تفصله عن أذني عشرون مترًا وليس عشرة سنتيمترات.

-إنها تنتظر التوقيع - أجبت بحدة.

-شكرًا. قال ثم خرج.

واجهت جومث مرة أخرى. لم أكن قد سجلت نفيه القاطع في أقواله. ولم

أكن أرغب في فعل هذا بعد، لكن كيف يمكنني المواصلة؟ كنت قد جرَّبت الهجوم المباشر ولم يفلح. هل يستحق الأمر عناء اللجوء لطريقة غير مباشرة؟ أم أنني كنت أتهم شخصًا مسكينًا ظلمًا.

-لنر يا سيد جومث -أشرت للقضية الموجودة فوق المكتب- لماذا تتخيل أننا أبقينا عليك في الحبس طوال أربعة أيام بسبب أمر توقيف صادر في عام 1968؟ من أجل هذا فقط؟

-حضرتك من يعرف هذا .... -وبعد برهة توقف-: أنا لا أعرف أي شيء.

لأول مرة أشعر أنه يكذب. أم أنها كانت رغبتي في موت القضية للأبد؟

ساندوفال مرة أخرى، ذلك التعس. كان قد عثر على قضية سولانو اللعينة وأتى بها مزهوًا.

-لقد عثرت عليها -وضعها أمامي-. ألا تعتقد أنه يجب استدعاء المُثمن الذي وضع سعرًا للبناية قبل حفظ القضية؟ وهكذا نصيب عصفورين بحجر واحد.

هل كان يستفزني لكي أنهال عليها ضربًا؟ كان هذا هو الانطباع الذي يوحي به. ألم يكن يدرك أنني أحاول محاصرة المتهم؟ وأن الأمر كان يشبه محاصرة ذبابة في مخزن مساحته عشرين في ثلاثين مترًا. لا. لم يكن يدرك هذا بينما يعاني من مثل هذه الحالة من الثمل.

اكتفيت بالرد:

-افعل ما تشاء.

خرج مزهوًا. عندما التفت إلى جومث تخيلت أنني أرى في ابتسامته

الخفيفة، أن حالة ثمل زميلي قد أنعشته. لا يمكنني أن أترك له زمام المبادرة، قررت هذا. لكن المركب كانت تغرق ولم أكن أعرف كيف أخرج من هذا الموقف. لم أكن قد كتبت كلمة واحدة: سواء أسئلتي الغبية أو إجاباته المتوقعة. قررت المغامرة بكل شيء. في كل الأحوال لم يكن لدي ما أخسره...

قلت له إننا لا نعتقل الناس عشوائيًا، وأنه يعرف هذا بالطبع. وإننا نعرف جيدًا أنه كان جارًا زميلًا للضحية. وأنه أتى من توكومان قبل قليل من زواج الفتاة، وكان ممتلئًا بالحنق والغضب. وأن يوم الجريمة هو اليوم الوحيد الذي وصل فيه متأخرًا للغاية إلى العمل، وأنه تبخر دون أن يترك أثرًا عندما بدأت الشرطة في تحرياتها في الأوساط التي تعرفه.

انتهى الأمر. كانت الورقة الأخيرة في اللعبة. احتمال لصالحي مقابل كل الاحتمالات الأخرى ضدي. أن ينزعج، أن يندهش، أن يحدث له الأمران معا. وأن يقرر التعاون لحل المشكلة. كنت مُعتادًا على التعامل مع أغبياء، ولأنهم لا يتحمَّلون ضغط الكذب، أو لأنهم رأوا أفلامًا كثيرة يُعرض فيها على المتهمين أحكامًا مخففة إن اعترفوا، ينتهي بهم الأمر بالاعتراف بكل شيء، مما يسمح بإحياء قضايا ميتة. لكن، عندما نظر لي جومث، أدركت أنه بريء أو شديد الدهاء. أو كلا الأمرين معًا. ظل مُتماسكًا، واثقًا وصبورًا. إما أنه لم يكن يندهش إزاء أي شيء أو أنه استعدَّ مُقدمًا لهذه السهام الجارحة.

فجأة تذكرت موراليس. «رجل مسكين»، فكرت في هذا. «ربما كان من الأفضل للأرمل أن يكون قد تعثر في المحكمة بشخص مثل رومانو وليس مثلي. في هذه الحالة لم يكن سيعاني من أي مشكلة. ليلة من التعذيب في قسم الشرطة مع صديقه سيكورا وكان جومث سيعترف بقتل كينيدي إن أردنا. على أي حال كان قد جاء بوجهه مُشوهًا». توقفت للتفكير في هذا. هل كنت على درجة كبيرة من اليأس لكي أرى أن ممارسات ابن العاهرة رومانو ربما

كانت ناجحة؟

شيء ما قطع علي شرودي. بشكل أدق كان شخصًا ما. دخل ساندوفال للمرة الثالثة أثناء جلسة آخذ الأقوال التي كنت أحاول القيام بها. جاء الآن بدون أي ملف في يديه. وكأنما يوجد في بيته، أخذ يعبث في أدراج مكتب السكرتير. بل إنه أزاح كوعي بتهذب لكي لا يرتطم بي الدرج الأعلى على اليمين.

-لقد قلت لك إنني لا أعرف أي شيء -هل كان يسخر الآن؟-. لقد عرفت الفتاة. كنا أصدقاء، وتألمت كثيرًا لموتها.

نظرت إلى الورقة في الآلة الكاتبة، وضغطت عدة مرات على مسطرة المسافة لكي أعدل وضعها. كنت أدق بغضب تقريبًا. «وردًا على سؤال حضرته إن كان يُقر بوجود علاقة تربطه بوقائع هذه القضية، أجاب الشاهد....».

-معذرة على تدخلي يا بنجامين - هل كان هذا حقيقيًا؟ هل كان الثمل الأحمق ساندوفال يقاطعني في مثل هذه الظروف؟- لكن لا يمكن أن تكون لهذا الفتى علاقة بالأمر.

الآن نعم. لقد أفسد الأمر. وإن استعرت سلاح الحارس لأفرغه في جسده؟ كيف يمكن للشراب أن يذهب بعقله وتهذبه لهذه الدرجة؟ كنت على حال من الجنون تقريبًا بينما أحاول التأثير على المتهم بهيئة هادئة للسلطة، ويأتي مُساعدي، الذي كان يسبح في الخمر في الحادية عشر صباحًا، لكي يدافع عنه.

-اِذهب إلى القسم. سنتحدث عن هذا فيما بعد - أمكنني أن أقول دون أن أسبه.

-اِنتظر. اِنتظر. أقول هذا جادًا. أنا جاد فيما أقول - بالإضافة إلى هذا كان يكرر الحماقات القليلة التي يمكنه نطقها-. هل رأيته؟ -كان يشير لجومث بكفه مفرودًا. المُشار إليه، ربما لأنه اهتم بالأمر، نظر له أيضًا-. لا يمكن أن يكون هذا الفتى.

رفع القضية التي كانت موجودة فوق المكتب وجلس على حافته، وبدأ يتصفح الملف.

-مستحيل -أكدَ- اُنظر. اُنظر لهذا. ركِّز.

كان قد فتح القضية حيث يبدأ تقرير التشريح. هل كان يُمعن في مضايقتي عمدًا؟ لأن ساندوفال كان يعرف جيدًا أنني أكره مثل هذه التفاصيل.

-هذه الفتاة، كولوتو : طولها متر وستين سنتيمترًا. تزن اثنان وستين كيلو -قرأ، ودقَّ بسبابته على الجزء الذي يهمه- هل ترى؟- ورسم على وجهه ابتسامة ماكرة وأضاف- الفتاة كانت أطول من هذا الفتى بمقدار رأس تقريبًا.

كان وجه جومث قد اكتسى بالحزن فجأة. أو هذا ما تراءى لي، لأنني كنت قد بدأت أعير انتباهي لمساعدي الثمل أكثر من المُتهم، وهكذا بالكاد رأيت وجهه.

-بالإضافة إلى هذا... -توقَّف ساندوفال عن الكلام بينما يتصفح الأوراق إلى الأمام وإلى الخلف. توقَّف لدى صور مسرح الجريمة-: لا أعرف إن كنت قد نظرت لهذه المرأة جيدًا -أدار القضية نحوي لكي أنظر لها، وحاول أن يركز نظرته علي بعينيه الزائغتين-. كانت جميلة للغاية...

ترك الملف جانبًا مرة أخرى.

-جمال مثل هذا - واصل- ليس بمتناول أي شخص -وكأنما يحدث

نفسه بنبرة مكتسية بالحزن فجأة-: يجب أن يكون المرء ذكرًا قويًا لكي يقدر على مثل هذه الروعة.

-آه، نعم. هذا أكيد!

أدرتُ رأسي. كان جومث هو المُتكلم. كان وجهه قد أصبح جامدًا وعلى شفتيه ارتسم تعبير مفاجئ بالاحتقار. لم يكن يُبعد عينه عن ساندوفال.

-بالتأكيد كان التعس الذي تزوجت منه فحلًا. هذا أكيد.

نظر له ساندوفال. بعد ذلك نظر لي، وهزَّ رأسه قليلًا باتجاه جومث بينما يقول لي:

-لا توجد قضية. المواصفات لا تنطبق على هذا الفتى. هل تتذكر أنك قلت لي بالأمس إن الضحية كانت تعرف القاتل لعدم علامات على العنف في بوابة الشارع؟

«رائع» قلت لنفسي. المعلومة الأخيرة التي كنت أحتفظ بها كورقة أخيرة لألعب بها في الوقت المناسب، ويأتي هذا الأحمق ليبوح بكل شيء.

-وماذا يعني هذا؟

هل يمكن أن يكون مخمورًا لدرجة أنه لم يدرك النبرة القاتلة تقريبًا في صوتي.

-تحديدًا، تحديدًا -أسوأ ما في الأمر أن ساندوفال كان يرى نفسه ماكرًا وواعيًا للغاية، فلا يبدو ممكنًا أن يغفل عن المأساة التي كان يتسبب فيها-. هل تعتقد أن مثل هذه المرأة تمتلك الوقت والمكان في رأسها لكي تتذكر جيرانها في توكومان وتفتح لهم الباب بمنتهى البساطة صباح يوم ثلاثاء بعد أن مرت سنوات كثيرة بدون أن تراهم ولا تفكر فيهم؟ هذا لا يمكن يا

بنجامين، ولا حتى بطريق الخطأ. أقول هذا جادًا.

-وهذا؟ من يكون هذا؟ -كان سؤال جومث موجهًا لي، وبدا عدوانيًا. لم أرد عليه، لأنني في لحظة إدراك بدأت أفهم ما يفعلساندوفال، وأنتبهت إلى أنني أنا المتعثر والمتخبط وليس هو.

-لكن هذا يعني أننا يجب أن نغير وجهة التحقيق بالكامل... -قلت متوجهًا لساندوفال، ولم أكن أتظاهر بالشكوك التي تبدَّت في صوتي.

-بالضبط- كان ساندوفال ينظر لي برضا-. يجب أن نبحث عن رجل طويل القامة. ويمكننا أن نضيف أنه يجب أن يكون وسيمًا أيضًا. لنقل إنه شخص ما قادر على ترك بصمة في امرأة كهذه -فجأة أصبح يتحدث بنبرة مُتحفظة-. ألا يجب أن نبحث بين صداقاتها؟

-توقف عن قول الترهات - كان وجه جومث مُحتقنًا ولم يكن يحيد بعينيه عن ساندوفال. الكدمة فوق رمشه بدت أكثر تورمًا في تلك اللحظة-. يجب أن تعرف أن ليليانا كانت تتذكرني جيدًا.

انتفضت في مكاني. نظر له ساندوفال بنفاد صبر وضيق شخص يدق أحد مساعدي بابا نويل بابه طلبًا لدعمه المالي في أعياد الميلاد القريبة. أصبح جادًا.

-لا تكن أبلهًا يا فتى- ثم استدار نحوي-. وأمر آخر: حسب إشارات التشريح، الشخص الذي اعتدى عليها كان وحشيًا للغاية... شيء ما يشبه فحل الخيل -فتح القضية وقرأ، بالأحرى اخترع ما تظاهر بأنه يقرأ-: «حسب عُمق الإصابات المهبلية يمكن استنتاج أن المعتدي كان شخصًا ذا عضو ذكري موفور الحجم. كما تكشف الكدمات في العنق عن قوة هرقلية في الأطراف العلوية للجاني».

-كما ترى أيها الأحمق! لقد أخذتها جيدًا، تلك العاهرة.

في ثانية واحدة نهض جومث وبدأ يصيح على مبعدة سنتيمترات قليلة من وجه ساندوفال. وفي رد فعل سريع، أجلسه الحارس بضربة واحدة وأعاد تصفيد يديه. أبدى ساندوفال تعبيرًا ممتعضًا، لم يكن واضحًا إن كان هذا بسبب السباب أم بسبب الرائحة القذرة للمسجون. وواجهه مرة أخرى.

-يا فتى -كان التعبير على وجهه مزيجًا من الشفقة والضجر، كأنما طفل شديد الإلحاح يوشك على إنفاد صبره، على الرغم من أنه لا يرغب في عقابه- لا تتوقع شفقة، فقد انتهى حظك السعيد اليوم.

بعد ذلك استدار نحوي، كأنما يرغب في مواصلة عرض نظريته.

-يا لك من بائس تعس. لا يمكنك أن تتخيل ما فعلتُ بتلك الفتاة.- قال جومث.

استدار ساندوفال نحوه. كان يبدو على وجهه أنه يتمسك بآخر ما تبقى له من صبر.

-لنر. ماذا يمكنك أن تقول؟ هيا، تشجع أيها الفحل.

21

تحدَّث إيسيدرو أنطونيو جومث بدون مقاطعة طوال الستين دقيقة التالية. كانت أصابعي تؤلمني عندما انتهى. لكن باستثناء كلمتين بدَّلت ترتيب حروفهما بسبب الإرهاق، سجلتُ أقواله بدون أخطاء تقريبًا. كنتُ أنا من يوجه الأسئلة، لكن كان جومث يتحدث بينما ينظر بثبات إلى ساندوفال، كأنما ينتظر أن ينهار مُتحطمًا إلى قطع صغيرة أو يتحول إلى تراب فوق الأرض الخشبية. وكان الآخر قد بدأ سلسلة عظيمة من التعبيرات: ببطء شديد أخذ يُبدل تعبير الضجر وعدم التصديق الأولي بتعبير آخر يبدو أكثر اهتمامًا باضطراد. بالقرب من نهاية تسجيل الأقوال كان قد شيد قناعًا يبدو أنه يجمع بتناغم، بين الاحترام والدهشة، بل وقدر بسيط من الإعجاب أيضًا. انتهى الأمر بجومث مُتحدثًا بطريقة قانونية تقريبًا عن الاحتياطات التي اضطر لأخذها عندما عرف بعد مكالمة تليفونية مع أمه أن السيد كولوتو الأب مُهتم بمعرفة مكانه.

كان يتحدث إلى ساندوفال كمُعلم خبير وصبور. كان قد استعاد هدوئه، لكنه لم يبد أي نية في الرجوع عن أقواله:

-اغتم رئيس العمال عندما قلت له إنني سأترك العمل. عرض علي توصيات لمعارفه. رفضت بالطبع: كان يمكن للشرطة أن تعثر علي.

أحنى ساندوفال رأسه. نهض بينما يتنهد. كان قد ظل بذراعيه معقودين

ومستندا إلى المكتب طوال ذلك الوقت.

زمَّ شفتيه في تعبير نستخدمه للإقرار بالعجز إزاء أمر بديهي وقال:

-في الحقيقة يا فتى لا أعرف ماذا أقول لك. يمكن أن الأمر كما تقول.

-إنه كما أقول -كانت الخاتمة الكاملة، المنتصرة، الحاسمة لجومث. كانت الدقات الأخيرة على الآلة الكاتبة. أنهيت أقواله بالصيغ المعتادة. وضعت الأوراق واحدة فوق الأخرى وأعطيته قلمي.

-من فضلك، اقرأها قبل التوقيع- أنا أيضًا، بدون أن أعرف السبب تمامًا، كنت أتكلم بنبرة ودودة هادئة شبيهة بنبرة ساندوفال عندما أنهى مشاركته في المشهد.

كانت أقواله طويلة للغاية، بدأت كمجرد ردٍّ على استفسارات وانتهى بها الأمر كاعتراف يضمن انهاء القضية. كنت قد ذكرت صراحةً أن المتهم لم يرغب في استخدام حقه في الصمت أو الاستعانة بمحامي أثناء الإدلاء بأقواله. بسبب إحدى عجائب القدر، لم يكن المحامي العمومي المكلف بالقضية سوى بيريث، الأحمق الأبدي. وقَّع جومث على الأوراق واحدة تلو الأخرى بينما يتصفحها بالكاد. كنت أنظر له، ونظر لي بثبات بينما يعيد لي المحضر. فكرتُ «الآن لتذهب إلى الجحيم. لقد انتهى الأمر الآن أيتها الدمية».

في تلك اللحظة انفتح الباب. كان خوليو كارلوس بيريث بشحمه ولحمه، رئيسنا السابق المترقي إلى محام عمومي. لحسن الحظ كانت مهارتي في معاملة البلهاء أكبر منها في معاملة المرضي النفسيين.

-كيف حالك يا خوليو -استقبلته متظاهرًا بالشعور بالراحة-. لحسن الحظ أنك أتيت. ها هنا الأقوال التي تحولت إلى اعتراف بالقتل مع سبق

الإصرار والترصد. قضية قديمة، تعود للوقت الذي كنت فيه سكرتيرًا.

-آوووه... كانت هناك مشكلة، تأخرت بسبب تحقيق في الدائرة رقم 3. هل بدأتم؟

-في الحقيقة لقد انتهينا- قلت كأنما أعتذر له، أو أستميح له العذر.

كذبت بينما أقول:

-على أي حال لقد استشرنا فورتونا، وقال لنا أن نبدأ في آخذ الأقوال، وفي حالة وجود أي أمر طارئ سيتولى الأمر.

كما يحدث له إزاء أي أمر طارئ يخرج عن روتينه اليومي، لم يكن بيريث يعرف كيف يتصرف. لابد أنه يشك، في ركن ما من عقله، أنه يجب أن يأخذ أي قرار. بدت لي اللحظة المناسبة لكي أعرض عليه حلًا يحفظ ماء الوجه واقترحت:

-لنفعل ما يلي. أضيفك في نهاية المحضر وأكتب أنك حضرت آخذ الأقوال بعد بدايتها مباشرة، وهكذا ينتهي الأمر. هذا إن لم يعترض موكلك بالطبع.

-آه... -كان بيريث مترددا- لأن آخذ الأقوال مرة أخرى شبه مستحيل، أليس كذلك؟

اتسعت عيناي عن أخرهما، ونظرت إلى ساندوفال الذي اتسعت عيناه أيضًا، وفي النهاية نظرنا حائرين إلى الحارس.

-انظروا يا دكاترة -رفعنا الحارس جمعيًا إلى مرتبة الحاصلين على شهادة القانون-: يبدو لي أن الوقت قد تأخر قليلًا. وإن كنتم ترغبون في إرسال الموقوف إلى أحد السجون فإن عربات الترحيلات ستنطلق بعد قليل... لا

أعرف. كما تريدون.

ساندوفال، الذي أصبح مُهتمًا فجأة بالحقوق المدنية للسجين، توجَّه إلى بيريث قائلًا:

-يوم آخر هنا، في الحجز؟ وأن يظل معزولًا؟ يبدو لي هذا تجاوزًا للقواعد يا خوليو.

-بالطبع، بالطبع -كان بيريث يشعر بالراحة بينما يفعل أفضل شيء يتقنه، أي أن يعترف بأن شخصًا آخر مُحق-. هذا، آه... إن كان المُتهم يعتبر أن الإجراءات سليمة...

-لا توجد أي مشكلة- كان جومث ما زال يستخدم نبرة متعالية وعدائية.

مددت الأوراق والقلم لبيريث. قَبِل الأوراق، لكنه فضَّل أن يوقع عليها بقلم باركر جميل يُعتبر من أثمن مقتنياته الدنيوية.

-اذهب به إلى الحجز -أمرتُ الحارس-. سأرسل موظفًا بقرار الحبس إلى المؤسسة العقابية، مع أمر بإرساله إلى سجن ديفوتو.

بينما كان الحارس يقيد يديه من جديد، التفت جومث نحوي وقال:

-لم أكن اعرف أن لديكم هنا مكان للعمل للسكارى الفاشلين.

نظرت إلى ساندوفال. كان الأمر منتهيًا: الاعتراف مُوَقَّع وجومث غارق في غائطه حتى أذنيه. شخص آخر -أنا نفسي، لكي لا نذهب بعيدًا- كان يمكنه انتهاز الفرصة للقيام بانتقام صغير. أن يقول له، على سبيل المثال، إنه سقط كأحمق مغرور. لكن ساندوفال لم يكن مهتمًا بهذه الغوايات. لهذا اكتفى بالنظر إلى جومث بتعبير يوحي بفهم معنى تعليقه. دفعه الحارس دفعة

خفيفة لكي يبدأ السير. صدر صرير عن الباب عندما انغلق المزلاج خلفهما. بيريث أيضًا خرج في الحال، مُتعللًا بارتباطات أخرى لا يمكن تأجيلها. هل ما زالت علاقته الغرامية قائمة مع تلك المحامية العمومية؟

عندما أصبحنا بمفردنا، تبادلت النظرات مع ساندوفال في مصت. في النهاية مددت يدي:

-شكرًا.

-لا شكر على واجب- ردَّ. كان شخصًا متواضعًا، لكن لم يمكنه مداراة راضاه على تطور الأمور.

-كيف كانت تلك العبارة؟ «معتدي موفور العضو الذكري، بقوة هرقلية في ذراعيه». من أين أتيت بهذا؟

-إلهام مفاجئ -ردَّ ساندوفال ضاحكًا برضا.

-أدعوك للعشاء- عرضت عليه.

تردد ساندوفال.

-أشكرك. لكن بعد توتر الأعصاب الذي مررت به، من الأفضل أن أكون بمفردي لبعض الوقت لأستريح.

فهمت على الفور إلام يشير، لكنني لم أجرؤ على أن أقول له ألا يذهب. عدتُ إلى الإدارة وطلبت من أحد المتدربين أن يحرر قرارًا بإرسال جومث إلى سجن ديفوتو، أن يحصل على توقيع عديم النفع فورتونا عليه وأن يحمله. بعد ذلك سيكون لدينا متسع من الوقت لكي نُخبر القاضي بما حدث.

ساندوفال، المُتعجل للرحيل، أخذ سترته وألقى تحية وداع تشمل ظاهريًا كل الحاضرين. قبل ذلك كان قد وضع القميص جيدًا داخل البنطلون.

نظرت للساعة وقررت إعطائه ساعتين من الأفضلية. لا، لتكن ثلاث. بدون أن أنتوي هذا، ألقيت نظرة على رف القضايا التي تنتظر الذهاب إلى المحفوظات العمومية. لحسن الحظ سيكون لدى ساندوفال كمية معتبرة من الأوراق التي يجب خياطتها وبهذا يشغل وقته.

22

في اليوم التالي على الاعتراف ذهبت للقاء موراليس. لم أفكر في الذهاب إليه في البنك أو مهاتفته. كنت أريد لقاءه في ميدان أونثيه. بدا لي أن معرفة الرجل المسكين باعتقال عدوه الوحيد بفضل أحد الألاعيب التي ارتجلتها للإيقاع به أمرٌ هام. على الرغم من عدم توفيقه في مسعاه، كنت متقينًا من إصراره طوال ثلاثة سنوات ونصف في محاولات مستمرة. الذهاب لإخباره بهذا هناك كان يعني جعله شريكًا في الإنجاز البسيط.

كان مقهى المحطة خاويًا تقريبًا. كان صغيرًا للغاية لدرجة أن نظرة واحدة كانت كافية لكي أدرك أن موراليس غير موجود في ذلك المكان. عندما أوشكت على الرحيل خطرت لي فكرة. دخلت المقهى واتجهت إلى الكاشير. كان المالك بدينًا طويل القامة، وكان التعبير على وجهه يوحي بأنه أحد هؤلاء الأشخاص الذين خبروا كل شيء في الحياة ولا ينتظرون مفاجآت من أي نوع.

-معذرة يا سيدي -اقتربت مبتسمًا. دائمًا ما شعرت بالخجل والاضطراب كلما دخلت متجرًا بينما لا أنتوي شراء أي شيء-. أنا أبحث عن فتى عادة ما يأتي هنا، من حين لآخر في الأمسية. إنه أشقر قليلًا. وجهه شاحب للغاية. رجل طويل القامة ونحيف. شاربه مستقيم.

نظر لي البدين. أعتقد أن إحدى المواهب الضرورية لتأجير مقهى في محطة

أونثيه هي القدرة السريعة على تمييز المجانين والنصابين. بدا أنه يستبعدني في صمت من الانتماء لإحدى هاتين الفئتين. أحنى رأسه بخفة ونظر إلى الكاونتر، كأنما يبدأ بحثًا في الذاكرة.

-آه -قال فجأة- أعرف من تعني. حضرتك تبحث عن «الميت».

لم أندهش لوصفه موارليس بهذه الطريقة. لم يكن هناك أي ملمح للسخرية في صوته. ببساطة كان وصفًا موضوعيًا بناءً على شواهد جلية. زبون يأتي كل أسبوع، يطلب ذات المشروب، يدفع بعملات صغيرة، ويقضي ساعتين في صمت، في سكون، بينما ينظر للخارج، يمكن أن يكون كبير الشبه بجثة أو بشبح. لهذا لم أشعر أن هناك غدرًا أو سخرية، أو مبالغة من جانبي عندما رددت بالإيجاب.

-لقد جاء هذا الأسبوع... -تردَّد، كأنما يبحث عن الظرف الذي يربطه بأخر زيارات موراليس. يوم الأربعاء. نعم، كان هنا أول أمس.

-شكرًا. -هذا يعني أنه ما زال يأتي. لم أكن أنتظر شيئًا آخر.

-هل تريد أن أبلغه بشيء ما عندما أراه -أوقفني البدين بسؤاله عندما كنت بجوار الباب.

-لا. لا تشغل بالك. شكرًا. سأعود في يوم آخر -أجبتُ بعدما فكرتُ لبرهة. حييته وذهبت.

في الممر شبه المعتم فاجأني صوت فظ صادر عن مكبرات الصوت. حينئذ انتبهت إلى أن المرة الأخيرة لمجيئي هنا كانت عندما التقيت بموارليس في ذلك المساء، قبل ساعات من إنهاء زواجي.

كنت قد رأيت مارثيلا مرتين أو ثلاث بعد ذلك، عندما وقَّعنا الأوراق في محكمة الأمور المدنية. فتاة مسكينة. حتى اليوم أشعر بالذنب بسبب الأذى

الذي أوقعته بها. ليلة وصلت عازمًا على الرحيل للأبد أحرقتُ الكتالوج الذي كانت قد وضعته لبقية حياتها. حاولت أن أشرح لها هذا. ورغم أنني كنت أخشى جرحها، حدثتها عن الحب، وجرؤت على الاعتراف بإدراكي لعدم وجود حب في زواجنا. «ما علاقة هذا بالأمر؟»، ردَّت علي. أعتقد أنها لم تكن تحبني أيضًا. لكن لم يكن هناك مكان للشكوك في مشروعها. مسكينة، إن كنتُ قد مُتُ لسببت لها متاعب أقل. الجارات لا يعترضن على الأرامل في المحاكم اللاتي يعقدنها لدى مصففي الشعر، لكن، امرأة مُطلقة في 1969؟ كان هذا شيئًا فظيعًا. ماذا ستفعل الآن لتنجب أبناءها الثلاثة بدون زوج شرعي يشاركها المحاولة؟ والبيت ذو الحديقة في الضواحي والسيارة الكبيرة العائلية، وشهر يناير على الشاطئ، وابنها البكر الطبيب. أحيانًا يبدو مدهشًا قدر الألم الذي يمكننا إيقاعاه دون تعمد. في هذه الحالة، أعتقد أنه كان أكبر من التضحية التي رفضت القيام بها لكي أتفادى إيقاع الضرر بها. في ذلك اليوم من 1972، عندما ذهبت مرة أخرى إلى محطة أونثيه، أثقلني الشعور بالذنب، وبعد ذلك الحزن. قلت من قبل أنني لم أرها بعد ذلك مُطلقًا. هل يمكن أن تكون قد عثرت على شخص تستأنف معه طريق الحياة الذي كانت تشعر أنها مهيأة له؟ تلك الحياة التي يجب أن تقودها من دون مفاجآت إلى شيخوخة بدون أسئلة. أتمنى أن يكون هذا ما حدث. فيم يتعلق بي، أو فيم يتعلق بمن كنتُ في ذلك المساء، فقد خرجت إلى شارع بارلتوميه ميتري واتجهت إلى الشقة الصغيرة التي استأجرتها في ألمارجو.

23

في النهاية عثرت عليه يوم الثلاثاء التالي. ذات الشعر الأشقر، ربما أكثر تموجًا منه في لقائنا الأخير. ذات العينين الرماديتين الموحيتين بالإرهاق. ذات اليدين الساكنتين في حجره، بظهره إلى الكاونتر. الشارب المستقيم كما هو. ذات التصميم دون تهاون.

حكيت له كل شيء من البداية. اخترت، أو صدرت عني، نبرة هادئة ومتزنة، أكثر بكثير من النبرة التي استخدمناها ساندوفال وأنا بعد أن أفاق لكي نحتفل بنجاحنا. شيء ما كان ينبئني بعدم وجود مكان لمشاعر مثل الانتصار أو النشوة أو البهجة في تلك اللحظة في ذلك المقهى.

لجأت للتشويق في جزء وحيد من كلامي، وأوردت بعض النعوت بالإضافة للاستعانة بيدي للتعبير، عندما حكيت له عن المداخلة الرائعة لبابلو ساندوفال. وتجاوزت الجملتين أو الثلاث التي حفر جومث قبره بها. لكنني كنت واضحًا بما يكفي في تصويري لطريقة ساندوفال الرائعة التي خدعت جومث وخدعتني أيضًا. في النهاية أخبرته أن القاضي فورتونا لاكايه وقَّع على قرار الحبس الاحتياطي بسبب جريمة القتل مع سبق الإصرار دون أي اعتراض.

عندما انتهيت كم الكلام سألني:

-والآن؟

قلتُ له إن القضية أصبحت مُنتهية تقريبًا فيما يتعلق بالمحكمة الابتدائية. ولكي تكون أكثر تماسكًا سأقوم بإصدار أمر بالحصول على بضعة أقوال إضافية من الشهود، بعض التحريات والفحوصات، بضعة حيل قانونية لكي لا يمكن لأي محام ذكي أن يُعقِّد لنا الأمور. اختتمت كلامي بأننا سنغلق التحقيق بعد بضعة شهور (ستة أو ثمانية بحد أقصى)، وسنرسل القضية إلى محكمة الأحكام.

-وبعد ذلك؟

أوضحت له أن صدور حكم نهائي سيستغرق عامًا أو عامين بحد أقصى. حسب سرعة عمل محكمة الأحكام ومجلس الاستئناف. لكن يمكنه أن يطمئن، لأن يدي وقدمي جومث مقيدة في القضية.

-والعقوبة؟ -سأل بعد صمت طويل.

-السجن المؤبد- أكدتُ.

كان هذا أمرًا شائكًا. هل يستحق الأمر عناء إخباره أن جومث قد يحصل على حريته بعد عشرين أو خمسة وعشرين عامًا بحد أقصى مهما كانت قسوة العقوبة؟ كنت قد كتمت هذا في مرة سابقة. وفعلت ذات الأمر في هذه المرة. لم أكن راغبًا في جرح الرجل الذي أدار مقعده نحوي لأول مرة تقريبًا خلال ثلاث سنوات ونصف، مُتخليًا في النهاية عن مراقبة بحر البشر المسرعين نحو الأرصفة.

كأنه كان قادرًا على سماع أفكاري، التفت موارليس نحو الواجهة الزجاجية. صدر صرير من محور المقعد المرتفع. فكرتُ أن العادات لا تتغير بسهولة. لكن شيئًا ما قد تغيَّر. الآن كان ينظر إلى المشاة دون اهتمام. انتظرت سؤالًا آخر لم يأت مُطلقًا. فيم يُفكر؟ في النهاية اعتقدت أنني أفهمه.

للمرة الأولى خلال أربع سنوات لم يكن ريكاردو أجوستين موراليس يعرف ماذا يفعل بم تبقى من حياته. ماذا يتبقى له الآن؟ فكَّرت أن موراليس لم يعد يتطلع لفعل أي شيء. أو الأسوأ من هذا، أن الشيء الوحيد المتبقي له هو موت ليليانا. بغض النظر عن هذا، لم يكن لديه أي شيء آخر. وحدث شيء آخر للمرة الأولى في ذلك اللقاء: كان موراليس هو من نهض، منهيًا اللقاء. قلَّدته. مدَّ لي يده.

-أشكرك – لم يقل سوى هذا.

لم أرد عليه. اكتفيت بالنظر إلى عينيه ومصافحته بيدي اليمنى. حينئذ لم أفهم هذا تمامًا، لكنني كنت قد راكمت أشياءً لأشكره عليها أيضًا. أدخل يده في جيبه وأخرجها بالفكة المساوية لثمن القهوة ذات اللبن القليل. كان الرجل البدين شادرًا بينما يسمع برنامجًا رياضيًا من موقعه خلف الكاونتر. لم يكن على فطنة تسمح له بإدراك أنه فقد زبونًا في التو. سار موراليس نحو الباب ثم استدار.

-من فضلك، أبلغ تحياتي لمساعدك... ما اسمه؟

-بابلو ساندوفال.

-شكرًا. أبلغه امتناني. وقل له إنني أشكره كثيرًا على مساعدته.

رفع موراليس يده قليلًا وتاه في تيار البشر في السابعة مساء.

انسحاب

وإن كانت هذه هي أفضل نهاية لكتابه؟ أنهى تشابارُّو لقاءه الثاني مع موراليس في اليوم السابق في مقهى محطة بلاثا أونثيه. ويشعر بغواية إنهاء الحكاية التي يرويها. بذل جهدًا رهيبًا لكي يصل بحكايته إلى تلك النقطة. لماذا لا يشعر بالسعادة؟ لقد حكى الجريمة والبحث والنجاح. الشرير في السجن وحصل الطيب على الانتقام. لماذا لا يختتم بهذه النهاية السعيدة؟ نصفُ تشابارُّو الذي يكره الشكوك، ويرغب حتى الجنون في إنهاء هذا الأمر، كان يرى أن الوصول حتى هنا أمر رائع: استطاع، على الرغم من كل شيء، أن يحكي ما انتوى، والنبرة التي عثر عليها ليفعل هذا بدت له مناسبة. الشخوص التي اختلقها تشبه بشكل عجيب الأشخاص من لحم ودم الذين عرفهم. وهذه الشخوص قالت وفعلت، بقدر المستطاع، ذات الأشياء التي قالها وفعلها الأشخاص الحقيقيون. هذا الشطر الحذر في تشابارُّو كان يشك أن استطراده أكثر من هذا يعني خسارة كل شيء، وأن الحكاية ستخرج عن مجراها، وأن الشخوص ستتصرف كما تريد بدون الالتزام بالوقائع، أو بما يتذكر من وقائع، وهو ذات الأمر في هذه الحالة، وهذا كان سيعني ضياع كل شيء هباء.

لكن تشابارُّو يمتلك شطرًا آخر، ورغبات قوية في الانصياع لهذا الشطر. وفي نهاية الأمر فإن هذا النصف من شخصيته هو الذي شعر برغبة الحكي والكتابة وأخذ قرار تدوين كل ما كتب حتى الآن. وهذا النصف يُذكره

طوال الوقت أن الحكاية لم تنته عند تلك النقطة، وإنما استمرت، وأنه لم يحك كل شيء بعد. ماذا يجعله متوترًا وعصبيًا وشاردًا هكذا؟ هل هو ببساطة هو شكه كيف يستمر؟ هل هو التوتر لوجوده في منتصف النهر بدون أن يرى الشاطئ الآخر؟

الإجابة أبسط ما يكون وفي ذات الوقت أشق ما يكون. إنه على هذا الحال لأنه لم يتلق أخبارًا عن إيريني منذ ثلاثة أسابيع. لكن، لِمَ يجب أن يتلقى أخبارًا عن إيريني؟ لا يوجد سبب لهذا. ليسقط رعد من السماء ليقضي عليهم: هي وهو والرواية اللعينة. ويحوم حول الهاتف مرة أخرى، ويشرد عن الكتاب لأن رأسه تنشغل ببساطة بالأعذار الأكثر قابلية للتصديق لكي يهاتفها.

في هذه المرة لا يطول صيامه وأرقه وخموله الأدبي أكثر من يومين حتى يرفع سماعة الهاتف.

-أهلا؟ -إنها هي في مكتبها.

-أهلًا يا إيريني، يُحدثك....

-أعرف من يتحدث -صمت قصير-. هل يمكن أن أعرف أين اختفيت طوال هذا الوقت؟

-....

-هل أنت هنا؟

-نعم، نعم. بالطبع. كنت أرغب في مهاتفتك، لكن...

-ولماذا لم تهاتفني؟ ألا يوجد لديك أي معروف لتطلب مني؟

-لا... أعني نعم... حسنًا، لا يتعلق الأمر بمعروف، ببساطة فكرت إنك قد تتوفرين على شيء من الوقت لقراءة بضعة فصول من الرواية، إن

كنت ترغبين بالطبع...

-هذا يسعدني كثيرًا. متى ستأتي؟

عندما يُنهي المكالمة، لا يعرف تشابارُّو إن كان يجب أن يبتهج لحماس إيريني (وبقرب موعد رؤيتها يوم الخميس ولطريقتها في التَّعرف على صوته قبل أن يقول اسمه)، أم يتعذَّب لعرضه أن يحمل لها بضعة فصول لكي تقرأها. كيف خطر له أن يعرض مثل هذا العرض؟ ليأسه الشديد، لا سبب سوى هذا. يشكُ تشابارُّو في أن أي كاتب جاد سيقبل بعرض أجزاء من عمله.

على أية حال، وهو أمر غريب في شخصيته، يدرك أنه لا يهتم كثيرًا بأن يكون كاتبًا جادًا. إنه مُهتم أكثر بكثير بتناول القهوة مع إيريني يوم الخميس.

24

قضى إيسيدرو جومث شهرًا كاملًا محبوسًا في سجن ديفوتو قبل أن يقرر الذهاب للاستحمام. طوال تلك الفترة أغمض عينيه بالكاد على أوقات متفرقة، ودائمًا أثناء النهار، لأنه كان يقضي الليل جالسًا في فراشه بقبضتيه مضمومتين وعينيه ثابتتين على الفرش الأخرى مُراقبًا جيرانه ليدافع عن نفسه إزاء أي هجوم. كان يقضي معظم النهار جالسًا في ركن منعزل، أو مستندًا بكوعه على أطر النوافذ ذات الأعمدة الغليظة، بينما ينظر دون مداراة إلى زملائه في العنبر. طوال ذلك الشهر لم يتخل عن حذره، ولم يفارق وجهَه تعبير الديك المشاكس المُستعد للعراك.

في اليوم الثلاثين لسجنه اتخذ قراره في النهاية وسار بهدوء، بصدره منتفخ، وحاجباه مقطبان، في الممر الذي يفصل بين صفين من الفرش ويقود إلى الحمامات. اِعتقدَ أنه لمح، برضى، أن اثنين من المساجين يتنحيان جانبًا لكي يفسحا له الطريق.

أكثر هدوءًا وأكثر ثقةً، سار جومث حتى دكة من ألواحة خشبية رمادية وخلع ملابسه. سار فوق الأرض الرطبة للحمام وفتح الصنبور. دفقات الماء الساقطة على رأسه والمنزلقة على جسده بعثت فيه شعورًا مُبهجًا بالراحة.

عندما سمع سعلة خلف ظهره التفت وضم قبضتيه في رد فعل أكثر توترًا وسرعة مما كان يرغب. كان اثنان من المساجين ينظران له من مدخل

الحمامات. أحدهما ضخم الجثة، طويل، دولاب ملابس حقيقي بجلد داكن ومظهر إجرامي لا يمكن إخفاؤه. كان الآخر نحيفًا، متوسط القامة، جلده وعيناه بلون فاتح. كان الأخير هو من تقدَّم بضعة خطوات ومدَّ يده اليُمنى ليحييه.

-أهلًا. في النهاية تزيل القاذورات عن جسدك يا عزيزي. أنا كيكه، وهذا أندريس، رغم أن الجميع يُطلقون عليه اسم كوليبرا.

كانت طريقته في الكلام جديرة بشخص مُهذب ولطيف المعشر. تراجع جومث نحو الحائط بينما يبدو عليه الحذر. وكانت قبضتاه مضمومتين مرة أخرى.

-ماذا تريد؟ -سأله بأكثر نبرة حدة وعدوانية أمكنه أن ينطق بها.

لم يبد أن الآخر قد اعتبر نفسه المقصود، أو ربما أراد التجاوز عن رد الفعل.

-نحن نشبه لجنة الاستقبال يا رجل. أعرف أنك موجود هنا منذ وقت طويل، لكن ماذا تريد. الآن فقط تخفف من توترك قليلًا، أليس كذلك؟

-أخفف خصيتيك.

أبدى الأشقر اندهاشًا حقيقيًا.

-ايه، يا رجل، يا لها من أخلاق! هل يشق عليك كثيرًا أن تكون لطيفًا إلى حد ما؟ لأنك لن تربح شيئًا هنا إن قمت بدور الشرس...

-ما أفعل أو ما لا أفعل أمر يخصني وحدي، أيها اللواطي الحقير.

فتح الأشقر عينيه وفمه دهشة. التفت إلى زميله، كأنما يدعوه للتدخل أو يطلب منه تفسيرًا. أدرك الآخر أنه المقصود وابتعد عن حلق الباب ليتكلم

منتصبًا.

-انتبه لكلماتك يا قصير، وإلا سأجعلك تتحدث من مؤخرتك.

-توقف يا أندريس. لا تحدثه هكذا، يبدو أن المسكين....

لم يُكمل الأشقر كلماته لأنه تلقى دفعة مفاجئة من جومث أطاحت به إلى الجدار وجعلت قفاه يرتطم ببلاطه. أطلق صرخة وانزلق حتى انتهى به الأمر جالسًا. امتلئ وجه صديقه بالغضب الشديد وفي قفزتين أصبح في مواجهة جومث: كان أطول منه بمقدار رأسين.

-سأطحنك ركلًا أيها القزم الحقير.

-القزم في فرج أمك، أيها الأسود اللواطي...

أمكن لجومث أن يقول هذا، لكنه لم يكمل لأن الأسمر أجلسه على الأرض بدفعة قوية، وقبل أن يمكنه التصرف، ركله في صدره ركلةً منعته من التنفس.

حاول جومث الزحف ليبتعد، لكن الأرض المبتلة بالماء المخلوط بالصابون كانت انزلاقية للغاية. بالكاد أمكنه أن يخفي رأسه وصدره بين ذراعيه، متكورًا على نفسه. أمسك الأسمر بإحدى المواسير لكي لا ينزلق وأخذ يركل ظهر جومث بهدوء وحشي كمن يركل كرة على جدار. من حين لآخر تصدر صرخة ألم مكتومة. اقترب العديد من الفضوليين الذين جذبتهم الضجة، وصرخوا للنداء على آخرين. أحد المتفرجين نادى على كوليبرا بصفير. أوصلوا إليه مدية.

-خُذ يا كوليبرا! اقض عليه يا رجل.

أمسك المقصود المدية بحذر لكي لا يجرح نفسه

-توقف يا أندريس. لا تفعل حماقات- كان صوت الأشقر توسلًا يائسًا، بينما يحاول الوقوف على قدميه.

-لا تشغل بالك يا كيكه.

كان صوت الأسمر لطيفًا، حنونًا، به شيء من الرقة، كأنما كان متأثرًا بقلق زميله.

التفت إلى الناحية التي ترك فيها جومث متلويًا من الألم. لكن خصمه انتهز الفرصة ليجلس. كان يمسك بطنه بيديه. كان ظهره يؤلمه أكثر، لكنه لم يكن قادرًا على تحسسه. كان كوليبرا يبدو مترددا إن كان يجب أن يواصل العقاب أم يأخذ برأي زميله. شجَّعه العديد من الفضوليين لكي يطعن السجين الجديد بالمدية.

ربما لأن الركلة التي أطلقها جومث على مستوى عقبه كانت مفاجئة للغاية، لأنها أخذته على غرة، أو لأن قدميه كانتا مضمومتين للغاية فوق الأرض المغطاة بالصابون، سقط كوليبرا إلى الخلف كأنما اختفت الأرض من تحت قدميه. بشكل غريزي حاول الاعتماد على يديه ليخفف من حدة الارتطام الوشيك. لكن لأن اليد اليمنى كانت تمسك بالمدية، عندما ارتطمت بالبلاط غاص نصلها في كفه ومعصمه. حان دوره الآن لإطلاق صرخة مدوية. قفز الأشقر فوقه ليساعده وفي الحال نهض من جديد بيديه والقميص مخضبين بالدم وصرخة رعب تصدر من حلقه.

جومث، الذي ما زال متمددًا على الأرض ورأى كل شيء من الجانب، انتبه لاقتراب بضعة أشخاص مسرعين باتجاهه، لكن غشيت عيناه بركلة جديدة في فكِّه.

25

استيقظ جومث بعد ثلاثة أيام في عيادة السجن واستغرق وقتًا غير قليل ليتذكر من يكون وأين يوجد. عندما رأى الممرض أنه يتحرك استدعى اثنين من حراس السجن، وقاما بإجلاسه دون عناية كبيرة على مقعد متحرك وحملاه إلى منطقة المكاتب التي لم يكن السجناء يدخلونها مُطلقًا.

في النهاية أدخلوه في مكتب حيث كان شخص ما يُدخن خلف مائدة لا يوجد عليها أي شي. كان يدخن تبغًا أسود ويبدو أنه ينتظره. كان أصلعًا، باستثناء الخط الرفيع من الشعر على جانبي رأسه. كان شاربه كثًا ويرتدي سترة داكنة وقميصًا عريض الياقة، بدون رابطة عنق. أوقف الحارسان المقعدَ المتحرك أمام المائدة وخرجا ثم أغلقا الباب. لم يتحدث جومث. انتظر أن ينتهي الآخر من التدخين. لم يلتزم بالصمت بسبب التشوش والدهشة فقط، وإنما لأن حنجرته كانت تؤلمه أيضًا لدى ابتلاع اللعاب، وكان يعتقد أن تحريك شفتيه ولسانه سيؤلمه ألمًا لا يمكن تحمُّله.

-إيسيدرو أنطونيو جومث – قال الآخر في النهاية، بتمهل، كأنما يختار كلماته-، سأشرح لك سبب مجيئك هنا.

كان الرجل يلعب بغطاء الولاعة. لابد أن مقعده مريح للغاية لأنه سمح له بالميل إلى الخلف بما يكفي لوضع قدميه فوق أحد أركان المائدة.

-يجب أن أقرر يا عزيزي، في هذا الاجتماع الودي، إن كنت شخصًا ذكيًا أم أنك أبله لأقصى حد. هذا هو كل شيء.

حينئذ فقط نظر له، ورسم على وجهه تعبير عن الدهشة العميقة، رغم أن كل شيء فيه كان يوحي بالمبالغة في التمثيل.

-اللعنة، لقد حطموك تمامًا يا بني. اللعنة... لكن حسنًا. دوري أن أتخذ قرارًا مُعقدًا، ولكي أتخذ هذا القرار يجب أن أعثر على إجابات للأمر الذي أخبرتك به قبل قليل. هل تفهمني؟

صمت مرة أخرى وفتح الدفتر الذي كان موجودًا على أحد جوانب المائدة، والذي لم يكن جومث قد رآه حتى تلك اللحظة. كان مليئًا بالملاحظات.

-منذ أنقذك الحراس في العنبر وأنا لا أتوقف عن التفكير في قضيتك. ولتعرف أنك خرجت بأقل الأضرار، إن لم يكن كوليبرا ذلك قد جرح نفسه بالمدية، وقام بقية السجناء بالنداء على الحراس طلبًا لمساعدة ذلك الشخص، فإنك يا صديقي كنت ستتقطع تمامًا، كانوا سيتركونك تنزف مثل الخنزير وينتهي أمرك. قد لا تصدق هذا. أنا أعرف قضيتك، رغم أنني لم ألتق بك قبل الآن، لكنني أعرف القضية. حسنًا، على الأقل أعرف الجزء الأول. كان علي أن أقرأ البقية لأعرف التطورات. يا إلهي، يا للمصادفات. هل تعرف تلك المقولة التي تقول إن العالم صغير كراحة اليد؟ قد تبدو بلاهة، لكنني أقتنع بها باضطراد مع مرور الوقت.

قلَّب بضعة أوراق في دفتره حتى عثر على الصفحة التي يبحث عنها. ومنذ تلك اللحظة أخذ يقلبها ببطء شديد بينما يتكلم.

-حسنًا، لنذهب للب الموضوع. موضوع مقتل الفتاة.... يا له من أمر

وحشي، يا رجل، إنه أمر وحشي. لكن هذا لا يخصني. في الحقيقة لا يهمني مُطلقًا. لكنني لاحظت أنك لم تترك أي شيء يدينك في مسرح الجريمة، وعندما حاولت الشرطة الإمساك بك اختفيت من الأماكن التي كنت تتردد عليها. هل أنا مخطئ؟ وقضيت ثلاث سنوات كفتى طيب لكي لا يعثر عليك أي شخص. أُفكر في هذا وأقول: هذا شخص ذكي. لكن بعد ذلك اطَّلع على تفاصيل أكثر وأعرف أنك وقعت في النهاية لأنك كنت تسافر في القطار بدون تذكرة ولأنك تشاجرت مع المُحصل، وحينئذ أقول: هذا شخص غبي. لكن، من جانب آخر، أنتبه إلى أن موظفي القضاء لم يكونوا يمتلكون أي شيء يربط بينك وبين القضية وأقول لنفسي: حسنًا، لا يمكن أن يعيش في حذر طوال حياته. لكنني أستمر في القراءة وأعرف أنك اعترفت بكل شيء بينما كانوا يحصلون على أقوالك، وحينئذ أشعر أنني محق في الاستنتاج أنك غبي لأقصى حد يا صديقي، وأقول هذا بكل احترام وتقدير. لكن، هل تعرف؟ لقد اطَّلعت على أمور أكثر بعد ذلك. لأن عملي هو أن أعرف، هذا هو قدري. أربح عيشي من هذا. وأعرف أنك وصلت سجن ديفوتو وتمضي شهرًا كاملًا بدون أن يحطموا مؤخرتك، وتتولد لدي الشكوك مرة أخرى. هل هذا الفتى شديد الذكاء والدهاء؟ لكنني أعرف بعد ذلك أنك تلقيت زيارة من كوليبرا وكيكه دومينجث، وهما أطيب من الأطفال، وبالإضافة إلى هذا فهما زوجان على رؤوس الأشهاد ولا ينقصهما سوى الخاتم الذهبي. ولا تخطر على بالك فكرة أفضل من التصرف كفتاة عذراء في الخامسة عشر تخشى من الإعتداء عليها، تدفع كيكه المسكين، وتجبر كوليبرا على أن يطحنك ضربًا لكي يغسل العار. ولتدرك أن ما أقوله عن علاقة كوليبرا وكيكه يعرفها كل الناس، حتى العاملين في المخبز الموجود في الناصية. إن لم تدرك هذا بعد شهر من السجن معهما، فإنك تجبرني على إعادة التفكير بشكل متشائم فيما يتعلق بك يا جومث، أي أن أفكر أنك غبي لا رجاء منه.

توقَّف لكي يستنشق بعمق.

-لتضع نفسك مكاني يا جومث. هذا ليس أمرًا بسيطًا. هل أتذكر شجاعتك لمحاولة منع الاعتداء أم سذاجة الشجار مع هذين اللوطيين اللذين لا يوقعان ضررًا أكثر من سلطة طماطم؟ لا أعرف... لا أعرف... لكن من جانب آخر، أعتقد أنك شخص محظوظ للغاية. ألا تؤمن بموضوع الحظ هذا؟ أنا أؤمن به. أعتقد أن هناك أناسًا محظوظين وآخرين غير محظوظين. وبالنسبة لي أنت ولدتَ محظوظًا، ماذا يمكنني أن أقول لك. لنعرض الموضوع هكذا: لقد نجوت عندما قضيت على تلك الفتاة، ونجوت عندما ذهبت الشرطة للإمساك بك، ونجوت عندما أوشكت على الموت هنا. الآن أعرف: إن أردت رؤية الجانب السيئ يمكنني التوقف أمام التفكير أنك وقعت بسبب غبائك في القطار، أنك اعترفت كأبله عندما استفزوك، أنك أخطأت التقدير في العنبر. لكن حسنًا، بغض النظر عن بضعة مرات تتصرف فيها كأبله، ما زلت محظوظًا، هل تفهمني؟ وهذا هام في الأشخاص الذين يختارهم المرء للعمل.

توقف مرة أخرى ليشعل سيجارة. دعا جومث الذي رفض برأسه.

-هل أريد أن أعطيك علامة أخرى على أنك محظوظ بكل معاني الكلمة؟ أنك موجود هنا يا فتى. أنك أمامي، وأنني يمكن أن أصبح رئيسك الجديد. ما رأيك؟ لتر الأمر بطريقة أخرى. أنا بحاجة لأناس جدد وتظهر هنا، أمامي، كأنك قد سقطت من السماء.

نظر له في صمت خلال برهة طويلة وبعد ذلك واصل:

-وأمر آخر يا جومث. أنت لست بحاجة لمعرفة السبب المحدد، لكن... استخدامك يروق لي، لأنني سأنغص حياة شخص نغصَ حياتي من قبل،

هل تفهم؟

هز السجين رأسه نفيًا، كأنما لا يستطيع فهم الطريقة التي تطورت بها الأمور.

-لكن دَع الأمر هكذا. لا تشغل بالك. انس أخر شيء قلته. يجب أن تجتهد كثيرًا لكي تنجز العمل الذي سأكلفك به جيدًا.

أخذ أخر نفس من السيجارة الجديدة. أطلق الدخان نحو السقف. تحسس رأسه الأصلع بيده.

-أعتقد أنك لن تجعلني أبدو كأبله، أليس كذلك؟

قهوة

يعتقد تشابارُّو ما يلي: إن كانت هناك لحظات سامية في الحياة، فهذه اللحظة إحداها.

الشخص المُحب للإتقان الذي يحمله داخله يهمس له أن هذه اللحظة يمكن أن تكون أكثر سموًا، لكن بقية روحه تستبعد الفكرة بسرعة، لأن السعادة، التي ترتدي ثوب الهدوء، تنعسه بنعومتها.

يحل المساء وهو مع إيريني في مكتبها. المحكمة تشبه الصحراء في تلك الساعة. انتهيا من تناول القهوة وتبتسم إيريني بعد برهة طويلة من الصمت، وخلالها عبرت نظراتها الاستجوابية سطح المكتب. دائمًا ما تكون لحظات الصمت هذه غير مريحة، لكن تشابارُّو يستمتع بها كثيرًا على الرغم من هذا.

خلال الشهور الأخيرة شعر أن شيئًا ما قد تحرَّك أو تغيَّر، وليس داخله هو فقط، وإنما على الأخص داخل المرأة التي تجلس أمامه والتي يعرف أنه يعشقها. التقيا عدة مرات منذ الظهيرة الذي قرر فيها تشابارُّو ألا يحضر حفل وداعه ورجع ليطلب منها استعارة آلته الكاتبة القديمة ريمنجتون. يعتقد أنها ست أو سبع مرات. دائمًا مثل اليوم، مع أخر أضواء المساء. في أول مرتين أو ثلاث مرات بحث تشابارُّو عن أعذار لكي لا يكون موقفه مفضوحًا أو مثيرًا للسخرية. بعد ذلك لا. إيريني المباشرة بشكل عجيب، قالت له إنها تبتهج بزيارته، وإنها لا تريد أن يفعل هذا فقط إن كان لديه سببًا

مباشرًا. قالت له هذا عبر الهاتف. يأسف تشباررو على أنه لم ير وجهها بينما تقول تلك الكلمات. لكن، في ذات الوقت يعتقد أنه لم يكن سيتحمل كتمان الحريق الداخلي في أحشائه عندما يسمعها تقول هذا. أي تعبير يمكن أن يضع المرء على وجهه عندما يسمع عبارة شبيهة.

لا تخلف كل عبارات إيريني ذات الشعور العذب لديه. جرؤ قبل قليل على أن يلمح لها أن هذه اللقاءات المسائية قد تفتح الأبواب للقيل والقال. كان يحاول إيجاد تورط أعمق. ردَّت بتلقائية، وتقريبًا بشموخ، وربما من مسافة مؤلمة، بعدم وجود أي شيء سيء في تناول القهوة مع صديق. آلمه هذا التنصيف لأنه يُبعدها عنها، أو يجبره على الرجوع إلى تلك المسافة المُحترمة. في نوبات تفاؤله المتباعدة يقول تشابارُّو لنفسه إن الأمر لا يستحق كل هذا، إنها ربما قالت هذه الكلمات كطريقة لحل اضطرابها المفهوم إزاء احتمالية أن تكون عرضة للنميمة. بالإضافة إلى هذا، فإن النساء يعرفن مداراة مشاعرهن، وكيف يبطلن شحنات المشاعر التي تنفجر، بدون سابق إنذار، على وجوه الرجال. على الأقل يعتقد تشابارُّو أن هذا هو الوضع، أو يرغب في هذا الاعتقاد. كأنما النساء مُجبرات على فهم العالم ومخاطره بشكل أفضل. لهذا قد لا تكون مبالغة أن يفكر أن إيريني، بردها بهذه الطريقة، كانت تحسم صراعًا يفوق قدراته مع العالم المحيط بهما والذي يمتد إلى الكوكب بالكامل، باستثناء هذا المكتب الذي يفوح برائحة الخشب، حيث ابتسمت إيريني على التو بينما لا تشعر بالراحة، وربما تشعر بالخجل.

تشابارُّو يفهم هذا الاضطراب، لأنه يفضح... ماذا يفضح تحديدًا؟ بدايةً أنه أصبح بلا موضوع للحديث. كان تشابارُّو قد حكى لها بالفعل التأرجحات الأخيرة في كتابه. وأطلعته إيريني على أخر التطورات القضائية المضجرة. إن كانا صامتين الآن، إن كان كل منهما يستجوب ذاته في هذا

الصمت، إن لم يكسرا هذا الصمت حيث يستجوب كل منهما ذاته بابتسامة صامتة، فلأنه لا يوجد شيء يبقي عليهما هنا، باستثناء أن يظلا ببساطة جالسين متواجهين، بينما يمر الوقت بدون هدف سوى أن يكونا قريبين، وهو الجميل في البقاء في صمت واستجواب الذات.

26

يوم 26 مايو 1973 ظللت للعمل مع ساندوفال حتى وقت متأخر، ورغم أنني لم أكن أعرف ما يحدث، كانت حكاية موراليس وجومث قد بدأت تتطور من جديد.

كان الوقت ليلًا عندما انفتح باب الإدارة ودخل حارس سجون.

-من المؤسسة العقابية. مساء الخير -حيانا بينما يُقدم نفسه، كأن زيه الموحد الرمادي بالإشارات الحمراء ليس تعريفًا كافيًا.

-مساء الخير- رددتُ- كم الساعة الآن؟

-سأهتم أنا بأمره- قال ساندوفال واتجه إلى مائدة الوارد.

-اعتقدت أنني لن أجد أي شخص هنا. أعني بسبب الوقت المتأخر.

-في الحقيقة.... -قال ساندوفال بينما يبحث عن ختم الوارد لكي يطبعه في دفتر الوصول الذي يحمله وحيث كان يعرض في تلك اللحظة مكانًا حيث يجب أن يُوَقِّع.

-إلى اللقاء - ألقى الحارس التحية بعد أن وضع ساندوفال الختم.

-مع السلامة- رددتُ. لم يرد ساندوفال لأنه كان يقرأ القرار الذي وصل على التو.

-بم يتعلق الأمر؟ -سألته. لم يجيبني. هل كان طويلًا للغاية أم أنه كان

يعيد قراءته؟ كررتُ-: يا بابلو.. ماذا يوجد في هذا القرار؟

التفت بالقرار في يده واقترب من مكتبي. أعطاني الورقة التي كانت تحمل شعار وأختام مصلحة السجون وسجن ديفوتو.

-لقد أطلقوا سراح ابن العاهرة إيسدرو جومث- قال مُغمغمًا.

27

اختلط علي الأمر بسبب ما قال لدرجة أنني تركت الورقة التي كان يمدها لي فوق مكتبي دون قراءتها.

-ماذا؟ -كان هذا هو كل ما أمكنني سؤاله.

سار ساندوفال حتى النافذة وفتحها بجذبة واحدة. دخل هواء الغروب البارد في المكتب. استند على الإطار وأخذ في إطلاق اللعنات بنبرة يائسة لأقصى حد:

-اللعنة على أمه العاهرة...

أول ما فعلته كان مهاتفة بايث، بلهفة يائسة وشيء من الغضب الأعمى طلبًا لتفسير من شخص موثوق به، كأن ذلك الشخص مسئول عما حدث.

-دعني أرى الأمر. سأهاتفك الآن -قال ووضع السماعة.

اتصل بي بعد خمس عشرة دقيقة.

-هذا ما حدث يا تشابارُّو . لقد أطلقوا سراحه ليلة أمس، ضمن قرار العفو الذي صدر لصالح السجناء السياسيين.

-ومنذ متى كان ابن العاهرة هذا سجينًا سياسيًا؟ -صحتُ.

-لا أعرف أي شيء عن هذا. لا تغضب هكذا. أعطني يومين لكي أستقصي عم حدث وسأتصل بك.

-أنت مُحق -عدتُ لصوابي- معذرة. إنني لا أتخيل كيف أطلقوا سراح مثل هذه القمامة، وخاصة بعد كل المصاعب التي تجشمناها للإمساك به.

-لا داعي للاعتذار. هذا الأمر يثير غضبي أيضًا. قد لا تصدق، لكن ربما لم تكن الحالة الوحيدة. لقد هاتفني شخصان لذات السبب. أعتقد أن اللقاء في مقهى أفضل. أقول هذا لكي لا نُطيل الكلام في الهاتف.

-حسنًا. شكرًا يا بايث.

-إلى اللقاء.

أنهينا المكالمة. التفت إلى ساندوفال. ما زال مستندًا إلى إطار النافذة، بنظرته تائهة في مباني الرصيف المقابل.

-بابلو- حاولت إخراجه من شروده.

استدار نحوي.

-أنت تعرف أن هناك أمورًا قليلة يمكن أن يشعر المرء بالفخر بها، أليس كذلك.

استدار مرة أخرى نحو النافذة. أعتقد أنني أدركت حينئذ أن مشاركته الرائعة في اعتراف ذلك الحقير كان هامة للغاية بالنسبة له. وانهار هذا التقدير الداخلي منذ قليل. أدركت أن وجهه المتجه لشارع توكومان كان مبللًا بالدموع. في تلك اللحظة كان تألمي لصديقي أكثر قوة من حنقي لما حدث مع جومث.

-ما رأيك في أن نذهب للعشاء في أي مكان؟ سألتُ.

-فكرة جيدة! -لم يمكنه تفادي السخرية-. هل تريد أن أعلمك شرب الويسكي حتى تفقد وعيك؟ المشكلة فيمن سيأتي ليصطحب كلانا بالتاكسي.

-لا أيها الأحمق. وإن ذهبنا إلى بيتك لتناول العشاء مع إليخاندرا ونحكي لها ما حدث؟

نظر لي مثل فتى طلب الذهاب للسينما ويحاولون إرضاءه بقطعة حلوى. أعتقد أن التأثر الذي رآه في وجهي جعله يعود إلى رشده.

-حسنًا -ردَّ في النهاية.

تركنا القرار فوق مكتبي، أطفأنا التدفئة والإنارة وأغلقنا بكل المفاتيح. هبطنا. كان الوقت متأخرًا لدرجة أن الباب المطل على شارع توكومان كان مُغلقًا، اضطررنا للخروج من تالكهوانو. قبل أن نستقل الأتوبيس، طلب مني ساندوفال الانتظار. جرى حتى كشك زهور واشترى باقة. عندما عاد قال بصوت مرير:

-بما أننا سنتصرف بشكل محترم، فليكن هذا كاملًا.

أحنيت رأسي موافقة. جاء الأتوبيس في الحال.

28

لم أكن قد التقيت ببايث منذ عامين، منذ هدأت هلاوس القاضي فورتونا في الترقي السريع إلى مجلس الاستئناف.

-لنر يا صديقي. انتبه جيدًا لم سأقول. هذه الأيام، بعد أن أطلقوا سراح كل هؤلاء، أصبح سجن ديفوتو غارقًا في الفوضى بشكل لا يمكن تخيله

أحنيت رأسي موافقة. كنت أعرف أن الشرطة لن تفقد الوقت في ملاحقة تلك الفوضى العامة التي كان كلانا يدركها كشيء جوهري في الواقع الذي نعيشه، والذي كنا نقبل تعقيداته التي تفوق إدراكنا.

-يبدو أن الأمور قد سارت على هذا النحو تقريبًا. قمتم بترحيل جومث إلى سجن ديفوتو في يونيو 1972. هل أنا على صواب؟ ووضعوه في عنبر عادي، لا أعرف... لنقل عنبر رقم 7. بعد بضعة أسابيع يثير صديقنا جومث أحد شجاراته: يدخل في عراك أوشك على أن يموت خلاله. في الحقيقة يبدو أنه حاول القيام بدور الشرير مع أقل شخصين عدوانية في العنبر، وطُحن ضربًا.

كنت أسمعه. كنت أشعر بشيء من اللذة بينما أفكر أن جومث كان يعاني لأنه أخطئ في اتخاذ القرارات.

-لكن يبدو أن هناك إلهًا خاصًا يقوم على رعاية جومث هذا. بدلًا من السقوط ميتًا على الأرض بأربعين ثقبًا من طعنات المدية، يجرح أحد السجينين

اللذين هاجماه. وفي الفوضى التالية، ولأن السجناء كانوا يخشون من نزيف زميلهم، ينادون على الحراس ويحملونهما. نجا جومث. لكن لدينا هنا أول شيء غريب... هل تعرف أين تم تسجيل كل ما يتعلَّق بالشجار والجريحين والفوضى؟ إنه غير مُثبت في أي مكان. لم يتم إرسال أي من الجريحين إلى المستشفى. عولجا هناك، في عيادة السجن. لا يوجد أي إجراء إداري، ولا حتى شهادة حارس واحد أو سجين واحد. هذا هو ما لدينا، هذا هو الموجود في سجل جومث، أمر بالنقل لعنبر آخر بعد أسبوعين، عندما يخرج من العيادة. وأنت ستقول: هذا منطقي، لأنهم سيقطعونه إربًا إن عاد لذات العنبر. نعم ولا، كما سترى. إن أرسلوه للعنبر الذي تعرض فيه للضرب من قبل، الآن بينما يعود مهزومًا، قد يتخذه أحدهم عشيقة أو ما هو أسوأ، ويعم السلام. لكن حسنًا، قد لا يحدث هذا. ما حدث أنهم نقلوه إلى عنبر الجرائم السياسية. وهنا أعترف لك أنني أشعر بحيرة شديدة: ما هي العلاقة المُحتملة بين جومث وجريمة القتل العاطفية التي ارتكبها بكل هؤلاء من المنظمات اليسارية ومناهضي الديكتاتورية؟ بالإضافة إلى هذا، كان هؤلاء خاضعين لنظام قضائي خاص، وليس للنظام القضائي الجنائي كالباقين، هل تدرك ما أعني؟ وقلت لنفسي إن جومث لا تربطه أي علاقة بكل هذا.

توقَّف ليُقلِّب ما تبقى له من القهوة وتناوله في رشفة واحدة. كانت الرواسب ضئيلة للغاية، وبشكل مثير للضحك، في مثل هذا الفنجان. كنت أُجهز نفسي لسماعي عَصب الموضوع. كان هذا هو الفارق بين بايث وبقية رجال الشرطة الذين أعرفهم: كان آخرون سيكتفون بالبحث حتى تلك النقطة، حتى حدود قدراتهم المنطقية. لكن بايث ليس هكذا.

-حسنًا -واصل- ما حكيت لك حتى الآن تحرَّيته بسهولة إلى حدٍّ ما. بعد ذلك كان الأمر أكثر تعقيدًا بكثير. أولًا، بسبب ما ذكرت عن النظام

الخاص: لا يوجد لدي معارف كثيرون في موضوع الحرب على العصابات والمنظمات. أنشئوا ما يشبه قبيلة خاصة. يحكمون منطقتهم، كل شيء في غموض وسرًا. لا أعرف إن كنت تفهم ما أقول. وثانيًا، لأنه بعد قرار العفو الصادر قبل أيام، يتم الآن إزالة كل السيرك الذي نصبوه. أصبحوا الآن بلا عمل، حتى الآن على الأقل. لكن حسنًا، وسط هذه الفوضى دائمًا ما يعثر المرء على شخص ما حانق ويشعر بالحنين للماضي، وراغب في حكي خبراته. هل تفهمني؟

رفع يده ليطلب قهوة أخرى.

-تلخيصًا. يبدو أنه تم إنشاء مركز صغير للمخابرات داخل السجن، وكان يتبع الحكومة. الآن يصبح الأمر أكثر غموضًا وتشوشًا. لا أعرف إن كانوا يتبعون المخابرات أم وزارة الداخلية، أو الجيش. لكن هذا لا يهم في حالتنا، لأن كل المتورطين في هذا الأمر مختلطون فيما بينهم، أي ما كان مصدرهم. ما حدث أنه تم إنشاء مركز التجسس هذا داخل السجن لمراقبة «الكوادر» كما يُطلق عليهم في مصطلحات حرب العصابات. كانوا يشعرون بالرعب من أن يحدث لهم أمر شبيه بما حدث في مدينة راوسون، وقت الهروب. هل تفهمني؟

كان هذا الأمر يشبه رواية إثارة، وكان بايث حكاءً ماهرًا، لكنني لم أكن أفهم علاقة جومث بكل هذا. سألته مباشرة.

-نوشك على الوصول يا صديقي، نوشك على الوصول. لكن إن لم أشرح لك هذا، لن تفهم ما يلي. يبدو أن الشخص المُكلف بكل هذا الأمر المُتعلق بمكتب سجن ديفوتو، والذي كان يُطلق على نفسه اسم بيرالتا، حاول زرع بعض رجاله في عنبر السجناء السياسيين. حذار، هذه مخاطرة. ويبدو أن شخصًا أو اثنين تم اكتشافهما عادًا ميتين إلى بيرالتا ذاك. لهذا لم تكن لديه

فكرة أفضل من تجنيد بضعة سجناء عاديين لهذه المهمة. هل يبدو هذا خطرًا؟ نعم. لكنه كان مجانيًا بالنسبة له. في أسوأ الأحوال، سيكون هناك سجين أقل. وفي أفضلها، شاهد مباشر، كأنما يقوم بتركيب ميكروفون للكوادر المشهورة، مثل تلك الأجهزة الصغيرة التي تظهر في أفلام الجاسوسية. هل تفهمني؟ لقد تم تجنيد جومث داخل السجن، وكان المدعى بيرالتا شخصيًا هو من جنَّده لهذا العمل. ليس هو فقط. فيما يبدو كانوا ثلاثة أو أربعة. لست متيقنًا.

توقَّف مرة أخرى بينما كان النادل يضع طلباتنا.

-وهنا تساءلت: لماذا تم اختيار جومث بينهم؟ لأن هذا هو السؤال الصعب. ما يأتي بعد ذلك طبيعي تقريبًا. لابد أن جومث قد أدى مهمته بنجاح: في نهاية الأمر فهو شخص ذكي وبارد كالتمثال، عندما لا يخرج عن أطواره. لا تظهر جواهر مثل هذه كل يوم. لا أعرف إن كان جوهرة أم لا. لكن إن كان قد استمر على قيد الحياة حتى شهر مايو في ذلك العنبر فلابد أن أداءه لم يكن سيئًا تمامًا. ولم لا تتم مواصلة الاستعانة به في الخارج؟ وهكذا تصبح إجراءات إخراجه بسيطة للغاية. في الواقع، لا يوجد مثل هذا الإجراء. إنه يتم تلقائيًا. عندما يتم وضع قوائم العفو، يقوم السجناء الذين يعرفون أنهم سيخرجون بضم جومث أيضًا بمنتهى الأريحية وبكل فخر. وإن لم يحدث، لا توجد مشكلة أيضًا. يضيف رجال بيرالتا اسمه في نهاية القائمة، وانتهى الأمر.

بدا أن بايث يبحث عن النقود لدفع الحساب. منعته وأخرجت بضعة عملات من جيب السترة.

-وهكذا يكون السؤال المُعلق سابقًا على هذا. ما الذي يجعل المدعى بيرالتا يُدخل جومث هناك؟ أولًا، تلفت شجاعة الفتى انتباهه، دخوله بينما يعوي تقريبًا في قفص الأسود. وثانيًا أنه مجاني. لقد قلت لك هذا. إن انتهى

الأمر نهاية سيئة، لن يفقد بيرالتا أي شيء. وثالثا... هل تريد أفضل شيء؟

حسب التعبير المرير على وجه الشرطي، «أفضل شيء» كان في الحقيقة هو أسوأ من كل ما سبق.

-وإن لم يقرر المسئول استخدامه بعد كل ما سبق لن تتبقى لديه أية شكوك عندما يطلب معلومات القضية التي سُجن بسببها. سيدفعه إلى الأمام، بدون تردد. هنا، في القضية الجنائية ذاتها، يوجد هذا الشيء يا بنجامين.

«اللعنة»، فكرتُ، هل الأمر خطير للغاية حتى يحاول التخفيف من أثره بندائي باسمي الأول للمرة الأولى في حياته؟

-استخدام هذا الفتى طريقة رائعة للقضاء عليك.

شعرت بحيرة شديدة. ماذا يمكن أن تكون علاقتي بكل هذا؟ حتى تلك النقطة كانت حكاية بايث تبدو منطقية، مُحبطة لكنها منطقية. لكن هذه الجملة الأخيرة تبدو نشازًا، مثل تلك الكوابيس التي نحلم بها وفي بدايتها لا تبدو كالكوابيس، وتصبح هكذا عندما تتجاوز حدود المنطق والعقل وتصبح غير مفهومة ومثير للقلق.

-عندما أصبحت بلا معلومات لكي يمكنني مواصلة السؤال عن جومث، خطر لي الإمساك بالطرف الآخر من الحبل. الرئيس الشهير هو بيرالتا. كان يُفترض أن الأمر كان سيصبح مُعقدًا إلى حد ما، لأن الأمر يتعلق بمكتب للاستخبارات تابع للحكومة داخل هذا السجن. لكن الأمر لم يكن على هذه الدرجة من التعقيد. لأنهم أرجنتينيون في نهاية الأمر، وبالنبش قليلًا يدرك المرء أنهم صنعوا هذا كله من الأسلاك. بخلاف هذا لن يكن سهلًا الحصول على وصف المدعو بيرالتا واسمه الحقيقي.

أخذ النادل النقود الموجودة على المائدة وتمهَّل في إعادة الباقي، كأنما

ليقنعني بأن أتركه له كبقشيش. صرفته بإيماءة.

-يبدو أنه شخص في سنك يا تشابارو. إنه أصلع، كث الشارب، يُقال إنه شبيه بشاربي، متوسط القامة. في شبابه كان نحيفًا، لكن يبدو أنه أصبح بدينًا للغاية الآن. وهل تعرف؟ لقد عمل خلال سنوات في القضاء، في محكمة ابتدائية. هل خمنته؟

لا يمكن. هذا غير ممكن.

-نعم يا سيدي. يمكنك التفكير في أسوأ الاحتمالات يا صديقي. لقد عمل معك في المحكمة الابتدائية دائرة رقم 41 كسكرتير أول لقسم آخر. بل وتم التحقيق معه بسبب شكوى في عام 1968 لممارسات غير قانونية. لم ينته الأمر إلى أي شيء، فقد تم تجميد كل شيء من فوق. لكن يبدو أن صهره كان من الكبار (عميد، جنرال، شيء كهذا) وفيها يبدو قاده من يده إلى الاستخبارات. هل تعرفه؟ لقبه رومانو.

29

-لا يمكن. كل هذا الحقد.

قلتُ في النهاية عندما أمكنني إدراك ما يحدث، بعد بضعة دقائق من الغضب الاستنكاري.

كان بايث ينظر لي، ربما كان ينتظر أن أقدم له القطعتين أو الثلاث المتبقية لإنهاء اللعبة. ذكَّرته بواقعة عمال البناء والعلقة الوحشية التي تلقياها على يد سيكورا، تقريبًا بأوامر وتوصية من رومانو. استمع لي بايث بمزيج من الدهشة والفضول، لأنه لم يطَّلع على الأمر في حينه. كان في إجازة خلال بضعة أيام تبقت له من إجازاته. وقام سيكورا وابن العاهرة الآخر بتدبير كل شيء في قسم الشرطة. بل إنني لم أكن متأكدًا إن كان سيكورا قد أُحيل للتحقيق أم لا، كما تم مع رومانو في القضاء. أكدت له أن بلاغي ضد زميلي في ذلك الحين انتهى إلى لا شيء. عندما انتهيت من الكلام طلب مني الانتظار لبرهة. ذهب إلى أخر المقهى وتحدَّث خلال بضعة دقائق في الهاتف العمومي. عندما عاد أخبرني أن سيكورا توفى في عام 71، في حادث بطريق 2، وهكذا لا يمكننا التعمق في هذا الأمر.

-باه -أضاف-، في الحقيقة لا يمكننا التعمق في أي شيء في أية جهة.

كان هذا حقيقيًا. مع قرار العفو لم يكن هناك ما يمكن فعله ضد جومث. ومحاولة اختراق المخابرات لملاحقة رومانو كان جنونًا محققًا. كان الاثنان في

أمان.

كان كل شيء هزليًا لدرجة إثارة الرغبة في الضحك، إن لم تكن الرغبة في البكاء لأن كل شيء كان قاتمًا. عندما قدمت بحقه شكوى بسبب الممارسات غير القانونية منحتُه فرصة لترقي مهني بسرعة البرق على يد صهره الفاشي في «قوات الاستخبارات المناهضة للعصيان». وبالإضافة إلى هذا فقد حانت لابن العاهرة فرصة الانتقام مني. كان يعرف أنني توليت أمر تلك القضية وأنهيتها، وعندما يضع الجاني تحت الحماية فإنه يسلبني إياه آن آجلًا أم عاجلًا. فعل هذا، وأنا لم أكن أعرف أي شيء. ليس حتى أصبح الوقت متأخرًا للغاية.

-رجل مسكين.

طفت الكلمتان اللتان نطقهما بايث خلال ثانية فوق المائدة حتى تبخرتا وعاد الصمت. لم أرد، لكنني فهمت من دون هامش للخطأ عمن يتحدث الشرطي. لم يكن يتحدث عن رومانو ولا عن جومث ولا عن نفسه ولا عني. كان يتحدث عن ريكاردو موراليس، الذي ينتهي به الأمر دائمًا كضحية أبدية، سواء مباشرة أم بشكل غير مباشر، من هذه الجهة أو من أخرى، من أول وهلة أو بعد حين. حاولت تخيل وجهه عندما أعطيه الخبر. هل يجب الذهاب لزيارته في البنك أفضل أم مواعدته في مقهى المرات السابقة؟ بم يمكنني أن أرد عليه عندما يسألني «ماذا يمكن أن نفعل الآن؟» هل أخبره بالحقيقة؟ هل أقول له ببساطة، «لا شيء»؟

رميت مكعب سكر في الفنجان وتلهيت برؤية ذوبانه بينما يبتل.

-رجل مسكين – كانت الكلمات الوحيدة التي أمكنني نطقها أيضًا.

30

-إن أردت، أخبرني كيف أطلقوا سراحه -قال موراليس، كأنما لم يعد هناك أي شيء يمكن أن يصل إليه ويؤلمه.

نظرت إله قبل أن أرد. كان ذلك الفتى ما زال يدهشني. رغم أن وصفه بالفتى ربما لم يعد مناسبًا. لم استمررت في استخدام هذا الوصف؟ لأنه مريح بالطبع. دائمًا ما رأيته هكذا. منذ رأيته لأول مرة، في فرع بنك بروفينثيا. حينئذ كان فتى دون شك. كان في الرابعة والعشرين من عمره. لكن الآن، بعد خمسة أعوام، كان استخدام هذه الصفة معه مستحيلًا. وليس لأن شعره الأشقر أصبح أطول. أو لأن الأشخاص الذين نراهم على أوقات متباعدة يكشفون بوضوح عن مرور الزمن، وهو أمر يبدو حقيقيًا أيضًا. موراليس لم يعد شابًا، على الرغم من أن بطاقة هويته تؤكد على أنه لم يبلغ الثلاثين بعد. فتح الألمُ الدائمُ أخاديد عميقة على جانبي فمه، ولم يكن شاربه الأشقر المستقيم قادرًا على إخفائها، وكانت جبهته أيضًا مليئة بأخاديد ثابتة. إن كان نحيفًا دائمًا، فقد تطورت نحافته الآن حتى أصبح يشبه الهيكل العظمي، كأنما الطعام لا يمكن أن يكون متعة كاملة، أو يشبع رغبة بسيطة. كانت عظام الفك بارزة ووجنتاه غائرتين، العينان الرماديتان غارقتان في مقلتين عميقتين. بينما كنت أرى موراليس في مواجهتي، في ذلك المساء من يونيو 1973، أدركت أن قِصر أو طُول حياة شخص ما يعتمد بشكل خاص على تيار الألم الذي يضطر هذا الشخص لاحتماله. يمرُ الوقت بشكل أبطأ على

من يعانون، والضيق واللم يتركان علامات لا تنمحي على الجلد.

كنت أتحدث قبل قليل عن دهشتي أمام ذلك الرجل. في الأيام السابقة كنت قد فكَّرت في أمر استدعائه أم زيارته في البنك. لكنني كنت أحتفظ بذكرى لقائنا الأول نضرة، عندما ذهبت مع بايث لإخباره بما حدث، ولهذا لم أجد في نفسي القدرة على الذهاب لذات الغرض إلى نفس المكان. لهذا اتصلت به واتفقنا على اللقاء في مقهى توكومان في الثانية ظهرًا. تخيلت أنه سيبدي دهشة على الجانب الآخر من الهاتف. أولًا بسبب المكالمة في حد ذاتها: لم نكن قد تواصلنا منذ عام تقريبًا. ماذا يريد إذن نائب سكرتير المحكمة الابتدائية بمهاتفته في المكتب؟ هل يريد تهنئته بعيد ميلاده؟ وبالإضافة إلى هذا يدعوه للقاء في مقهى المرات السابقة. كان موراليس يعرف جيدًا أن الحكم النهائي بعقوبة جومث سيصدر بعد سنتين أو ثلاث، بعد أن يمر على محكمة العقوبات. ولكي أخبره بشيء عادي مثل غلق التحقيق، أو ما شابه، لم لكن هناك معنى للاتفاق على لقاء وجهًا لوجه. ماذا كان أي شخص سيفعل إزاء مكالمة في غير محلها وغامضة؟ لم يسألني، لم يطلب أي معلومة، أو أي إشارة على شاكلة «هل الأمر خطير؟» أو «هل يمكنك أن تعطيني أي معلومة، لكي أشعر بالهدوء؟». لم تكن هذه هي حالة موراليس. استمع لي. شكَّ لبرهة إن كان يستطيع الخروج من البنك مبكرًا في اليوم التالي أم أن الخميس أفضل، وبعد أن تحدث لبرهة مع أحد زملائه، أكد «غدًا مناسب». هذا هو كل شيء. كل شيء حتى تلك الظهيرة الباردة من يوم الأربعاء، عندما لمحته ينتظرني على إحدى الموائد في نهاية المقهى.

-لقد هاتفتك لأن لدي أمرًا خطيرًا يجب أن أخبرك با يا موراليس.

كنت عازمًا على الكلام مباشرة بأسرع ما يمكن. كيف يمكنني أن أكون على درجة من البلاهة بحيث اشعر بالذنب لما حدث؟ ما علاقتي بانتهاء

الأمور بهذه الطريقة؟

-إن كنت ستخبرني بإطلاق سراح جومث، لا تقلق. أنا على علم.

-كيف «على علم»؟

كان رد فعلي مُضحكًا. كان اطلاع موارليس على ما حدث يحيد بي عما رسمته، وكان سيحمل الحوار إلى نقطة لا فائدة منها. لكنني لم أتراجع.

-نعم. لقد عرفت بالأمر.

حينئذ التزمت بالصمت. كيف عرفَ؟

-الأمر ليس صعبًا للغاية يا تشابارُّو - أضاف ببساطة-. لقد نُشرت قائمة بأسماء المعفو عنهم في الجريدة، قبل أيام من إطلاق سراحهم.

-ولماذا خطر على بالك أن جومث قد يكون في هذه القائمة؟

كان موراليس هو الذي يأخذ وقته لكي يرد في تلك اللحظة، كأنما بوغت بالسؤال. لكنه تكلم في النهاية، بتعبير ساخر.

-هل تريد أن أخبرك بالحقيقة؟ ببساطة بتطبيق المبدأ الوجودي الذي تخضع له حياتي.

-...

-كل ما يمكن أن ينتهي بشكل سيء يحدث بشكل سيء. وبالتبعية، كل ما يبدو على ما يرام، آن آجلًا أم عاجلًا، «يروح في داهية» أيضًا.

أليست أول مرة يسمح موراليس لنفسه باستخدام تعبير دارج بينما يتحدث معي؟ ربما كان هذا مقياسًا لعمق تعاسته. شردت في أمر مثير للضحك: تخيَّلت أبوي موراليس، بالسبابة إلى أعلى، بينما يقولان لابنهما

عبارة على شاكلة «يا ريكارديتو، مهما حدث، لا تستخدم كلمات سيئة. ولا حتى إن قام شخص شرير، شرير للغاية، باغتصاب وخنق زوجتك ثم أُطلق سراحه». فقت من هذياني وعدت إلى كلماته. بم يمكنني الردُّ عليه؟ خلال السنوات الخمس التي مرت منذ عرفته يبدو أن كل ما حدث يؤكد كلامه.

-أتكلم جادًا -واصل موراليس-. عندما أخبرتني بالإمساك به، والطريقة التي اعترف بها على جريمته، فكَّرت «حسنًا، لقد انتهى هذا الأمر على نحو ما: سيتعفن في السجن». لكن عندما وصلت لبيتي، أو عندما مرَّت ثلاثة أو أربعة أيام تساءلت: «هل انتهى الأمر؟ هكذا ببساطة؟». لا. هذا سهل للغاية، حتى بعد كل المشاق التي تجشمناها طوال أربع سنوات. وهكذا سألت محام صديق (ربما كانت كلمة صديق مبالغة، لنقل من المعارف)، كيف يسير أمر السجن المؤبد. عندما عرفت أنه بعد خمسة وعشرين عامًا بحد أقصى، وإن أضفنا المراقبة لوقت غير محدود، فإن هذا الشخص يمكن أن يحصل على حريته، وحينئذ قلتُ لنفسي أنني عدت للطريق المعهود. بالطبع، مكوثه في السجن طوال حياته كان أمرًا جيدًا بشكل مبالغ فيه بالنسبة لتوقعاتي المعهودة. لكنني ألفت الفكرة، وانظر ما حدث. قلت لنفسي إن هذا وقت طويل للغاية، إنه الحد الأقصى للفترة التي يمكن سجن شخص خلالها في الأرجنتين، وشعرت بالرضا. وانتبهت لهذا تحديدًا. وفكرتُ « أُنظر يا ريكاردو، إن رضيت بهذا يجب أن تفيق، لأنك ستعرف في أي لحظة أن ما رضيت عنه لن يحدث». هل تفهمني؟

كنت أفهمه. كان خطابًا تشاؤميًا لأقصى حد. لكنه لم يكن يقول أي شيء يشذ عما حدث بالفعل.

-وهكذا عندما عرفت بخروج الكثير من السجناء السياسيين من سجن ديفوتو يوم 25 مايو بقرار عفو، وأن أي منهم لن يخضع للمحاكمة مرة

أخرى بسبب الجرائم التي دخلوا السجن بسببها في تلك اللحظة، وجَّهت لنفسي سؤال المليون بيسو: «النر يا ريكاردو، بأي طريقة أسوأ من هذه يمكن أن ينتهي كل ما يتعلق بابن العاهرة إيسدرو أنطونيو جومث؟» وأجبت على نفسي: «ويمكن للأمر أن يصبح أسوأ. نعم. على الرغم من أن مغتصب وقاتل زوجتك لا علاقة له مُطلقًا بالسجناء السياسيين، فإنه مُدرج في قائمة المنتفعين بالعفو». وهل تعرف؟ هذا هو اليانصيب. ولقد حدث.

انتهى من كلامه صارخًا تقريبًا. كانت عيناه المتسعتان تلمعان ببضعة دموع. بعد ذلك عاد إلى وجهه المعتاد وظل ينظر إلى الشارع خلال وقت طويل. فعلت ذات الأمر. وبعد ذلك، بتلك النبرة المحايدة في صوت من يعرف أنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يؤلمه، ليس لأنه قد نجا، وإنما لأنه قد انهار، قال ما يلي:

-إن أردت، أخبرني كيف أطلقوا سراحه.

حكيت له كل ما أخبرني به بايث. كما أخبرته كيف عرفت بالأمر، عن طريق قرار هيئة السجون. وحكيت له أيضًا رد فعل ساندوفال. لست متيقنًا من السبب. أعتقد أنني شعرت باحتمالية تخفيف الشعور بتخلي الرب أو القدر عنه إن عرف بغضب شخصين شريفين مثل بايث أو ساندوفال. عندما انتهيت من الكلام حلَّ صمت طويل. مرَّ النادل بجوارنا ليقبض من مائدة قريبة وانتهزت الفرصة لطلب قهوة أخرى. عندما سأله الفتى إن كان يرغب في تكرار مشروبه، هزَّ موراليس رأسه نفيًا.

ترددت. كنت أدير الموضوع في رأسي لكنني لم أحزم أمري باتخاذ الخطوة التالية. كنت أخشى من عدم جرأتي مرة أخرى إن فقدت تلك الفرصة. وحزمت أمري في النهاية.

-يشقُّ علي كثيرًا أن أقول هذا يا موراليس... -بدأت مُتخبطًا-. يُفترض أن التفكير فيم سأقول الآن ، أنا تحديدًا، مستحيل بالنسبة لي ، لكن... -كنت أواصل هز زيلي مثل جرو صغير- أعنى أن...

-من الأفضل ألا تقول أي شيء. دع الأمر كما هو. أعرف ماذا تعني.

شككتُ. هل كان يفهمني بالفعل؟

-لنفترض أنك تقول لي «أُنظر يا موراليس: إن كنت في مكانك لقضيت عليه برصاصة واحدة»، وأنا سأذهب وأفعل هذا. ألن تشعر بالذنب بعد ذلك؟

لم أردُّ.

-حذار، لا أقول مذنبًا لأن ابن العاهرة هذا سيموت في النهاية. أعتقد أننا نتفق في أن هذا الفأر لا يستحق بصقة حتى. أتعرف؟ أعتقد أنك ستشعر بالذنب بسببي أنا.

لم أردُّ في تلك المرة أيضًا. لم أكن أعرف ماذا أقول.

-سيكون هذا مُضحكًا. أراهن أنني إن قتلت جومث سيلقون القبض علي بعد دقيقتين وسأدخل السجن مدى الحياة. هل تشك في هذا؟ -التفت إلى الباب. كان رجلًا وامرأة في مقتبل الشباب يدخلان-. أنا لا أشك في هذا مُطلقًا.

شرد بينما ينظر إليهما. بدا أنهما مخطوبان حديثًا، وغارقان في المتعة الكهربائية لاكتشاف أنهما عاشقين. هل كان موارليس يحسدهما؟ هل كان يتذكر ماضيه الشخصي مع ليليانا كولوتو ؟

-لا يا تشابارُّو -استأنف في النهاية-، لا يوجد أي شيء بهذه البساطة.

بالإضافة إلى هذا... -بدا أن موراليس يجد صعوبة في العثور على الكلمات، لكن بدا أيضًا أنه في الأمر مرات كثيرة- لنفترض أنني قتلته. هل أربح أي شيء؟ هل أصلح أي شيء؟

-أعتقد أنك ستنتقم على الأقل -تكلَّمت في النهاية.

ماذا سأفعل إن كنتُ في مكانه؟ بصراحة لم أكن أعرف. بشكل أساسي لم أكن عرف لأنني لم أشعر تجاه أي امرأة بمشاعر موراليس تجاه زوجته المتوفية. أم أنني كنت امتلك هذه المشاعر تجاه امرأة قررت ألا أقول عنها كلمة واحدة في هذه الصفحات؟ ربما إن فكرت فيها، في المرأة الأخرى، والتي احتفظ بها كسري الوحيد الجدير بهذا الاسم، كان يمكنني فهم حب موراليس لزوجته. أعتقد أنني كنت سأجد في نفسي القدرة على فعل أي شيء من أجلها. فضلًا عن هذا، فهي لم تكن لي مُطلقًا، كما كان موراليس وزوجته يمتلك كل منهما الآخر. لهذا لم تكن مكافئة لحكاية موراليس. كانت زوجته حقيقية، لها وجود، تنتمي له وسلبوها إياه. ولأن التفكير في هذا كان فظيعًا، أصررت:

-ربما كانت قتله انتقاماً.

ظل موراليس صامتًا. بحث عن شيء في جيب سترته. أخرج علبة سجائر جوكي من النوع الطويل وولاعة من البرونز. اندهشت لرؤيته مدخنًا ولابد أن لاحظ هذا.

- كما ترى، أنا رجل بطيء في اتخاذ القرارات -قال بابتسامة خفيفة-. أنت لم تكن تعرف أنني أدخن، أليس كذلك؟ قبل معرفة ليليانا كنت أدخن مثل المدفأة. تركته من أجلها. كيف يمكن لرجل أن يشعل سيجارة إن كانت المرأة التي يعشقها تطلب منه أن يتوقف، من أجل صحتها وصحة الأبناء

الذين تريد إنجابهم معه. -أطلق تلك التنهيدة المتقطعة التي تبدو، في حالته، كضحكة في ذات الوقت-. كما سترى، لا داع لأن أحتفظ برئتي نظيفتين، أليس كذلك؟ عدتُ إلى التدخين مرة أخرى كمصاص الدماء. بالطبع، بافتراض أن مصاصي الدماء يدخنون كثيرًا. لكن حتى اليوم لم أدخن في مكان عام. أنت أول شخص أجرؤ على التدخين أمامه. اعتبر هذا بادرة على الثقة.

ولم أرد في تلك اللحظة أيضًا.

-وفيم يتعلق بقتله... ماذا يمكنني أن أقول؟ يبدو هذا سهلًا للغاية، أليس كذلك؟ كان لدي وقت للتفكير في هذا طوال السنوات بحثي عنه في محطات القطارات. وإن كنت قد عثرت عليه في ذلك الوقت؟ ماذا أفعل؟ قتله بالرصاص؟ هذا سهل للغاية، سريع للغاية. كم قدر الألم الذي يمكن أن يشعر به شخص تلقى رصاصات خزان مسدس في صدره؟ أعتقد أنه ليس وقتًا طويلًا.

-لكنه شيءُ ما على الأقل.

لماذا كانت مبرراتي تبدو شديدة الغباء والسطحية عندما أتحدث مع ذلك الرجل؟

-إنه شيء ما لكنه قليل. قليل للغاية. لكن إن ضمنت لي أن أطلق عليه أربع رصاصات بدون أن يموت، بل أتركه مشلولًا، مستلقيًا في فراش، ويعيش حتى التسعين، فسأفعل هذا.

كانت نبرته تبدو زائفة، كأنما لم يكن مُعتادًا على ممارسة القسوة، ولا حتى القسوة المُفترضة واللفظية، كما لم يثر اهتمامي بدوره الجديد كـ»موراليس السادي».

-لكن نعود لحظي يا تشابارُّو . بالتأكيد سأرسله إلى الجحيم (بافتراض وجوده) بأول رصاصة، والرصاصات الثلاث الأخرى سأطلقها هباء. وبعد ذلك سأدخل السجن مدى الحياة (ومن المؤكد أنني لن أنجو بأي حكم مع إيقاف التنفيذ، يمكنك أن تكون متيقنًا من هذا)، وهذه الحياة ستستمر حتى بضعة وتسعين عامًا. أما جومث، فمن المؤكد أنه سيكون قد تحرر من كل شيء قبل السقوط على الأرض. وأنا سأقضي نصف قرن في زنزانة بينما أحسده على حظه. لا، أقول هذا هذا جادًا. الموت قد يكون طريقًا بالغ السهولة، صدقني. الأمور ليست بهذه البساطة مُطلقًا.

أطفأ سيجارته المنتهية وبشكل تلقائي أشعل السيجارة الأخيرة في العلبة.

-لهذا كانت فكرة السجن هي أفضل الأفكار الممكنة، على الرغم من كل شيء. حسنًا. لن يكون سجنًا مدى الحياة. لن تكون خمسون عامًا. لكن ثلاثين عامًا أو ما شابه، بينما يجمع البول من الزنازين ليست عقابًا رديئًا، أليس كذلك؟ لكن... -تنهد بإذعان- لم يحدث هذا أيضًا. وأنت تعرف أنه لم يكن الحل المثالي، نحن متفقان على هذا. كان أفضل الحلول في ضوء الظروف. والآن أعود إلى موضوع حظي. بما أن كل شيء يجب أن ينتهي آن آجلًا أم عاجلًا بشكل مؤسف، فإن الرب، إن كان موجودًا، سيحرك بضعة قطع لكي ينجو ابن العاهرة هذا.

كان قد رفع صوته لدرجة أن المخطوبين توقفا عن الكلام ونظرا لنا. استعاد موراليس هدوءه وغرس نظرته في المائدة الخشبية.

-لا أعرف كيف أساعدك -قلتُ صادقًا-. كنت أود من كل قلبي أن تكون الأمور أكثر سهولة.

-أعرفُ يا بنجامين.

كانت أول مرة يخاطبني باسمي. قبل أيام كان بايث. يا لقنوات التضامن الغريبة التي تفتحها هذه الحكاية المرعبة.

-لكنك لا تستطيع فعل أي شيء. شكرًا على أية حال.

-لا تشكرني. لكنني لا أعرف بالفعل كيف يمكنني مساعدتك.

مزَّق موراليس الورق المعدني لعلبة السجائر التي أنهاها.

-ربما تستطيع مساعدتي في وقت ما. لكنني أودعك الآن -نهض، بينما كان يُخرج بضعة أوراق نقد من جيب سترته ليدفع القهوة باللبن التي شربها. بعد ذلك مدَّ لي يده -. حقيقةً أشكرك على كل ما فعلت. أنا صادق في هذا.

صافحته. عندما خرج جلست مجددًا، وخلال وقت طويل تأملت الخطيين اللذين ما زالا منعزلين عن أي شيء بخلافهما. حسدتهما كثيرًا.

المزيد من القهوة

لسبب ما (وتشابارُّو لا يفكر في الاستقصاء إن هذا السبب هو مجرد الصداقة القديمة أو شيء أكثر عُمقًا، أكثر إيحاءً بالأمل، أكثر شخصية، أو العديد من الأشياء التي يمكن وضع كلمة أكثر قبلها)، تجد إيريني متعة في صحبته، ليس فقط في حواراته ككاتب مبتدئ. لسبب ما كانا جالسين مرة أخرى، كل منهما أمام الآخر، وبينهما المكتب. لسبب ما تبتسم تلك الابتسامة المختلفة عن ابتساماتها العادية والمعهودة، والتي لم تكن في الحقيقة عادية أو معهودة مُطلقًا. يفكر تشابارُّو في هذا، لكنها لا تشبه هذه الابتسامة، هذه الابتسامات التي تباركه بها عندما يكونان على انفراد في مكتبها بينما يحل المساء.

كأنما يخشى من أن يكون في حلم مرة أخرى هباءً، يشعر بالتوتر، ينظر للساعة، ويبدأ في النهوض. تقترح عليه تناول فنجان قهوة آخر، وبمنتهى الحمق يلفت نظرها إلى أن ماكينة القهوة الكهربائية فارغة ومطفأة لأنها أنهيا القهوة. تعرض عليه إيريني الذهاب حتى المطبخ الصغير لإعداد المزيد من القهوة، وهو يرفض، على الرغم من أنه سيشعر بالندم في الحال لأنه أحمق لهذه الدرجة. يلوم نفسه كثيرًا على أنه لم يقل لها «نعم، شكرًا، سأرافقك حتى المطبخ»، وعلى أنه لم يعد للجلوس مرة أخرى لإصلاح الضرر. «أي ضرر؟»، يتساءل في ذات الوقت، فمن المُحتمل أن تكون راغبة فقط في المزيد من القهوة، وأنها تريد أن تحكي له أي ترهة جديدة، ففي نهاية الأمر لا يوجد

أي شيء خاص في تناول القهوة مع صديق في المحكمة طوال سنوات، ليس أكثر.

لكنهما يجلسان مرة أخرى بالفعل، ويتجدد الحوار كلوح خشبي يتشبثان به وسط كل هذه الشكوك. بدون أن يعرف كيف، يكتشف تشابارُّو أنه يحكي لها كيف قضى يومًا في قراءة وتصحيح المسودات بينما كان المطر ينهمر في الخارج، وأنه استمع لموسيقى من العصر النهضة، التي كان يحبها كثيرًا. ويتوقف مفزوعًا في تلك اللحظة عندما أوشك على أن يقول لها، بينما ينظر في عينيها، أن الشيء الوحيد الذي كان ينقصه لكي يشعر بالنجاة وبالنعمة الأبدية أن تكون جالسة على الأريكة، ربما مستلقية بينما تقرأ بجواره، ويده، أطراف أصابعه، تداعب رأسها بالكاد، بينما تشق طرقًا ناعمة في شعرها. على الرغم من أنه لم يقل هذا فكأنما قد قاله، لأنه أدرك أن وجهه قد أخضب حمرة كالطماطم. في تلك اللحظة كانت تنظر إليه بمرح، ربما بحنان أو توتر، وفي النهاية تسأله:

-ألن تخبرني ما بك يا تشابارُّو ؟

يشعر تشابارُّو أنه يوشك على الموت، لأنه أدرك في تلك اللحظة أن هذه المرأة توجه سؤالًا بشفتيها وسؤالًا آخر بعينيها: كانت تسأله بشفتيها لماذا أخضب وجهه حمرةً، ولماذا يتقلَّب متوترًا في مقعده، أو لماذا ينظر كل اثنتي عشرة ثانية إلى الساعة ذات البندول التي تزين الجدار القريب من المكتبة. لكن، بالإضافة إلى هذا، كانت تسأله شيئًا آخر بعينيها: كانت تسأله فقط عم به، عم به هو، هو معها هو برفقتها؛ ويبدو أن الإجابة تهمها، وأنها متشوقة لمعرفتها، وربما كانت تشعر بالضيق، أو بالحيرة إن كان ما يحدث له هو ما تعتقد. لكن يفكر تشابارُّو أن القضية الهامة إن كانت تفترض أم تخشى أم ترغب، لأن هذه هي المسألة، المسألة الكبرى في السؤال الذي توجهه بنظرتها،

وفجأة يشعر تشابارُّو بالرعب، ينهض كالمجنون ويقول إنه يجب أن يذهب وإن الوقت قد تأخر عليه: تنهض مندهشة. لكن القضية هي إن كانت مندهشة فقط، أم مندهشة وتتنفس الصعداء، أو مندهشة وتشعر بالراحة. وخرج تشابارُّو كأنما يفر إلى الممر الذي يفضي إليه باب المكتب الخشبي العالي، ويفر فوق الأرض ذات البلاط الأسود والأبيض على هيئة معينات، ولا يتنفس الصعداء إلا عندما يركب أتوبيس 115 الذي كان فارغًا بشكل إعجازي في ساعة الذروة المسائية. يعود إلى بيته في كاستيلار حيث يجب أن يكتب الفصول الأخيرة من حكايته، بأي طريقة، لأنه لم يعد يتحمل هذا الوضع، لم يكن وضع ريكاردو موراليس وإيسيدرو جومث، وإنما وضعه هو، الذي يربطه لدرجة تحطيمه بتلك المرأة السماوية أو الجحيمية، تلك المرأة التي تحتل أعماق قلبه وعقله، تلك المرأة التي ما زالت تسأله عن بُعد عم به، بأجمل عينين في العالم.

شكوك

«ثمل ساندوفال يوم 28 يوليو من عام 1976 كما لم يفعل من قبل، وهكذا أنقذ حياتي».

يُعيد تشابارُّو قراءة هذه الجملة التي تتصدر الفصل الجديد ويشعر بالشك. هل تُعتبر بداية جيدة لهذه المرحلة من الحكاية؟ لم يكن مقتنعًا بها تمامًا، لكنه لم يجد عبارة أفضل. توجد اعتراضات عديدة عليها. أقواها بسبب الفكرة التي ترغب في الإيحاء بها، لا أكثر ولا أقل. هل يمكن لفعل إنساني واحد، في هذه الحالة «الثمل»، أن يكون سببًا كافيًا لتغيير مصير شخص آخر، بافتراض وجود ما يُطلق عليه «نداء القدر»؟ وبالإضافة إلى هذا، ماذا يعني «إنقاذ الحياة»؟ تشابارُّو لا يحب هذه العبارة الجاهزة. شيء ما من الشخص المرتاب الذي يعيش تحت جلده يقول له إن إطالة شيء ما ليست مرادفًا لإنقاذه. وأمر آخر: من يضمن له أن يكون ثمل ساندوفال هو السبب وليس أي شيء آخر غير ملموس في الظروف المحيطة هو ما منع تشابارُّو من العودة إلى بيته في تلك الليلة من يوليو؟

على أية حال، من الممكن أن تظل هذه الجملة في بداية الفصل. كان ساندوفال أحد أفضل الأشخاص الذين عرفهم طوال حياته. تعجبه فكرة أن يدين له، على الرغم من لحظات ضعفه. بفضله لم ينته به الحال في ذلك اليوم ملقيًا في مجرى مياه برصاصتين في قفاه. ولأنه لم يكن يرغب في الموت في ذلك الحين، ولا الآن، يمكنه التساهل مع مفهوم نجاته بسبب نوبة الثمل

الهائلة التي قرر ساندوفال الدخول فيها تلك الليلة.

يشعر تشابارُّو بعجز يشبه عجزه عندما بدأ هذه الحكاية، عندما لم يكن يعرف من أين يبدأ في حكي الحكاية. كانت صور عديدة تهجم عليه في ذات الوقت: منظر بيته المُحطم؛ بايث جالسًا أمامه في بار حقير في شارع رافائيل كاستيو؛ بناية وسط الحقول مغلقةٌ ببوابة عالية جرارة؛ طريق خاو ليلًا، مضاء بمصباحين قويين، بينما يراه عبر زجاج الأتوبيس الأمامي؛ ساندوفال يحطم بارًا في شارع فنزويلًا.

على الرغم من هذا، يعتقد أن هذا العجز السردي ليس على ذات خطورة العجز الذي عاني منه في البداية. هذه الفوضى وقعت له، لهذا لا حاجة له بالبحث عنها في حيوات الآخرين. بالإضافة إلى هذا فإن هذه الأمور لم تحدث له بشكل متزامن، وإنما بترتيب زمني يسمح له بالإمساك بها لكي يحكيها. ويفكر في النهاية أن أفضل شيء هو احترام هذا الترتيب.

في البداية يُحطم ساندوفال بارًا في شارع فنزويلا. بعد ذلك يجد تشابارُّو مسكنه مُدمرًا. ثم يتحدث مع بايث في مقهى كريه الرائحة بشارع رافائيل كاستيو. بعد ذلك يجلس في المقعد الأول في أتوبيس ليلي. وبعد ذلك، بعد سنوات كثيرة، يصطدم بالبوابة الجرارة العالية لبناية وسط الحقول.

31

ثملساندوفال يوم 28 يوليو من عام 1976 كما لم يفعل من قبل، وهكذا أنقذ حياتي. كان على حال فظيعة طوال اليوم. ألقى تحية مبتسرة عندما دخل، وانغمس على الفور في مراجعة تقرير بسيط يمكن الانتهاء منه في عشرين دقيقة، لكنه استغرق منه خمس ساعات. في ساعة الغروب، عندما ألقى الموظفون الآخرون تحية الوداع وخرجوا متجهين إلى بيوتهم أو إلى الجامعة، حاولت عقد حوار معه، لكن كأنما ارتطمت بسور. كالعادة، تكلَّم عندما أراد.

-خالتي إنكارناثيون هاتفتني اليوم -توقَّف لبرهة؛ كان صوته مرتعشًا-. قالت لي إنهم حملوا ابن خالتي ناتشو. تعتقد أنهم عسكريون. لكنها ليست متأكدة. حطموا كل شيء أثناء دخولهم في عز الليل. كانوا بالملابس المدنية.

حل الصمت مرة أخرى. لم أقاطعه. كنت أعرف أنه لم ينته بعد.

-العجوز المسكينة سألت ماذا يمكن أن تفعل. قلت لها أن تأتي إلى بيتي. رافقتها لعمل البلاغ -أشعل سيجارة قبل الانتهاء من كلامه-. ماذا كان يمكنني أن أقول لها؟

-لقد أحسنت التصرف يا بابلو -جرؤت على الكلام.

-لا أعرف -بدا عليه التردد قبل أن يواصل-. شعرت أنني أخدعها. ربما كان يجب أن أخبرها بالحقيقة

-لقد أحسنت التصرف يا بابلو -كررتُ- إن أخبرتها بالحقيقة لقتلتها.

الحقيقة. كم تصبح الحقيقة مرعبة أحيانًا. كنت قد تحدثت مع ساندوفال كثيرًا قبل ذلك حول موضوع العنف السياسي والقمع. على الأخص منذ موت بيرون فصاعدًا. الآن تظهر جثث أقل في الأراضي الخلاء. بالطبع طوَّر القتلة من أساليبهم. لعملنا في القضاء الجنائي كنا بعيدين بما يكفي عن الأحداث بحيث لم نكن مُطَّلعين على تفاصيلها، لكننا كنا أيضًا قريبين بما يكفي لكي نخمنها. لم يكن هذا يتطلَّب أن يكون المرء عرافًا. كنا نشهد اعتقال أفراد كل يوم في مكان ما. أو كانت المعلومة تصلنا. على الرغم من هذا لم يكن هؤلاء المعتقلين يأتون مُطلقًا إلى الزنازين الملحقة بالمحاكم، كما لم يكونوا يصعدون مُطلقًا للإدلاء بأقوالهم فيها، لم يكونوا يُرحَّلون بعد ذلك مُطلقًا إلى سجني ديفوتو أو كاسيروس.

-لا أعرف. لابد أنها ستعرف في وقت ما.

حاولت تذكُر وجه ناتشو. جاء بضعة مرات إلى المحكمة، زائرًا، لكنه وجهه كان يفر من ذاكرتي، لم يمكنني تحديده.

-أنا ذاهب -نهض ساندوفال فجأة وارتدى سترته ثم اتجه إلى الباب-. إلى اللقاء.

«اللعنة»، فكرتُ. مرة أخرى. فتحت النافذة وانتظرت. مرَّت بضعة دقائق لكن ساندوفال لم يعبر شارع توكومان باتجاه بيامومنتيه. شعرت بالذنب قليلًا: «فيضان ما في الهند يُخلِّف أربعين ألف ميتًا، لكن بما أنني لا أعرفهم، كانت صحة عمي الذي عانى من أزمة قلبية تقلقني أكثر». في معسكر ما، في قسم شرطة ما، كان ناتشو يُطحن ضربًا باللكمات والعصي. لكنني لم أكن أشعر بالقلق عليه بقدر ما كان قلقي على ابن خالته بابلو، الذي

كان صديقي، والذي كان ينوى الشراب والثمل حتى يغيب عن الوعي.

هل كنتُ أكثرنا أنانيةً؟ تعزيت بالتفكير أنني قادر على فعل شيء ما من أجل ساندوفال، لكن ليس من أجل ابن خالته ناتشو. هل كانت هذه هي الحقيقة؟ قررت أن أمنحه الأفضلية المعهودة: ثلاث ساعات قبل الذهاب للبحث عنه. جلست لتصحيح قرار حبس احترازي. قررت أن تكونا ساعتين. ربما كانت ثلاث ساعات وقتًا أطول من اللازم.

32

بينما كنت أنزل سلالم شارع تالكهوانو انتابني الشك لبرهة. كنت احمل رزمة كبيرة من المال لدفع القسط الأخير من مسكني. يُفترض أنني كنت سأذهب لإيداعه بعد الخروج من المحكمة لأن مكتب التوثيق يُغلق في وقت متأخر، لكن بما أنني كنت أخشى أن أتعطل أكثر من اللازم في عثوري على ساندوفال، قررت البحث عن صديقي وتأجيل الدفع ليوم آخر. تحسست الجيب الداخلي للسترة لأتأكد أن المال محفوظ جيدًا وأشرت لتاكسي. سرنا في شارع باسيو كولون. لم يمكنني العثور عليه. كان سائق التاكسي رائق المزاج وعرض علي وجهة نظره المترجلة الطويلة حول أبسط الطرق وأنجحها لحل مشاكل البلاد. إن كنت أقل انشغالًا وأقل تركيزًا في العثور على أي إشارة تدلني على مكان ساندوفال، ربما كنت قد طلبت منه إيضاحًا ما حول العلاقة التي كان يعقدها بين توكيداته مثل «العسكر يعرفون ما يفعلون»، «لا يوجد من يريد العمل هنا»، «يجب قتلهم جميعًا» و «ريفر لابرونا هو المثال الذي يجب اتباعه».

طلبت منه السير في الشوارع الجانبية. في النهاية عثرت عليه في أحد البارات، وكان بارًا رديئًا للغاية، في شارع فنزويلا. دفعت للمحلل اللامع لواقع البلاد وانتظرت أن يعيد لي الباقي بدون نقصان. بينما كان يبحث في أحد جيوبه، بينما يبدو عليه شيء من الضجر لبخلي، استمتعت بانتقام بسيط. لم أعد متعجلًا. لم يكن ساندوفال سيقبل بأي حال أن أخرجه من هناك قبل

الحادية عشر، وكانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل.

جلست أمامه وطلبت كوكا كولا. عرضوا علي بيبسي وقبلت. لم أره يشرب هكذا من قبل. بصراحة شديدة كان مثيرًا للفزع، على الرغم من أن قدرته على التحمل كانت مثيرة للإعجاب في ذات الوقت. في هدوء، من دون حركات مبالغ فيها، كان ساندوفال يرفع الكوب ويفرغه في رشفتين أو ثلاث. بعد ذلك كان يغرس نظرته في الفراغ، أمامي، ويترك السائل الدافئ يهبط حتى أحشائه. بعد بضعة دقائق يعود لملء الكوب.

كانت الحادية عشر تقريبًا ولم يمكنني انتزاعه من المقعد، لكنني لم ألح كثيرًا. كنت أعرف عن خبرة أن سنادوفال يمر بمرحلة أولى من ثمله وفيها يكون سريع الغضب وشديد التركيز. وبعد ذلك يدخل في مرحلة أخرى أكثر وداعة واسترخاءً. كانت هذه هي لحظة إخراجه. لكن في تلك الليلة تأخر الانتقال إلى المرحلة الثانية كثيرًا. ذهبت للحمام. بينما كنت أتبول سمعت دوي تهشم أكواب، وتبعتها سلسلة من الصرخات والركض فوق الأرض الخشبية.

خرجت بينما كنت أبلل نفسي تقريبًا. لحسن الحظ في تلك الساعة لم يتبق سوى ثلاثة أو أربعة زبائن، وكانت نظراتهم محملة بالفضول أكثر من الخوف. كان ساندوفال يطوح بمقعد في يده اليمنى. وخرج مالك البار، القصير المفتول العضلات، من خلف الكاونتر وكان يحاصره عن بُعد، متخوفًا من أن يكون الهدف التالي للمقعد. كانت المرآة مكسورة خلف الكاونتر، كما كانت هناك زجاجات مبعثرة وزجاج مكسور منثور في كل مكان.

-بابلو! – ناديته.

لم ينظر لي. كان مُنتبهًا لتحركات مالك البار. لم يكن أي منهما يتكلَّم،

كأن التحدي بينهما عميق للغاية بحيث لا يجب التقليل من شأنه بالكلمات. بدون أن تبدو عليه أي استعدادت، رسم ذراع ساندوفال الأيمن نصف دائرة وأطلق المقعد، وانتهى به الأمر مرتطمًا بإحدى النوافذ المُطلة على الشارع. الدوي الهائل مرة أخرى. الركض والسباب مرة أخرى. لم يعد المالك مترددًا. بدا له أن خصمه الثمل، والذي أصبح أعزلًا قبل قليل، كان هدفًا سهلًا وحاول الهجوم عليه. لم يكن يعرف (لكنني كنت أعرف) أن ساندوفال لم يكن يفقد سرعة ردود أفعاله بسهولة، بغض النظر عن مظهره المزري، وأنه يمارس الملاكمة منذ صغره في أحد أندية باليرمو. وهكذا عندما أصبح المالك في نطاق حركته، لكمه في فكه لكمة أخرجته من القتال، وتركته مستلقيًا فوق إحدى الموائد الفارغة.

-ساندوفال!- صرخت.

كان الوضع يسوء بسرعة. واجهني متحديًا. هل كان يحاول معرفة سبب وجودي في السياق الحربي الغريب الذي صنعه؟ رفع مقعدًا آخر. سار خطوتين باتجاهي. فكَّرت «لم يعد ينقص سوى هذا. لم يكن ينقصني سوى الاشتباك مع نائبي في بار حقير بشارع فنزويلا». لكن خططه كانت مختلفة. بيده الفارغة أتى لي بإشارة كأنما لكي أبتعد. تنحيت جانبًا. مرَّ المقعد بسرعة وارتفاع معتبرين ليُحطم إعلانًا زجاجيًا عن الويسكي: رجل يبدو عليه الاحترام يتناول كأسًا، بينما يجلس على أريكة بجوار مدفأة مشتعلة. كنا قد رأيناه في بار آخر بالمنطقة. كان ساندوفال يكره هذا الإعلان: أخبرني بهذا أثناء نوبة سُكر سابقة.

بهذا الفعل التدميري الأخير، الذي ربما كان ساندوفال يفسره كإنفاذ للعدالة، بدا أن رغباته التدميرية قد نفدت. لابد أن مالك البار قد فكرَّ في ذات الأمر لأنه هجم عليه من الخلف وتدحرجا بين الموائد والمقاعد. اقتربت

للفصل بينهما، وكما هو معتاد في تلك الحالات، تلقيت بضعة ضربات. انتهى بي الأمر جالسًا على الأرض بينما أضم ساندوفال إلى جسدي وأصرخ في المالك أن يهدأ، وأنني سأتولى أمره لكي يظل ساكنًا.

-الآن سترى -قال الرجل في النهاية بينما ينهض.

أرعبتني نبرته الباردة المُهددة. ذهب إلى الكاشير. فكَّرت أنه سيخرج مسدسًا ويطلق علينا الرصاص. لكنني كنت مخطئًا. أخرج عملة تليفون. كان سيطلب الشرطة. الزبائن المتبقون، والذين لم يروا ضرورة لتدخلهم، أدركوا نيته وغادروا المكان مسرعين. نظرت حولي. هل يمكن أن يوجد هاتف عمومي في مثل هذا البار الحقير؟ لم يكن هناك هاتف. اتجه إلى الباب بينما يلقي علينا نظرة قاتلة. أخر شيء كنا نريده في تلك الليلة أن ينتهي بنا الأمر في الحبس. نهضت. بدا أن ساندوفال غير مُهتم بالأمر مُطلقًا. خرجت خلف المالك. كان يسير باتجاه باخو. ناديت عليه. ومع المحاولة الثالثة التفت وتوقَّف لكي ألحق به. قلت له إن الأمر لا يستحق، وأنني سأتكفل بكل شيء. نظر لي بريبة. كانت لديه دوافعه. لابد أن تلك النوافذ الزجاجية تساوي مبلغًا محترمًا. وأعتقد أنني تذكَّرت بضعة مقاعد وموائد مُحطمة، بدون حساب المقاعد التي ألقاها ساندوفال في الهواء. ألححت. في النهاية قَبِل العودة للبار. رجعنا في صمت. عندما وصلنا أدركت سبب غضب الرجل. كان زجاج الوجاهة مهشمًا في الشارع، وآثار العراك واضحة في كل أنحاء المكان.

فتح ذراعيه كأنما يطلب مني تفسيرًا، أو كأنما يعيد التفكير ويرى أن عفوه قبل برهة كان متسرعًا.

-كم يمكن أن يتكلف إصلاح هذا الدمار؟ -كان سؤالي يفتقد للثقة والحماس. لابد أن الآخر قد لاحظ هذا.

-مبلغ ضخم.. تخيل كل هذا.

لم أكن جيدًا في الفصال مُطلقًا. أنتقل من الشعور بأنني سادي انتهازي للشعور بأنني ساذج لا رجاء منه، وبالعكس. وفي ذلك الموقف، بعد منتصف الليل، بينما كان ساندوفال جالسًا على الأرض ويسند ظهره للكاونتر (كان قد أمسك بزجاجة ويسكي ناجية من الدمار ويواصل الشراب بهدوء) وذلك الرجل الذي يمكنه الاتصال بالشرطة كأنما يمتلك ورقة رابحة خفية، كان الموقف يفوق كل قدراتي.

قال لي رقمًا مثيرًا للضحك. لابد أنه يقل قليلًا عن تكاليف إعادة تجديد البار الحقير بالكامل. قلت له إنني لا أمتلك هذا المبلغ. وردَّ بأنه لن يقبل بيسو واحد أقل مما طلب. خطر على بالي رقم أقل بكثير: الذي تحتويه الرزمة الذي ما زلت أحتفظ بها بجوار إبطي، ولسذاجتي كنت أنتوي تسديد قرضي العقاري بها. عرضته عليه، وحاولت أن يبدو صوتي حازمًا.

-حسنًا -تنازل-. لكن لتدفعه لي الآن.

لابد أن الرجل كان يشك أن شخصًا مثلي، يلعب دور الملاك الحارس لسكير، يمكنه أن يحمل هذا المبلغ في جيبه. عدَّ النقود وبدا أكثر هدوءًا.

-لكن لتساعدني في ترتيب المكان قليلًا. إن تركت كهذا، سأفقد الغد بالكامل في تنظيفه.

قبلتُ. جررنا ساندوفال إلى جانب لكي لا يعيقنا، وكنسنا الزجاج المكسور، حملنا الموائد والمقاعد المحطمة إلى غرفة صغيرة توجد خلف فناء قذر، وقمنا بإعادة ترتيب الأثاث السليم. أعتقد أنه، باستثناء المرآة والواجهة الزجاجية، خرج رابحًا في النهاية. على أية حال كان ذلك الإعلان القذر عن الويسكي فظيعًا. ربما كان ساندوفال قد أحسن صنعًا بتهشيمه.

33

ركبنا التاكسي الوحيد الذي جرؤ على قبولنا. في الثالثة صباحًا، وبآثار المعركة التي نحملها (فقدَ ساندوفال كل أزرار القميص، وبجوار ذقني كان هناك جرح سطحي لكنه لافت للنظر). لم يكن مظهرنا يوحي بالثقة.

ظلت عيناي متسمرتان في عداد التاكسي طوال الطريق. كنت أعرف المبلغ المتبقي معي بدقة. كنت قد أنفقت مبلغًا معتبرًا في تاكسي الذهاب، وأهدرت ثروة صغيرة كتعويض عن دمار ذلك البار الحقير. لم أكن أرغب في الوصول لبيت ساندوفال ثم طلب مال من إليخاندرا.

امرأة مسكينة. كانت تنتظر في مدخل البناية، مُحتميةً ببطانية فوق قميص النوم والروب. تعاونا في حمل ساندوفال إلى البيت ثم إلى الفراش. دفعت التاكسي قبل الدخول. طلبت مني أليخاندرا أن أجعله ينتظر، لكي يحملني إلى بيتي. لم تكن تعرف أنني مفلس ولم أخبرها بالطبع. أعتقد أنني غمغمت بعذر ما. عندما تركناه في الفراش عرضت علي أليخاندرا تناول القهوة. كنت سأرفض، لكنني رأيتها بائسة وحزينة للغاية فقررت البقاء بعض الوقت.

حكيت لها موضوع ناتشو بينما كانت تبكي في صمت. بابلو لم يخبرها باي شيء. «لا يخبرني بأي شيء»، اختتمت كلامها بصوت عال. شعرت بعدم الراحة. كان الموقف بأكمله يبدو لي مُعقدًا. كنت أحب ساندوفال كأخٍ لي، لكن إدمانه كان يثير ضيقي أكثر من شفقتي. خاصة عندما رأيت الضيق في

عيني أليخاندرا الخضراوين.

عينان خضروان؟ صدر صوت تحذيري في داخلي. نهضت متنفضًا وطلبت منها مرافقتي حتى الباب. سألتني كيف سأعثر على تاكسي في تلك الساعة من الفجر. كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة. قلت لها إنني أفضل المشي. ردَّت قائلةً إنني مجنون لتفكيري في المشي حتى كابايتو في قلب الليل، وفي ظل الأمور التي تحدث. قلت لها إنه لن تقع أي مشكلة. إن حدث أي شيء، سأبرز تحقيق الشخصية الخاص بالعمل في السلطة القضائية وينتهي الأمر. كان هذا حقيقيًا. لم أواجه أي مشكلة من قبل في هذا الشأن. إلا إن كنت قد اضطررت لإبرازها في بار محطم، بينما زميلي في المحكمة يشرب جالسًا على الأرض.

ودعتني على الباب وشكرتني. مرات كثيرة، خلال الخمس وعشرين سنة التي مرت منذ تلك اللحظة، تساءلت حول مشاعري تجاه أليخاندرا. لم يشق الاعتراف مُطلقًا بأنني مُعجب بها، وأقدرها وأشفق عليها. هل كنت أحبها؟ حينئذ لم يمكنني الإجابة على نفسي، وما زلت أعتقد اليوم أن السؤال غير مناسب. لم يمكنني الشعور مُطلقًا بالرغبة في زوجات أصدقائي. يبدو لي هذا أمرًا لا يُغتفر. حذار، لا أعتقد أنني مُنظر أخلاقي. لكن لم يمكنني النظر إليها إلا كزوجة صديقي بابلو ساندوفال. إن كنت قد عشقت امرأة متزوجة ذات مرة، فقد حرصت جيدًا على عدم عقد صداقة مع زوجها. لكنني تعهدت لنفسي بألا أتحدث عنها هنا، لهذا سنختتم الكلام في هذا الموضوع.

عبرت نصف المدينة في ليل يوليو البارد. مرت بضعة سيارات ودورية عسكرية راكبة في شاحنة. لكنها لم توقفني. وصلت إلى بنايتي بعد السادسة. كما يحدث لي دائمًا كلما قضيت ليلةً مستيقظًا، كان الإرهاق يميل إلى مراكمة الذكريات الحديثة بجوار ذكريات اليوم السابق. وهكذا كانت الضربات

في البار وخبر اختفاء ابن خالة بابلو وإفطار اليوم السابق تبدو لي في تلك الساعة صورًا منصهرة في ذات الذكرى. الشيء الوحيد الذي كنت أرغب فيه في تلك الساعة كان حمامًا جيدًا والنوم لساعتين على الأقل لابتعد عن تلك الأحدث. لم تكن لدي أية فكرة عما ينتظرني لدى الخروج من المصعد في الطابق الرابع.

كان باب مسكني مفتوحًا. وكان شعاع ضوء صادر من الداخل يصل إلى الممر المعتم. هل سُرقت؟ سرتُ حتى الباب وعبرته بدون التفكير في إمكانية وجود المقتحم في الداخل. لم يكن هناك أي شخص. لكنني فكرت في هذا بعد ذلك، لأنني تحققت فور أن أطللت برأسي إلى الداخل أن الفوضى الشاملة كانت تعم الشقة. الأرائك والمقاعد مقلوبة، المكتبة ملقاة على الأرض، الكتب ممزقة ومبعثرة فوق الأرض. وفي غرفة النوم كانت الحشية ممزقة وقطع الإسفنج تملأ الغرفة. كان المطبخ على حال شبيه من الفوضى. كنت مفزوعًا فلم أنتبه على الفور لاختفاء التلفزيون وجهاز الموسيقى. لم يكونا في مكانهما أو في أي مكان آخر. هل كانوا لصوصًا إذن؟ لا يمكن فهم طريقتهم الوحشية في التصرف. في النهاية دخلت الحمام عارفًا أنني سأجد ذات الفوضى. لكن كان هناك شيء آخر، فضلًا عن ستارة الحمام الممزقة، كان محتويات الصيدلية ملقاة على الأرض وصنبوري حوض القدم مفتوحين عن أخرهما لإغراق المكان بالكامل. كانت هناك رسالة مكتوبة بالصابون على المرآة: «لقد نجوت هذه المرة يا تشابارُّو يا ابن العاهرة. في المرة القادمة سنقتلك».

كان الخط كبيرًا ومُنمقًا، جديرًا بشخص غير متعجل ويشعر بالسيطرة على الوضع. كان هناك نقشًا في النهاية، ورغم أنني اجتهدت لفهمه إلا أنه لم يكن مقروءًا. حدست أن المُجرم الذي فعل هذا قام بالتوقيع. كيف يمكن

لشخص ما أن يشعر بأنه بمنأى عن أي خطر ومسائلة لكي يهاجم بيوت الآخرين بهذه الطريقة؟ من يمكنه أن يمتلك أمورًا مُعلقة معي؟ عندما سألت هذين السؤالين لنفسي ارتعدت بسبب موجة باردة من الخوف.

خرجت. عنَّت لي الفكرة الساذجة بالحرص على إغلاق الباب بالمفتاح. حينئذ انتبهت إلى أنهم كسروا المزلاج بركلة.

34

يوم 29 يوليو ذاك، بعد أن خرجت من الشقة المحطمة، شعرت بالحيرة. لا يمكن أن يكونوا مجرد لصوص عاديين ولا أن يكون الاقتحام عشوائيًا. في لحظة ما فكرت في العودة ومحاولة الكلام مع البواب، لكنني شعرت بالرعب لأن من ذهبوا للبحث عني ليلًا يمكنهم تكرار المحاولة نهارًا. قلتُ لنفسي أنني أحسنت صنعا بالفرار كما فعلت. لكن أين سأذهب؟ إن كانوا يعرفون عنواني، فلابد أنهم يعرفون عنوان أبويّ، أو عنوان ساندوفال. لا يمكنني المخاطرة، ولا تعريضهم للخطر. لكنني لم أكن أحمل قرشًا واحدًا. بالفعل كنت أسير في شارع ريبادابيا باتجاه وسط المدينة، لكن لم تكن لدى وجهة محددة. نظرت إلى أرقام البيوت المجاورة: خمسة آلاف. ما زال أمامي الكثير.

كان يمكنني الذهاب للمحكمة وعمل بلاغ في مجلس الطعون إن لم أكن أثق في الإبلاغ في قسم الشرطة مباشرة. لم يكن هذا مأمونًا. وإن كانوا ينتظرونني بالقرب من المحكمة؟ لكن، من يا إلهي؟ من هم هؤلاء؟ صادفني الحظ بالمرور أمام بار به تليفون عمومي. دخلت وفحصت ما يوجد في جيبي. بالإضافة لأربع أو خمس عملات كانت هناك عملة تليفون. لجأت لألفريدو بايث، الشخص الوحيد الذي كنت أثق به ثقة عمياء.

اندهش لمهاتفتي، لكن ربما نبَّهته نبرة التوتر في صوتي لخطورة الموقف، وقام برتيب الفوضى في حكايتي ببعض الأسئلة الدقيقة المنطقية. وكان

صاحب مبادرة اللقاء بعد بضعة ساعات في ميدان ميسريري، بجوار تمثال بويريدون.

طفت على غير هدى طوال الصباح. في منتصف النهار تقريبًا انتبهت إلى أنني لم أخبرهم بتغيبي في المحكمة. اشتريت عملة تليفون بأخر نقودي وهاتفت المكتب. تعللت بنوبة انفلونزا مفاجئة. أخبروني أن ساندوفال أيضًا أبلغ عن تغيبه بسبب المرض. أصدرت بضعة تعليمات، المعهودة عندما أتغيب عن العمل. تعزيت بالتفكير أنها لم تكن أيام عمل كثيف. كان قلقي سيكون أكبر إن كنت أعرف أنني لن أطأ المحكمة إلا بعد مرور سبع سنوات.

في الثانية جلست على أحد دكك الميدان. في الثانية والنصف انتفضت فزعًا: جلس شخص ما بجواري. أدرت رأسي. كان بايث الذي قال:

-أنت لا تحب التجسس والتنكر، أليس كذلك؟

فكرتُ أنه ما زال راغبًا في المزاح، وقلت:

-معذرة على إزعاجك. لكن لا أعرف شخصًا آخر يمكنني اللجوء إليه.

-لا توجد مشكلة. اِحك لي ما حدث.

حكيت له بالتفصيل الممل كل ما حدث رأيت منذ وصولي إلى بيتي حتى خرجت هاربًا منه. لم يستغرق هذا وقتًا طويلًا، رغم اعتقادي أن الحكاية استغرقت وقتًا أطول مما عشته. عندما انتهيت سألني

-أي أشياء أخبرتني أنها اختفت من البيت؟

-التلفزيون وجهاز الموسيقى.

-والجملة على المرآة...

-كانت تقول إنهم سيقتلونني، وإنني نجوت مصادفة.

-وكانت تحتوي على اسمك، أليس كذلك؟

-نعم.

تأمل بايث طرف حذائه خلال بعد بضعة دقائق. بعد ذلك أدار رأسه نحوي وتكلَّم.

-انظر يا تشابارُّو . إن كان الأمر كما أعتقد، فأنت مقضي عليك. وتحسبًا لهذا لا ترجع إلى بيتك، ولا إلى المحكمة، ولا لأي مكان معهود. على الأقل حتى أعود للاتصال بك.

-وماذا سأفعل؟ -في لحظة أخرى قد سأشعر بالخجل من التعبير عن قلة حيلتي بهذه الطريقة أمام بايث. لكن في تلك الظروف لم تكن هناك حدود لأي شيء.

فكَّر خلال برهة.

-افعل ما يلي. اليوم ستذهب لبنسيون اسمه «لا بانديريتا»، في منطقة امبرتو الأول وديفينسا. لكن ليس الآن. انتظر. امنحني وقتًا لكي أذهب هناك وأتحدث مع المالك أولًا. ستذهب وتقول إن اسمك آبيل رودريجث، وإن لديك حجزًا لغرفة مدفوعة. سأترك أجرة الأسبوع بالكامل مقدمًا. بالمناسبة، أنت لا تمتلك أي شيء، أليس كذلك؟

-نعم، لكن يمكنني الذهاب للمحكمة....

-ماذا قلت لك قبل قليل يا فتى؟ انس الذهاب للمحكمة أو لأي لمكان. ستدخل البنسيون، ولن تخرج إلا للقيام بالمشاوير الهامة. هاك بضعة بيسوات. هيا، لا تكن عنيدًا. ستعيدها لي بعد ذلك.

-شكرا لكن...

-أسبوع. لابد أنني سأستجلي حقيقة الأمر بعد أسبوع تقريبًا. على الرغم من أن الظروف الحالية لا تسمح للمرء بأن يعرف أي شيء بدقة. لكن لننتظر أن يحدث هذا.

-ألا يمكنك أن تخبرني بأي شيء؟ أن تقول لي رأيك؟

ما زلت أشعر بالدهشة حتى اليوم من السذاجة التي يصل لها المرء عندما يكون مفزوعًا كما كنت. كان بايث على قدر كبير من اللباقة بحيث لم يسخر من سذاجتي.

أخذ يبتعد، لكنه توقَّف واستدار نحوي.

-هل يوجد في المحكمة الآن شخص ما على قدر من الفطنة يمكن اللجوء إليه؟ أعني شخصًا ذا منصب، مديرك، القاضي، رئيس دائرة أخرى..

-مديرتنا في أجازة، بسبب الحمل -قلت له، وشردت لبرهة بينما أفكر في هذا. عدتُ إلى رشدي في الحال وواصلت-. ذكاء رئيس الدائرة الآخر أقل من المتوسط.

-كثيرًا ما يحدث هذا.

-ولا يوجد لدينا قاض حاليًا. تقاعد قاضينًا ولم يتم تعيين البديل حتى الآن. القائم بإعماله هو القاضي أجيريجراي، من الدائرة رقم 12.

-إجيريجراي؟ -بدا الاهتمام على بايث.

-نعم. هل تعرفه؟

-إنه رجل بكل معاني الكلمة. خبر سعيد في النهاية. اعتن بنفسك. أراك بعد أسبوع، تقريبًا. سأذهب للقائك في البنسيون. اطمئن.

اتبعت تعليماته حرفيًا. جبتُ بوسط المدينة وعندما حلَّ المساء اتجهت إلى

سان تيلمو. ما أن قدَّمت نفسي باسم آبيل رودريجث حتى أعطاني الشخص الذي استقبلني المفتاح، وأعتقد أنه المالك. كان المكان نظيفًا. لم أهتم بخلع ملابسي عندما استلقيت على الفراش. لم أكن قد أغمضت عيني منذ يوم ونصف. وخلال الست وثلاثين ساعة السابقة كنت قد شاركت في شجار في حانة حقيرة، طفتُ بنصف مدينة بوينوس أيرس سائرًا على قدمي في قلب الليل وفي عز النهار، ورأيت الدمار الشامل يعم بيتي وتحوَّلت إلى مُطارد، رغم أنني لم أكن أعرف السبب جيدًا. أسندت رأسي على الوسادة، التي كانت رائحتها تفوح بالنظافة أيضًا، ونمت كطفل.

35

البار الحقير الذي واعدني فيه بايث بعد سبعة أيام كان ملاصقًا لمحطة رافائيل كاستيو، وكان مقززا للغاية. ثلاث موائد من الفورميكا الرمادية ومحطمة القوائم. كاونتر مليء بأطباق مغطاة بها سندوتشات مقبضة المظهر، بضعة مقاعد عالية متقشرة الطلاء. المكان، الذي كان صغيرًا في حد ذاته، بدا أكثر ضيقًا بسبب رائحة الدهون الكريهة الصادرة عن مشواة يتراكم فوقها السجق والهامبرجر البارد الذي تبقى من منتصف النهار. كان بضعة رجال يبدو أنهم بسيطو الحال يتكئون على الكاونتر بينما يتناولون النبيذ ويتحدثون صارخين. على فترات تتراوح بين الخمس عشرة والعشرين دقيقة كانت ألواح السقف تهتز مع دوي القطارات، ومن عوارض السقف يهبط مطر خفيف من الغبار فوق الأشخاص والأشياء. ولاستكمال المشهد، كان هناك مهرج مرح برفقة مذيعتين لا تطاقان وتصدر أصواتهم زاعقة عبر الراديو المضبوط على أعلى صوت.

بعد أسبوع بروحي منقبضة، مختبئًا في بنسيون على حساب مدخرات ألفريدو بايث، كان يُفترض أنني لن أكون شديد الرفاهية. أعتقد أنني لم أكن مرفهًا، لكن لم يمكنني تفادي انهيار روحي في مثل هذا المكان. لابد أنه مكان آمن، حيث لا يمكن العثور على المرء بسهولة، إلا إذا كانت هناك أمور عالقة بينه وبين الصراصير.

لم تصلني أخبار من بايث طوال الأسبوع، باستثناء الرسالة بهذا اللقاء،

والتي تركها مع المالك. ولأنني وصلت مبكرًا، كان لدي وقتًا كافيًا لحرق دمي بتخيل كل الأمور التي ساءت خلال هذه الأيام السبعة. وإن كان بايث قد تعرَّض لاعتداء شبيه بما تعرضت له؟ وإن كان هناك من هاجمه لإثارة عش الدبابير؟ التوتر المتراكم طوال الأسبوع، والمُضاعف بسبب الرائحة المثيرة للغثيان وملامسة القاذورات والفزع من الإعلانات والصرخات الصادرة من الراديو، كان يضعني على شفا الانفجار والفرار من المكان. لحسن الحظ كان الشرطي منضبط المواعيد كالعادة. بخلاف هذا ربما لم يكن قد وجدني بانتظاره. مدَّ لي يده وجلس بينما يصدر صرير عن المقعد المعدني القذر والمُغطى بالجلد الصناعي.

-هل عرفت أي شيء؟ -باغته بالسؤال قبل يعتدل في جلسته لم أكن على حال تسمح لي بمراعاة الأصول.

-نعم. في الحقيقة لقد عرفت بضعة أمور يا تشابارُّو .

شعرت بالرعب. ليس لم قال، وإنما لطريقته في النظر لي. كان يبدو عليه تعبير من لا يعرف تمامًا كيف يتطرق للأمر. هل كان الأمر خطيرًا لهذه الدرجة؟ قررت اختصار المسافة حتى الحقيقة العارية.

-حسنًا. أنا أسمعك إذن.

-إنها أمور كثيرة حتى أنني لا أعرف بم أبدأ.

-بم تريد... -حاولت المزاح- على أية حال لدينا ما يفيض من الوقت.

-لا يا بنجامين. أنت لا تتوفر على وقت كثير. -كنتُ أستمع بينما أحاول ألا يستشف رعبي المتزايد- يجب أن تركب الأتوبيس هذه الليلة إلى سان سالفادور دي خوخوي. إنه يغادر من محطة لينيرس، تحت جسر الجنرال باث، بعد عشرة دقائق من منتصف الليل.

-عم تتحدث؟ -أمكنني السؤال في النهاية، بينما أصرخ تقريبًا، عندما شعرت باسترداد أنفاسي إلى حد ما.

-أنت محق. أعذرني. أعتقد أنني بدأت بالجزء الأصعب. أطلب منك بعض الصبر.

-أنا أستمع لك-. قلت بدون التخلي عن حذري.

-أول شيء شغل تفكيري بعد لقائنا السابق قبل أيام هو معرفة المعتدي عليك. من قام بهذا لم يفعله عفوًا، هذا أكيد. هذا، بالإضافة لكل الأمور الأخرى، سمح لي بمعرفتهم بشيء من السهولة.

-ماذا تعني بـ»كل الأمور الأخرى»؟

-كل شيء يا صديقي -كان قد انتبه إلى أن ضيقي يتطلب دقة أكثر، ولهذا أضاف-: بداية طريقتهم في الدخول، توقيت دخولهم. هل تدرك قدر الضجة التي صنعوها ليحطموا كل ما حطَّموا؟ إن كانوا لصوصًا عاديين لتحركوا بشيء أكثر من الحذر. لقد دخلوا كأنهم يدخلون بيتهم. لا يهمهم في أي شيء أن يسمعهم الجيران. فكر في هذا يا تشابارُّو فرقة من المجرمين، تتحرك في منتصف الليل من دون خوف... لا توجد اليوم بدائل كثيرة لمعرفة لمن ينتمون، ألا ترى هذا؟

بدأت أفهم. لكن الأمر ما زال غامضًا. ماذا يريد مني مثل هؤلاء الأشخاص؟

-يا صديقي، لقد اصطدمت بإحدى تلك الفرق من القتلة التي تستخدمها الحكومة. لا أكثر ولا أقل. كان حظك هائلا لأنهم لم يجدوك داخل بيتك. بخلاف هذا لا يجب أن أحكي لك الكثير. بعد الضرب بالعصي ستذهب إلى صندوق السيارة، ومن صندوق السيارة إلى قناة ري

بأربع طلقات.

شرد بايث لبرهة عن الحكاية وظل صامتًا، بينما يعيد ترتيب الصور التي يمكن أن تكون قد حدثت. عادة للكلام فجأة:

-كل شيء يتفق مع هذا. الشعور بالأمان وعدم المساءلة، الهمجية، التصرف بدون احتياطات. جارتك في شقة رقم ب، لا أعرف إن كنت تعرفها، اعترفت لي في النهاية، بعد الكثير من الجهد لإلانتها، أنها رأت عبر العين السحرية أربعة أشخاص يدخلون.

-وماذا يمكنهم أن يريدوا مني؟

-هذا هو التالي يا تشابارُّو ، اصبر علي. لأن الخطوة التالية كانت التحقق ولنقل التأكد، أن الأمر يتعلق بمجموعة مرتبطة برومانو أو جومث.

-ماذا؟ عم تتحدث؟

صدى هذين اللقبين في أسماعي كان يشبه الدوي المرعب لسقوط جسد من الطابق العاشر.

-اهدأ يا بنجامين. لا تنفعل. إن هذا أيضًا واضح للغاية. أنت لست ناشطًا سياسيًا ولست شخصية عامة. لا تعمل في أمور تهم العسكر (بالفعل لا أعتقد أن وزارة العدل تهمهم في أي شيء). أي سبب يوجد إذن لكي تهاجمك فرقة كهذه؟ لابد أن شيئًا يربطهم بك، شيء قديم، شيء شخصي...

أخذت أعد على أصابعي ثم تكلمت:

-هذا مُضحك. اعذرني لقول هذا. لا أعرف أي شيء عن إيسيدرو جومث منذ ثلاثة أعوام تقريبًا، منذ أطلقوا سراحه من سجن ديفوتو، ولا عن ابن العاهرة الآخر.

-أعرف هذا. أنا أيضًا توقفت لدى هذه النقطة. لكن هذا هو السؤال التالي. بدون لبس كان الأمر متعلقًا بهما. هل تستمع لي؟

-أستمع لك- هل كنت أستمع له بالفعل؟

-هكذا أخذت أفكر في الأسباب التي قد تدفعهم لقتلك. لا يوجد أي سبب جديد. أما الأسباب القديمة فتبدو أقل منطقية. وهكذا بعد التفكير مرارًا وتكرارًا عدتُ إلى ما هو حديث، إلى الوقت الحالي. في البداية كنت أخشى من صعوبة معرفة أي شيء عن هؤلاء الأفراد الذين يعملون مع المخابرات. ربما كانت هذه المنظمات صعبة الاختراق في بلد جاد. لكن لديهم هنا ثقوب أكثر من مصفاة الشاي. بالإضافة إلى أنهم يحبون التباهي، هل تعرف هذا؟ السير بسيارات بدون لوحات أرقام، بزجاج داكن، يستعرضون مسدساتهم كأنها... أنت تعرف ماذا أعني.

عاد للشرود وبدا على وجهه تعبير يختلط فيه السخرية بالاحتقار.

-هكذا كانت معرفتهم سهلة للغاية. يضع المرء وجه الأبله المندهش المستعد للاستماع إلى معجزاتهم خلال حوارين أو ثلاثة، وأصبح لدي الهيكل التنظيمي لطريقتهم في العمل.

-يشق علي تصديق أنهم بهذه السذاجة - خاطرت بالكلام.

-يمكنك التصديق. إن لم يكونوا دمويين وأبناء عاهرة، لكان الأمر جديرًا بالموت ضحكًا. يبدو أن رومانو يقود مجموعة صغيرة من سبعة أو ثمانية وحوش. يبدو أنه ظل متصلًا بالمخابرات بعد تفكيك تلك المزحة السخيفة في سجن ديفوتو. من جانب آخر، فهذا يبدو منطقيًا. أي شيء نافع يمكن لمثل هذا التافه أن يقوم به؟

كنت أحاول متابعة شرحه، لكن صورة ابن العاهرة رومانو بينما يحتفل

بالرقص حول مكتب القاضي قبل ثمان سنوات كانت تخطر على بالي مرة بعد الأخرى. كيف أمكنني أن أجهل، في تلك الأيام، أن الرجل الذي يعمل معي كان ساديًا قاتلًا.

-رومانو يقود هذه المجموعة الصغيرة. وعمومًا لا يخرج عندما يقومون بلَمِّ الأفراد -رأى الدهشة على وجهي. معذرة، هؤلاء الحقراء يستخدمون فعل «لمَّ يَلُمُّ» بدلا من الخطف لمن يروق لهم ويحملونه إلى مقراتهم.

أحنيت رأسي موافقة. تذكرت اعتقال ابن خالة ساندوفال، الذي لابد أنه اتَّبع هذه العملية الفظيعة. هل حدث هذا بالفعل قبل أسبوع؟ يبدو لي أنه قد حدث في حياة أخرى، بعيدة ولا يمكن فهمها نهائيًا.

-وهكذا فإن رومانو يخرج قليلًا. إنه يقوم.... ماذا يطلقون على هذا؟ عمل قاعدي في المخابرات، أو عمل عميق في المخابرات. وبترجمة هذه المصطلحات فهذا يعني أن ابن العاهرة هذا هو من يدير جلسات التعذيب التي تتم للحصول على أسماء من المعتقلين. بعد ذلك يرسل قتلته لإحضار من يُذكر اسمه -اغتم وجه بايث مجددًا-. لكن الأنذال يتحدثون عن هذا الأمر قليلًا. يبدو أن شيئًا من العقل تبقى لهم، بحيث لا يتباهون بأمر كهذا.

كان ما يحكيه بايث مقبضًا ومحزنًا وغير عقلاني وفظيع لأقصى حد، وكان يستكمل ببساطة شديدة ما كنا نحدس أنا وساندوفال، وعرفت أنه حقيقي.

-خمن اسم أحد القتلة الذين يقومون بالعمل في الشارع لصالح رومانو.

تذكَّرت موراليس وحكمته بان كل ما يمكن أن ينتهي بشكل سيء سينتهي بشكل سيء، وكل ما يمكن أن يسوء سيسوء.

-إيسيدرو جومث... -أمكنني الغمغمة.

-هو ذاته بشحمه ولحمه.

-ابن العاهرة -كان هذا كل ما أمكنني إضافته.

-وهما صالحان لبعض تمامًا. حسنًا، في الحقيقة، يبدو أنهما كانا صالحين لبعضهما البعض.

-ماذا تعني؟

-تذكر أن كل هذا يبدأ، افتراضًا، بأنهم يهشموا منزلك.

-وماذا؟

-وأن لديهم دافعًا الآن لكي يقضوا عليك. قبل بضعة أعوام لم يكن لديهم هذا الدافع.

-لا أفهمك.

-هذا طبيعي. سأشرح لك. ذهب رومانو كالمجنون لكي يقتلك في بيتك قبل أيام. لماذا؟ ببساطة بسبب الانتقام. الانتقام لماذا؟ فكِّر في هذا لبرهة. ما هو القاسم المشترك بينكما؟ لا شيء. تقريبًا لا شيء. لديكما جومث، هل تتذكر موضوع عفو كامبورا؟

احنيت رأسي موافقةً كأنما يمكنني نسيان ذلك.

-حسنًا. شعر رومانو في تلك اللحظة أنه نغص عليك حياتك. لهذا لم يقض عليك. لأنه كان يعتقد أنه نغص عليك حياتك بما يكفي.

-إذن؟

-هكذا لا يمكن فهم لماذا ذهب رومانو قبل أيام عازمًا على قتلك.

-لا أفهم أي شيء.

-اصبر علي. لقد اقتربنا. كأنها مباراة شطرنج، تحدي. نغصت عليه حياته

عندما أديت لطرده من المحكمة. وهو انتقم عندما أطلق سراح جومث. لماذا يخطر على بال رومانو أن يقضي عليك بعد مرور ثلاث سنوات؟ هذا بسيط: لأنه مقتنع أنك حرَّكت قطعة أخرى. أو بشكل أدق أنك يا تشابارُّو قد قضيت على أحد رجاله من الثقاة، أي جومث.

لم يعد وجهي يشف عن أنني لا أفهم عم يحدثني.

-رومانو يبحث عنك ليقتلك يا تشابارُّو، لأنه يعتقد أنك قتلت جومث. لا أكثر ولا أقل.

صُعقتُ لبرهة، لكنني نفضت الشعور بالدهشة لأنني كنت أخاطر بفقدان ما يقول بايث.

-أنا لا أقول إنك فعلت هذا. أقول إن هذا هو ما يعتقده رومانو. ذهبوا إليك في بيتك يوم 28 يوليو، في الليل، إليس كذلك؟ خمن ما حدث، يوم 26 يوليو، قبل ليلتين، قام شخص ما بقتل إيسيدرو جومث بالقرب من بيته في بيا لوجانو.

كان الأمر مُعقدًا للغاية، أو أنني تشبعت تمامًا بالهواء الفاسد في المكان.

-هل أنت بخير؟ -سأل بايث قلقًا.

-في الحقيقة أشعر بشيء من الدوار.

-هيا بنا. لنخرج للهواء قليلًا.

36

مشينا حتى المحطة وجلسنا على الدكة الخشبية الواحدة السليمة، وكانت على رصيف القطارات الخاوية المتجهة للعاصمة في تلك الساعة. على الجانب الآخر من القضبان كان عدد كبير من الأفراد ينزل من كل قطار ثم يتفرقون في كل الاتجاهات، أو يهرولون لركوب الأتوبيسات الحمراء ذات الأسقف السوداء.

أشعرني الهواء الطلق بالتحسن. على الأقل أمكنني التفكير بشيء من الوضوح والانتباه إلى أنني يجب أن أقول شيئًا ما لبايث.

-هناك أمر ما لم أخبرك به يا بايث. -قلت مترددًا-. هل تتذكر عندما قمت بدور المفتش في بداية القضية، وانتبه جومث إلى أن هناك من يبحث عنه؟

-حسنًا، لم يكن الأمر هامًا. بالإضافة إلى أن...

-انتظر. دعني أكمل. بعد العفو قمت بحماقة شبيهة. حسنًا. أدرك الآن أنها كانت حماقة. في ذلك الحين لم تبد لي هكذا.

فردَ بايث ساقيه ووضع قدمًا فوق الأخرى، كأنما يستعد للاستماع. شرحت له الأمر بأكبر قدر ممكن من الإيجاز. بدا لي مخجلًا أن أظهر أمامه كشخص محدود الذكاء في المرة الأولى قبل ثمان سنوات. في هذه تلك اللحظة عدت للقيام بدور الغبي الذي لا رجاء منه. حكيت له إنني فكرت في

مساعدة ريكاردو موراليس بعد العفو: الاستقصاء عن مكان جومث، لربما استجمع شجاعته وقرر قتله بالرصاص. وبالطبع قام بهذا رجل شرطة من المعارف، وتمت كل الحوارات شفهيًا، بدون أي كلمة مكتوبة. سألني بايث عن اسمه ولقب عائلته

-ثامبرانو، من السلب والنهب.-أجبته وسألت على الفور- هل هو أبله أم ابن عاهرة؟

تردد بايث:

-لا. إنه ليس ابن عاهرة.

-إنه أحمق إذن.

-انس ثامبرانو. -لم يكن بايث يرغب في أن أشعر أنني أبله-. لا أهمية لهذا؟ وكيف انتهى الأمر؟

-مر شهران تقريبًا، لكن في النهاية حصل لي ثامبرانو على عنوان بيا لوجانو. في الحقيقة لا أتذكره الآن. أنت تعرف هذه العناوين. مربع سكني رقم كذا، بناية برقم آخر، ممر كذا، وكل هذا.

-حسنًا. ربما يكون قد استقصى عنه جيدًا.

-لا أعرف. لم أتحقق من هذا مُطلقًا.

ساد الصمت بينما كان بايث يعد ترتيب قطع البازل في عقله وفقًا للمعلومات التي أعطيتها له.

-الآن فهمت كل شيء -قال مختتمًا-. رومانو عرف بهذا، خاصة إن كان ثامبرانو ذاك لم يتوخ الحذر في مهمته. لكن بما أنه لم يحدث أي شيء فقد ظل هادئًا. لابد أنه فسَّر هذا كجزء من غضبك، من شعورك بالإهانة يا تشاباڒو،

لأنك فقدت سجينك.

عدنا للصمت. أعتقد أن كل منا كان يتخيل مع نفسه الخطوة التالية المنطقية للأحداث. في النهاية تحدَّث بايث:

-أتخيل أنك أعطيت المعلومة لموراليس.

-في الحقيقة لا. يا لسخرية القدر. خشيت أن يمثل هذا ضغطًا عليه.... لا أعرف. في النهاية لم أقل له أي شيء.

وصل قطار من وسط المدينة. تكرر طوفان البشر الذين يهبطون ثم يتفرقون. بعد برهة صمت أخرى قال بايث:

-على أية حال، لابد أن الأرمل قد استقصى عن العنوان بطريقته الخاصة. هذا الفتى ليس أبلهًا مُطلقًا.

-هل تعتقد أن موراليس هو الذي ذهب لقتل جومث في بيا لوجانو؟

-هل يخامرك أي شك؟ -كان بايث قد استدار نحوي. حتى تلك اللحظة كنا نتحدث بينما ننظر إلى الرصيف المواجه. اعترفت:

-في.... في الحقيقة لا أعرف فيم أفكر أو ماذا أقول بعد كل هذا.

-نعم. إنه موراليس. ويمكنني أن أقول لك أنني تأكدت من هذا. حسنًا. أقصى درجة من التأكد يمكن للمرء أن يصل إليها في مثل هذه الحالات. أول أمس ذهب إلى لوجانو. وجَّهت بعض الأسئلة، وأعطني بعض الجيران بضع معلومات. والأكثر من هذا، أخبروني أن بضعة فتيان ذهبوا وسألوا عن ذات الأمر.

-رجال رومانو؟

- آه، أخبروني في أحد البارات بالمنطقة أن زوجين عجوزين رأيا كل

شيء. وهكذا ذهبت لرؤيتهما. يمكنك أن تتخيل هذا الوضع. الرغبة في الكلام في البار متناسبة بشكل عكسي مع الرغبة في الكلام مع رجل شرطة. اضطررت لتهديدهما، تصنَّعت الغضب، هددت بحملهما للإدلاء بأقوالهما في قسم الشرطة. كان هذا سيكون لطيفًا: لا أعرف إلى أين كان يمكنني حملهما. في النهاية تكلَّما. رأيا كل شيء. أنت تعرف حياة كبار السن. أو ربما يجب أن أقول إنك تعرف حياتنا؟ ينهضان في الفجر، حتى وإن لم يكن لديهما أي شيء يفعلانه. وبما أنه لا يوجد إرسال تلفزيون في تلك الساعة، يستمعان للراديو بينما ينظران عبر النافذة. وكل فجر يريان فتى مألوف الوجه يدخل البناية المقابلة. الغريب في تلك الليلة أن رجلًا خرج فجأة من حديقة صغيرة مليئة بالشجيرات وضربه بقضيب معدني على رأسه فسقط الفتى على الأرض. وقام المعتدي (رجل طويل القامة، أشقر فيما يبدو، رغم أنهما لم يرياه جيدًا) بإخراج مفتاح من جيبه ويفتح صندوق سيارة بيضاء مركونة بجوار الرصيف، بالقرب منهما. العجوزان لا يفهمان كثيرًا في ماركات السيارات. قالا إنها أكبر من فيتيتو وأصغر من فورد فالكون.

حاولت التذكر.

-موراليس يمتلك، أو كان يمتلك، لا أعرف، فيات 1500 بيضاء.

-ها هي المعلومة التي كانت تنقصني. بعد ذلك أغلق الرجل الطويل حقيبة السيارة بعناية، ركبها وانطلق بها.

ظللنا صامتين لبرهة. في النهاية كسر بايث ذلك الصمت.

-يبدو لي أن ذلك الفتى موراليس منظم دائمًا. ذات مرة وصفت لي صبره في مراقبة محطات القطارات. كما لم يكن سيطلق عليه الرصاص في منتصف الشارع ثم يفر هاربًا كالمطارد بعد ذلك. لابد أنه كان قد اختار أرضًا خلاء

لدفنه بعد إخراجه من السيارة والقضاء عليه بأربع طلقات.

تذكرت حواري الأخير مع موراليس، في مقهى شارع توكومان، وجرؤت على الاختلاف قليلًا مع رجل الشرطة، معتقدًا أن هذا هو دوري في المساهمة في الفرضية.

-لا. لابد أنه قد ربطه لكي ينتظر إفاقته. لابد أنه قد أطلق عليه الرصاص بعد ذلك. بخلاف ذلك كان الانتقام سيبدو فعلًا مبتسرًا -فجأة انتباني شكٌ-: ألم يظهر أي جريح، بالغ الجراح، في أي مستشفى بالمنطقة؟

-لا. لقد استقصيت هذا بدقة.

-إنه لم يثق في تركه معوقًا إذن.

وشرحت له ذلك الجزء من حواري الأخير مع الأرمل.

-وهذا ليس سهلًا على الإطلاق.... -اختتم بايث-. هناك فارق بين التخطيط للأمور بينما يكون المرء مستلقيًا في فراشه، في ليالي الأرق، بعينيه مغروستين في السقف، وبين تنفيذ الخطة. تنفيذ الخطة التي نحلم بها أمر مختلف تمامًا. وبما أنه فتى حذر وفطن، لابد أنه قد فكَّر بعد وضع جومث داخل صندوق السيارة أن عصفور في اليد أفضل من مائة يطيرون. ربما انتظر بالفعل لكي يراه مستيقظًا.

-من يدري في أي أرض خلاء ألقى به - قلتُ.

وصل قطار على الرصيف حيث كنا جالسين، لكن لم يصعد وينزل سوى أفراد قليلين للغاية. كان المساء يتقدم والقطارات نحو العاصمة تصبح خاوية باضطراد.

-لا أعتقد أنه ألقى به -صوبني بايث بلباقة-. لابد أنه قد دفنه بعناية

شديدة، بحيث لا يعثر عليه أي شخص ولا حتى مصادفةً بعد مائتي عام.

مرَّت علي بسرعة ذكرى مواrليس جالسًا إلى مائدة المقهى، بينما يرتب الصور بدقة بأرقامها في مجموعات حسب المناسبة.

-هذا حقيقي. لابد أنه كان قد اختار المكان والطريقة قبل شهور -قلت مختتمًا.

وتأخرت لبعض الوقت في كسر الصمت الذي فرض نفسه.

-هل تعتقد أنه أحسن صنعًا بقتله.

اقترب كلب ضال، نحيف وقذر، وأخذ يتشمم حذاء الشرطي. لم يهشه بايث، لكن عندما حرك ساقيه فزع الكلب وابتعد جريًا.

-ما رأيك أنت؟ -ردَّ لي السؤال.

-إنك تتفادى السؤال وترده لي.

ابتسم بايث.

-لا أعرف. ربما يجب أن يكون المرء في مكان الفتى.

بدا أنه قد أنهى كلماته. لكن بعد برهة صمت طويلة أضاف:

-أعتقد أنني كنت سأفعل مثله.

لم أتكلم في الحال. في النهاية وافقته على رأيته.

-أعتقد أنني أيضًا كنت سأفعل مثله.

37

بعد بضعة ساعات كنت أركب تاكسي مع ساندوفال ولم نتحدث تقريبًا، كأن كلانا يأسف لما يوشك على الوقوع ولم تكن لدينا رغبة في التظاهر، هو بأنه مبتهج وأنا بأنني مقتنع. أرشد ساندوفال السائق.

-اعبر تحت جسر الجنرال باث واتركنا هناك، على رصيف أتوبيسات المسافات الطويلة.

أنزلنا الحقائب من الصندوق ونظرت له لأودعه. كانت الثانية عشر إلا عشرة دقائق. قاطعني ساندوفال.

-لا. سأنتظر حتى تصعد.

-لا تكن سخيفًا. اذهب الآن، لديك عمل في الغد. ماذا ستستقل من هنا حتى بيتك؟ انتهز وجود التاكسي.

-آه، نعم. وأتركك الآن بمفردك. لا تمزح.

أعطاني ظهري وتوجَّه للسائق ودفع مقابل التوصيلة.

قرَّبنا الحقائب من مجموعة الأفراد الذين كانوا ينتظرون ذات الأتوبيس كما قيل لنا. إنه يأتي من الجهة الجنوبية، من إبيانادا، من هنا -أشار لي ساندوفال-. ستصل مساء الغد.

-يا لها من رحلة رائعة -تأسفت.

على الرغم من كل شيء، عندما وصل الأتوبيس الضخم اللامع، واقترب من الشريط الحاجز أمامنا، لم يمكنني تفادي نوبة انفعال طفولية إزاء فكرة السفر بعيدًا، كما كان يحدث لي عندما كان أبواي يصطحبانني في الإجازات. لهذا ابتهجت عندما أعطاني ساندوفال التذكرة ورأيت أن الرقم المدون بها هو رقم 3: إلى اليمين، الصف الأول. نظرنا بينما يقوم أحد السائقين ذوي القمصان السماوية ورابطات العنق الزرقاء بقذف حقائبي إلى أعماق صندوق المتاع بعد أن عرف أنني ذاهب إلى سان سلفادور. ووضعوا حقائب المسافرين إلى توكومان وسالتا في متناول اليد. بالفعل كنت أفر إلى أبعد نقطة في الأرجنتين. ابتعدنا عندما صفق السائق الباب وأدار المزلاج.

تعانقنا بجوار باب الأتوبيس. استدرت وبدأت أصعد السلالم.، لكن سرعان ما التفت لكي أحدثه.

-أريد منك أن تفعل شيئًا -لم أكن أعرف كيف أبدأ -. أو بشكل أدق، أريدك ألا تفعله.

-اطمئن يا بنجامين -بدا أن ساندوفال كان ينتظر هذا الحوار-. كيف يمكنني السُكر إن لم يكن هناك من سيدفع مقابل الكئوس ويحملني في تاكسي إلى البيت؟

-هل هذا وعد؟

ابتسم ساندوفال، بدون أن يرفع عينيه عن الأسفلت.

-ايه! لا تبالغ. لا تطلب مني كل هذا.

-إلى اللقاء يا ساندوفال.

-إلى اللقاء يا تشاباررُو.

أحيانا نشعر نحن الذكور بالأمان خلف قناع من البرود في معاملتنا للأشخاص الذين نحبهم. حييته من خلف النافذة بعد أن جلست على مقعدي. رفع يدًا، ابتسم وذهب لركوب أتوبيس 117، الذي كان يمر كل مائة عامة في تلك الساعة.

38

لافتة «زاراتيه 18». التفكير في أن كل حاضري محصور في ثلاثة حقائب مودعة في صندوق الأتوبيس كان يُشعرني بالضيق، بالدونية، وبالضعف. لم يمكنني إنقاذ سوى بضعة كتب من كتبي المفضلة. لا شيء تقريبًا من الملابس، لأن أحد الأخبار السيئة التي جاء لي بها ساندوفال في البنسيون إن معظمها كان مشقوقًا من أعلى إلى أسفل، خاصة القمصان والسترات.

لم أودع أمي. ولا زملائي في المحكمة.

لافتة «روساريو 45». كان الضوء يشق العتمة، ومن حين لآخر ينير لافتات خضراء بحروف بيضاء. هل وصلنا إلى سانتا فيه» كم كيلومترًا تفصل روساريو عن حدود بوينوس أيرس؟ إن كنا قد عبرنا تلك الحدود فإنا لم أنتبه لهذا.

حاولت النوم بضع مرات، لكن لم يغمض لي جفن. أيام البنسيون كانت فراغًا مملًا دائمًا، حيث كان الوقت يتمدد، ويصبح كالعلكة. لكن في اليوم الأخير وقعت أمور كثيرة، وعرفت أمورًا أخرى كثيرة، فكنت أشعر أن الزمن قد انتقل من السكون إلى أن أصبح إعصاريًا.

أنهى بايث لقاءنا في محطة رفائيل كاستيو بإعطائي عنوان القاضي إجيريجراي، في أوليبوس. سألته عن علاقته بكل هذا.

-هذا ما حاولت أن أشرح لك في البداية، وأخبرتك أنه كان يجب أن

يظل للنهاية.

حينئذ تذكرت.

- خوخوي؟

- بالضبط. إنه رجل مستقيم، ولديه ما يكفي من العلاقات لتدبير نقلك. كانت فكرته.

-ولماذا؟

- لا أعرف. أو بشكل أدق، أعتقد أن استماعك لشرحه أفضل. إنه ينتظرك.

-لكن، ألا توجد طريقة أخرى سوى الفرار كمُطارد؟ -لم أكن أتقبل انتهاء حياتي في أي لحظة.

نظر لي بايث خلال برهة، ربما لكي أدرك حقيقة الوضع بنفسي. لكن هذا لم يحدث، وهكذا انتهى الأمر بشرحه للموقف:

-هل تعرف ما هي المشكلة يا بنجامين؟ الطريقة الوحيدة للتأكد من أن رومانو سيتوقف عن مضايقتك هي معرفته بالحقيقة. يمكنني تدبير لقاء، إن رغبت في هذا. لكن من أجل هذا يجب أن أخبر رومانو أنك ليست من قتل صديقه وإنما ريكاردو موراليس. -توقَّف قبل أن ينهي الفكرة-. إن رغبت في هذا سنفعله.

«اللعنة»، فكرتُ. لا يمكنني فعل هذا، اللعنة. لا يمكنني.

-أنت مُحق -وافقته-. لندع الأمور كما هي.

تودا عنا بدون مبالغات. كتب لي في ورقة أرقام الأتوبيسات التي يجب أن أركبها للوصول إلى أوليبوس. في تلك اللحظة لم أهتم بأن أبدو ساذجًا،

فسألته عن لون كل منها.

استغرق من الأمر ساعتين حتى وصلت في ذلك المساء البارد في نهاية ذلك الشتاء الفظيع. كان بيت أجيريجراي شاليه جميل تتقدمه حديقة. قلت لنفسي إنني إن عدت مرة أخرى إلى بوينوس أيرس فسوف أذهب للعيش في كاستيلار. لا للمساكن في وسط المدينة بعد ذلك.

فتح القاضي الباب بنفسه، ودعاني للدخول إلى مكتبه مباشرة. أعتقد أنني سمعت صخبًا صادرًا عن المطبخ وعن أطفال. شعرت بالحرج من إمكانية وصولي في وقت غير مناسب، وأخبرته بهذا.

-لا توجد مشكلة يا تشابارُّو. لا تشغل بالك. لكن، كلما كان عدد الأفراد الذين يرونك أقل، سيكون هذا أفضل، أعتقد هذا.

اتفقت معه في الرأي. عرض علي تناول القهوة لكنني رفضت الدعوة.

-بايث أطلعني على كل شيء -هكذا بدأ كلامه، وابتهجت لهذا لأن مجرد فكرة تكرار كل الحكاية كان يثقل علي مسبقًا -. لكنني لا أعرف إن كان الحل الذي توصلنا له يروق لك.

حاولت ألا يبدو صوتي قلقًا:

-خوخوي...

-خوخوي -أكدَ القاضي-. قال لي بايث إن ذلك القاتل...

-رومانو.

-رومانو، نعم. أن رومانو هذا يلاحقك بسبب أمر خاص. شيء ما شبيه بانتقام شخصي، هل أنا على صواب؟

-تمامًا -قلتُ موافقًا. بايث لم يخبره بكل شيء تمامًا. أدركت أن الشرطي

رجل حذر حتى مع أصدقائه. شكرته في داخلي على هذا. كانت المرة الألف التي أشكره فيها.

-وهكذا فإنه يلاحقك بواسطة القتلة الذين يعملون لحسابه. لنفترض أنه لا يتوفر على إمكانات كثيرة، باستثناء المجموعة الخاصة به.

-ما يشبه مافيا في الضواحي -حاولت المزاح.

-شيء شبيه بهذا. لا تضحك. هذا ليس تعريفًا سيئًا.

-والعمل يا دكتور؟

-حينئذ فكرت مع بايث في إننا يجب أن نرسلك إلى مكان بعيد بما يكفي لكي لا يمكنهم مضايقتك، حتى إن أمكنهم العثور على مكانك. وهكذا تظهر خوخوي. لأن رومانو سيعرف بانتقالك آن آجلًا أم عاجلًا يا تشابارُّو. أنت تعرف كم تدوم الأسرار في المحكمة. لكن الحل هو إثباط همته، تعقيد الأمور عليه.

توقف خلال لحظة عندما صدر وقع أقدام نسائية في الممر، لكنها استدارت في النهاية إلى وجهة أخرى. ذهب أجيريجراي إلى الباب وأغلقه بنعومة. عاد للجلوس.

- ابن عمي قاض فيدرالي في سان سلفادور دي خوخوي. أعرف أن هذا المكان يبدو لك كنهاية العالم. لكن أنا وبايث لم نعثر على حل بديل أفضل من هذا.

ظللت صامتًا، متشوقًا لسماع المزايا التي لا حصر لها في انتقالي للحياة والعمل في مؤخرة العالم.

-أنت تعرف أن المحاكم الفيدرالية تتبع السلطة القضائية الوطنية، أي

أنها داخل نظامنا الهيكلي ذاته. يتعلق الأمر إذن بمجرد تغيير جهة العمل. في ذات المنصب بالطبع.

-ويجب أن تكون جهة العمل في خوخوي -حاولت ألا يبدو في صوتي إذعان.

- هل تعرف ما هو الوضع؟ توجد مزايا رغم أنك قد لا تعتقد هذا. إحداها أن إرسالك على مبعدة ألف وتسعمائة كيلو متر من هنا سيجعل من المستحيل تقريبًا أن يضايقك هؤلاء الأفراد. والأخرى هي وجود ابن عمي إن خطر لهم مضايقتك.

انتظرت إيضاحات حول هذه النقطة. من كان ابن عمه؟ سوبرمان؟

-إنه رجل ذو أفكار تقليدية إلى حد كبير. تخيل هذا. أنت تعرف طبيعة المجتمع في الأقاليم -لم أكن أعرف، لكنني بدأت أحدس هذا-. لا تظن أنه شخص لطيف أو طيب. لا شيء من هذا. إن ابن عمي يشبه ملعقة من البصاق تقريبًا. وهو شرير كالعقرب. لكن ميزته أنه شخص هام ويحظى بالاحترام هناك، وما أن يقول لأربعة أو خمسة أفراد من المهمين هناك إنك تحت حمايته، فلا يجب أن تهتم بأي شيء لأن الذباب لن يجرؤ على مضايقتك. وإن حدث أي شيء غريب، مثل دخول أربعة أغراب في المحافظة على متن سيارة فالكون بدون لوحة أرقام، فسيعرف على الفور. إن أطلق حيوان لاما غازًا من مؤخرته فوق الجبل فسيعرف ابن عمي بهذا بعد ربع ساعة. هل تفهم ماذا أعني.

-أعتقد أنني أفهم.

«رائع»، فكرتُ. سأذهب لأعيش في أخر البلاد وأعمل في كنف رجل إقطاعي إلى حد ما. لكن في تلك اللحظة مرت على عقلي صورة منزلي المهشم

فهدأت روحي على الفور. إن كنت سأصبح بمنجاة في كنف ذلك الرجل، من الأفضل أن أدفن غروري في أعمق أركان روحي وأتقدم بدون تردد. تذكرت شعوري بالأسى على القاضي باتيستا قبل سنوات عندما لم يجرؤ على توجيه الاتهام لرومانو، في قضية الاعتداءات. أنا أيضًا كنت جبانًا. أنا أيضًا عرفت حدودي.

عندما رافقني إلى الباب شكرته من جديد.

-لا شكر على واجب يا تشابارُّو. لكن، يجب أن تعود فور أن تستطيع،. لم يعد هناك نواب دوائر مثلك.

كأن كلماته أعادت لي هويتي المفقودة فجأة. أدركت أن أسوأ شيء في هذه الأيام الثمانية كهارب أنني لم أكن أشعر بذاتي.

-أشكرك مرة أخرى -ودعته بينما أشد على يده بقوة.

سرت حتى محطة أوليبوس. قطارات شركة ميتريه للسكك الحديدية كانت كهربائية، مثل قطارات سارمينتو، إلا أنها كانت نظيفة، خاوية تقريبًا وتسير في مواعيدها. لكن حتى ذلك الحسد المناطقي كان يكشف لي كم كنت أتوق لكاستيلار. هل يشعر كل الفارين بثقل الحنين إلى ماضيهم؟ ركبت المترو في محطة رتيرو، وبعد ذلك مشيت حتى البنسيون.

-هناك رجل ينتظرك في غرفتك -فاجأني المالك. تهاوت ساقاي-. قال إنك تعرف بمجيئه. قدَّم نفسه كشريك في البار. هل هذا ممكن؟

-آه، نعم، نعم -أطلقت ضحكة بدت مفرطة بالنسبة للمالك. ساندوفال

لن يتغير أبدًا.

كانت ينتظرني مستلقيًا على الفراش. تعانقنا.

استحممت. بعد ذلك أخذنا ذلك التاكسي حيث لم نتكلم.

39

للأسف لم يكن مرض وموت ساندوفال مفاجئين، وكان لدينا نحن محبوه عامًا لكي نعتاد على الفكرة. لكنه تقبَّل الأمر بذات السخرية الميتافيزيقة التي كان يطبقها على كل أموره. قال إنه لم يجد أي شخص قادر على التقدير السليم للأثر النافع للكحوليات على جسده، وأنه كان قادرًا على تناوله بجرعات كبيرة. وبالطبع جاء هذا الانهيار، هذا التدهور الصحي السريع كالبرق بلا إمكانية للشفاء، لأن توقفه عن الشراب كسر التوازن المقدس الذي منحه له الويسكي. كان يقول هذا لمن يرغب في الاستماع له (من بين المقربين، لأنه ظل متماسكًا بالنسبة للأغراب، بل ربما كان جافًا). كان يقول هذا مبتسمًا، وكنا نحن من ألححنا عليه دائمًا في ترك الشراب نشكر له عفوه عنا. فيما عدا ذلك، استمر في العمل في المحكمة حتى النهاية، أو تقريبًا حتى النهاية.

تحدثت مع أليخاندرا كثيرًا خلال الشهور الأخيرة. كنت أتحدث معها أكثر مما أتحدث معه. لأن تلك المكالمات بين الأقاليم كانت غالية، أو لأننا كذكور كنا نعتبر أن إظهار الحزن تعبير عن الضعف. عندما كنت أتحدث مع ساندوفال كنا نتكلم عن أي أمر عابر ونتفادي تمامًا أي إشارة شخصية أو حزينة أو مثيرة للاكتئاب. لم أكن أسأله عن مرضه ولم يكن يسألني عن منفاي في خوخوي. أعتقد أن عدم رؤية وجهينا بينما نجيب بردود تقليدية كان يزيد من تيبس حواراتنا، التي لم نرغب في إلغائها على الرغم من هذا.

هكذا لم أندهش عندما جاء لي أحد الكتبة بالهاتف يوم خميس بينما يقول ببساطة «السنترال، مكالمة إقليمية»، ومن الجانب الآخر، وسط صدى وصرير الاتصالات في ذلك الحين، جاءني صوت أليخاندرا متماسكًا في البداية، بعد ذلك محملًا بألم رهيب، وفي النهاية هادئًا، ربما مرتاحًا.

كانت أول رحلاتي بالطائرة في تلك الليلة. طريقتي في إظهار الألم الذي شعرت به كانت غريبة. كان لدي وقت كاف لإعداد نفسي لهذا الخبر، وكانت روحي تنقبض بينما أرى أن ما كنت أشعر به في توقعاتي المسبقة كان أكثر من ألمي المباشر على فقدان صديقي.

قدَّمت لي بوينوس أيرس عرضًا هائلًا في السماء الليلية. ذات البرود الشعوري الذي انتابني عندما عرفت بخبر موت ساندوفال عاودني تجاه نفسي عندما وطئت أرض المطار بقدمي. لم أكن أشعر بالخوف. ولا حتى بالحنين. كما لم أكن مبتهجًا بالعودة بعد ست سنوات. شعرت بالذنب خلال برهة: لم أخبر أمي بهذه الرحلة السريعة، لأنني لم أكن راغبًا في إطالتها وأيضا لم أرغب في إحزانها عندما تعرف أنني أمضيت يومًا على مبعدة عشرين كيلومترًا بدلًا من ألفين تقريبًا ولم أذهب لزيارتها. الانتظار حتى يوليو أفضل، عندما تأتي لزيارتي مثل كل عام.

لم تكن لدى سائق التاكسي فكرة أفضل من عرض محاضرة انتوى أن يشرح لي من خلالها، حسبما فهمت، أن الإنجليز لن يستطيعوا مُطلقًا إعادة غزو جزر فوكلاند بهذا الأسطول الحقير الذي أرسلوه. قاطعته على الفور:

-لا أرغب في الكلام. أنا بحاجة للراحة- ولاحتمال تفسيره عدم اهتمامي كخيانة مُحتملة لوطننا، أضفت-: بالإضافة إلى هذا، فأنا نمساوي.

التزم بالصمت. بينما كانت السيارة تخترق باليرمو كانت بعض الذكريات

تفتح طريقها. تحققت برضى تقريبًا أنها تؤلمني. كنت قد فزعت لبرودي خلال الساعات السابقة. ربما لهذا انتهى بي الأمر بالتساؤل عن أحوال ابن العاهرة رومانو. هل ما زال راغبًا في القضاء علي؟ لم يكن هذا سؤالًا ثانويًا. اضطراري لمواصلة الحياة في خوخوي أم لا كان يعتمد على إجابته. لكنه كان سؤالًا لا يمكنني توجيهه لأي شخص. مات بايث في 1980. حينئذ لم أجرؤ على زيارة بوينوس أيرس، على الرغم من مرور أربع سنوات على انتقام موراليس وعلى الاعتداء الذي نجوت منه بأعجوبة. لكنني بعثت أرسلت خطابًا طويلًا لابنه. دائمًا ما اعتبرت من الأهمية بمكان أن يعرف الأبناء القيمة الحقيقية لبعض الآباء. فضلًا عن هذا، بدون بايث كنت سأشعر أنني تائه. لهذا فكرت في الذهاب من الطائرة حتى السهر على المتوفي، ومن السهر على المتوفي إلى الدفن، ومن الدفن إلى الطائرة مرة أخرى.

لم يكن السهر على المتوفي في بيت ساندوفال وإنما في قاعة خاصة بشركة دفن. كرهت كل المظاهر العقيمة في طقوس الدفن في بلادنا منذ طفولتي. هذه الكُفُن الشفافة، الشموع، الرائحة الفظيعة للزهور الميتة. دائمًا ما بدت لي خدع تافهة لأناس واهمين وضجرين، يحاولون التحايل على الوقع الرهيب المهيب للموت. ربما لهذا ذهبت بدون المرور على قاعة السهر على المتوفي. كانت أليخاندرا تقضي ساعات منتصف الليل بينما تحاول النوم على أريكة. أعتقد أنها ابتهجت لرؤيتي. بكتْ قليلًا وشرحت لي شيئًا متعلقًا بأخر علاج تلقاه زوجها في محاولة للحصول على معجزة مستحيلة. بدا لي أنها كررت الحكاية مرات كثيرة طوال اليوم، لكنني لم أجرؤ على مقاطعتها. عندما بدا لي أنها انتهت جسرتُ على الكلام.

-زوجك كان أفضل رجل عرفته طوال حياتي.

توقفت عن النظر لي وحادت بعينيها إلى جانب. رمشت عيناها بضعة

مرات، لكن لم تفلح أي حيلة في منع البكاء. في النهاية أمكنها أن ترد علي.

-كان يحبك كثيرًا، وكان يقدرك كثيرًا، حتى أنني أعتقد أنه توقف عن الشراب لكي لا تشعر بالخوف عليه، بعدما لم تعد قادرًا على مساعدته.

كان دوري في البكاء. تعانقنا في صمت. في النهاية أمكننا تجاوز الطقوس الزائفة للمكان، وتكريم ذكرى زوجها وصديقي.

عرضت علي قهوة وتحدثنا عن أمور كثيرة. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. إن كان أحد المعارف أو الأقارب قد تأخر عن المجيء فسوف يأتي في أولى ساعات الصباح، قبل الدفن. خصصتُ وقتًا معتبرًا لإخبارها بتطورات منفاي في خوخوي. سألتني عن سيلفيا بالتفصيل. كان بابلو قد حدثها عن زواجي الجديد، لكن الفضول الأنثوي لدى أليخاندرا كان يرغب في معلومات أكثر مما قنع بها ساندوفال في خطاباتنا ومحاوراتنا الهاتفية. حكيت لها إنها الأخت الصغرى لسكرتير محكمة مدنية، إن تعارفنا في ذلك المجتمع الذي يشبه الخاتم في حجمه كان أمر فظيعًا، إنها جميلة للغاية، وساعدتني هالة المنفي السياسي الغامض ذي التاريخ المجهول والقادم من مكان بعيد في الحصول على اهتمامها. وقلت إنني أحبها كثيرًا. عندما انتهيت من الكلام، معتقدًا أنني قلت كل شيء، بدأتْ استجوابها. قمت بها استطعت، بدون أن يفارقني الاندهاش من قدر الأمور التي قد ترغب امرأة في معرفتها عن امرأة أخرى. كانت الساعة الثالثة تقريبًا عندما أمكنني إقناعها بالذهاب إلى بيتها لتنام قليلًا. لم يكن أي شخص سيأتي في تلك الساعة. وأعتقدُ أن فكرة بقائي بمفردي مع ما تبقى لنا من زوجها قد راقت لها. وبشكل مشوش بدت لي فكرة مناسبة أيضًا.

لم يحضر الكثيرون الدفنَ. بعض الأقارب، بضعة أصدقاء وموظفين في المحكمة. لم أكن أعرف الكثير منهم: ربما كان هذا النأي هو أكبر دليل

ملموس على نفيي. ارتحت لرؤية موظفين آخرين قدماء، وتبادلت معهم التحيات والكلمات اللطيفة. كما كان هناك كل من فورتونا لاكايه وبيرث، رئيسانا السابقان. كان القاضي المتقاعد يبدو هرمًا للغاية وكأنما يوشك على السقوط أرضًا، لكن وجهه كان يقاوم في المعركة الهائلة ضد مرور الزمن. لم يعد بيريث محاميًا عموميًا: أصبح قاضي أحكام، لدهشة الرجال والنساء من ذوي الفطنة والعقل الراجح.

بينما كان الآخرون يعودون إلى السيارات، تعطلت لبرهة لألقي كتلة من التراب فوق القبر دون أن يراني أي شخص. استدرت لأتحقق من عدم وجود شهود على فعلي: في نهاية المجموعة الراحلة كان هناك سكرتيرنا وقاضينا السابقين. رفعت كتلة التراب الكبيرة وأخذت أجزئها إلى قطع كثيرة. بينما كنت ألقي بها أخذت أتلو ما يشبه صلاة علمانية تمامًا بصوت خفيض: «يوم يعقد البلهاء حفلًا، سيكون هذان في استقبال الآخرين على الباب، سيقدمان لهم المشروبات الباردة، ويعرضون الحلوى ويترأسان النخب وينظفان فتات الطعام من فوق شفاههم».

ابتعدت مبتسمًا عندما انتهيت.

المزيد من الشكوك

«لا ينقصني أي شيء»، يفكر تشابارُّو بينما يعود إلى بيته بكيس الخبز الدافئ في يده. كيف لا يكون ساخنًا إن كانوا يفتحون المخبز من أجله تقريبًا.

يفزع لاكتشاف هذه العادات الجديدة كعجوز، ربما كما يحدث لآخرين مع التجاعيد أو الشيب. حتى تقاعده كان النوم جائزة ومتعة يتنازل عنه بدون تردد وكان يخرج منه في مواقيت دقيقة، الآن أصبحت ساعات اليقظة تفيض في كل الأوقات. لهذا، عندما يتعب من التقلُّب في الفراش، ويغشي الضوء النافذ من الخصاص عينيه، ينهض ويخرج لشراء الخبز من الناصية التالية، أنيق الملبس، لأنه يخشى التحول إلى أحد هؤلاء العجائز المهملين الذين يخرجون للشارع بالفانلة وبنطلون رياضي والصندل.

بعد العودة يعد شراب الماتيه ويحمل قطعتين من الخبز في طبق إلى المكتب، لكي لا تتساقط منه الفتات. يبتسم عندما ينتبه إلى أن زواجه لمرتين كان قادرًا على تهذيب عاداته المنزلية على الأقل.

عندما يجلس إلى المكتب يأخذ في مراجعة أخر ما كتبه ويشعر بالحزن. من جانب آخر فإنه يشك في قيمة الاحتفاظ به كجزء من الكتاب. هل يضيفه للحكاية التي يرويها؟ إن كانت الحكاية التي يرويها عن ريكاردو موراليس أو عن إيسيدرو جومث، فلن يضيف لها شيئًا، لا علاقة له بهما. لكن إن كانت الحكاية التي يحكيها هي حكايته هو، حكاية بنجامين ميجل تشابارُّو،

فنعم: لا يمكن لتلك الزيارة السريعة لبوينوس أيرس في مايو 1982 أن تكون خارج الحكاية.

يعود للتساؤل أي الحكايتين يكتب، وتنتابه شكوك جديدة، أو قديمة مكررة. إن كان يكتب سيرةً ذاتية فإنه يترك جانبًا الكثير من الظروف والأشخاص اللذين أثروا في حياته. على سبيل المثال، ماذا قال عن زوجته الثانية سيلفيا؟ القليل أو لا شيء. يجب أن يراجع ما كتبه، لكنه يعتقد أنه لم يذكرها سوى في الفصل السابق حول موت ساندوفال. لكن، في نهاية الأمر، ماذا يمكنه أن يضيف؟ أنهما عاشا معا طوال عشرة سنوات؟ أنهما عاشا معا أربع سنوات أخرى منذ جرؤ على العودة لبوينوس أيرس في نهايات 1983، عندما لم يعد هناك من يخشى العسكر ولا أتباعهم؟ وخلال هذه السنوات الأربع بدا أن سيلفيا هي التي تعيش في المنفى، بعيدًا عن عائلتها، عن صديقاتها، عن ذلك المجتمع الذي كانت تشكو منه عندما كانت تعيش فيه، لكنها بدأت تحن إليه منذ اليوم الأول في بوينوس أيرس، التي رأتها دائمًا عدوانية ومستفزة.

بعدما منحه القانون الجديد للطلاق الحق في الزواج مرة أخرى، تحدَّث تشابارُّو عن الزواج، ماطلت سيلفيا في الردَّ. وعندما حاول محاصرتها وإجبارها على اتخاذ قرار، اعترفت له بأنها ليست متيقنة من حبها له بما يكفي.

تشابارُّو ذاته ساعدها على إعداد الحقائب، استعار سيارة لكي يرافقها حتى المطار، وبدقة الكتبة العموميين أرسل لها كل الممتلكات المشتركة التي أخذت تطلبها بعد ذلك، بدءًا من محمصة الخبز الكهربائية حتى طبعة بديعة من موبي ديك اشترياها معا في رحالة سريعة إلى سالتا.

بعد ذلك لم يتكلما معًا. عرف تشابارُّو أنها تزوجت، لكنه لم يرغب مُطلقًا في معرفة الكثير من التفاصيل عن الأمر. في تلك الفترة قرر التخلي

عن النساء، أو عن النساء اللائي قد يحظين بأهمية في حياته وبالتالي إيلامه. كان هذا سهلًا للغاية في البداية، حتى أنه قال لنفسه إنه كان قرارًا حكيمًا، إن رغبته في مشاركة حياته مع شخص آخر كانت خطأً، لأنه دائمًا ما يندم على هذا بعد ذلك. فقدَ مارثيلا بسبب الضجر، وفقدَ سيلفيا لأنها قررت هذا بنفسها. لم يكن راغبًا في مواصلة الفقد. هذا أفضل. دائمًا ما ستكون هناك امرأة في متناول يده وعلى استعداد لاقتسام متعة عابرة. الانتقال إلى كاستيلار أفضل، كما كان يرغب بشدة عندما اضطر للرحيل إلى خوخوي. إلى البيت الذي عاش فيه أبواه.، البيت الذي يكتب فيه هذه الحكاية الآن، بينما ينظر من حين آخر للحديقة وينهض لإعداد الماتيه. هل سيحكي هذا في روايته؟ لا معنى لهذا. من الأفضل أن يعود لموراليس وإلى الصفحات القليلة التي تبقَّت من حكايته. وبعد ذلك؟

لا يوجد أي شيء بعد ذلك. أو نعم: إعادة الآلة الكاتبة للمحكمة، المحكمة اللعينة تحت إدارة الدكتورة إيريني هورنوس، ليصعقها برق من السماء. لأن كل شيء كان يسير على ما يرام حتى 9 فبراير 1991، عندما عبرت باب الإدارة بعد خمس عشرة سنة، بعد أن أصبحت قاضية. حتى تلك اللحظة كان قد استطاع وضع النساء في مستوى قليل الأهمية، مع الدخول في علاقات عاطفية عابرة مع إحداهن بدون ارتباطات هامة من أي نوع، وأن يعيش حياته في كاستيلار كأرمل مُنظم.

كان تشابارُّو قد تعهد لنفسه بألا تصيبه هذه الفتاة بالجنون مرة أخرى، لأنه كان على ما يرام هكذا، ولأنه لا يريد خيبة أمل هائلة مرة أخرى، وسهاد آخر، وثقب آخر في أحشائه. ولهذا قال لها يوم عادت للمحكمة «كيف حالك يا دكتورة. لقد مرَّ وقت طويل..»، وعلى الرغم من ملاحظته أنها صعقت، لأنها كانت تتقدم وتعرض وجنتها لتبادل قبلة تحية، واضطربت

كشخص ينتظر شيئًا ما ويجد شيئًا آخر مختلفًا، شخص ينتوي المخاطبة بدون ألقاب ويجد سورًا من أربعة أمتار بدون تشققات. واضطرت للرد عليه «بخير، وحضرتك؟ بالفعل، لقد مرَّ وقت طويل». ولهذا، لأن الموقف أثار غضبه أو ضايقه أو أحزنه -أو أثار كل هذه المشاعر مجتمعة-، غمغم تشابارُّو بما يشبه الاعتذار لأنه ترك الكثير من العمل فوق مكتبه وابتعد بسرعة. ابتعد بسرعة كافية للنجاة من عطرها المعتاد، لكنه لم ينج من سماع الإجابات المعهودة على الأسئلة المعهودة التي وجهها زملاؤه حول عائلتها، وإجابتها أن البنات بخير. وزوجك؟ زوجي بخير، يعمل كثيرًا وصحته جيدة للغاية. ليصعقه برق أيضًا ابن الألف عاهرة، مع الاعتذار له أيضًا، لأن الغبي لم يذنب بزواجه منها، لكن لا يهم. بأي حق تفعل به هذا، هو الذي كان بخير حال بمفرده أو مع رفقة عابرة.

بدءًا من تلك اللحظة لم يعد هناك مذاق لأي شيء أو ما هو أسوأ، لأن كل شيء أصبح له مذاقها: الهواء وشرائح الخبز، السهاد والقُبَل لأي امرأة أخرى يقيم معها علاقة. وهكذا كان أفضل شيء هو طلب النقل، لكن هذا لم يحدث، لأنه لم يمتلك الشجاعة الكافية لتغيير المحكمة والموظفين، وهكذا لم يكن هناك حل من أي نوع، باستثناء الصمت، أن يمر الزمن، تجاهل نيران عينيها عندما تنظر، أن يحيد بنظرته بعيد عن فتحة الصدر عندما يقترب من مكتبها من الخلف بالقضايا التي تحتاج بالتوقيع. اللعنة، الحياة هكذا عذاب دائم.

لا. بشكل نهائي لن يكتب رواية يكون هو بطلها. كان حانقًا على ذاته بدرجة لا تسمح له بمواصلة تأمل حياته. لكنه قرر الإبقاء على فصل موت ساندوفال. حكاية موراليس اللعينة متشابكة مع حياته الخاصة. ألم يقض سبع سنوات من حياته بينما يعد الغنم في الجبال لتورطه في هذه المأساة؟ إنه

غير نادم. لا يتنصل من ماضيه. لكن بسبب هذا تحديدًا لن يحذف أي شيء مم كتب.

وهذا أمر آخر: ماذا سيفعل بكل ما كتب؟ كتابته تشكل حزمة لطيفة فوق المكتب الذي كان شاغرًا قبل ستة شهور، أو بشكل أدق كانت عليه حزمة أوراق بيضاء بجوار الآلة الكاتبة ريمنجتون. يجب أن يهدي كتابه لإيرني. إنها تحب أن يحمل لها ما يكتب. لم يمر أسبوع، خلال الشهر ونصف السابقين دون أن يزورها ليحمل لها بضعة فصول. هل ما يكتب جيد؟ إنها تثني على كتابته دائمًا. يتمنى أن تكون كتابته رديئة. إن كانت كتابته جيدة فإطرائها يعني أنها معجبة فقط بما كتب. لكن إن كانت كتابته رديئة بينما تثني عليها، فهذا يعني أنها تسعى لإرضائه. ويشك تشابارُّو أنه يكتب لهذا الغرض. لكي يعطيها ما يكتب، لكي تعرف عنها شيئًا ما، لكي يكون لديها شيئًا منه، أن تفكر فيه، حتى وإن كان هذا أثناء القراءة فقط. وإن كان ما يكتب رديئًا وهي تثني عليه لأنها تقدره فقط؟ أي أنها قد تفكر أن ما يكتبه سيء للغاية، لكنها لا تريد جرح مشاعره، ليس لأنها تحبه، ليس بالطريقة التي يرغب تشابارُّو أن تحبه بها، وإنما كزميل، كرئيس سابق، كمرؤوس لاحق، ككلب مهجور يثير الشفقة.

يصيح تشابارُّو بصوت عال «كفى. اللعنة عليها ابنة العاهرة»، وبتعبيرات أقل بذاءة يعني هذا أنه يجب أن يتوقف عن التأمل وأن يعود للعمل. يسمع صفير سخان المياه، ويدرك أن الماء الذي يعده لشراب الماتيه قد وصل لدرجة غليان بركان بينما كان غارقًا في تأملاته العاطفية. وضعُ ماء جديد وانتظار أن يسخن يسمح له بالعثور على النبرة الروحانية التي يحتاجها لكتابة القسم الأخير والنهائي. والذي ينتهي في وسط الحقول. في البناية ذات الباب الجرار.

عندما يصب الماء في الترموس، ويشير عمود خفيف من البخار أن درجة الحرارة هي المناسبة، يتخلص تشابارُّو من شروده. سافر عقله ثلاث سنوات إلى الخلف، إلى 1996، إلى النهاية الحقيقية لتلك الحكاية، بعد عشرين عامًا من النهاية الخادعة التي صدَّقها الجميع بسذاجة: بايث وساندوفال وهو ذاته، وأيضًا ابن العاهرة رومانو).

يترك أدوات الماتيه فوق المكتب ويسير حتى الدولاب الموجود في الردهة. كان يعرف أن الخطابات موجودة في الدرج الثاني. كل منها في ظرفه. لم يشبها الاصفرار لأنها ليست قديمة للغاية. وعلى الرغم من أنه لم يقرأها مرة أخرى، يعتقد أنه يتذكرها بدقة، تقريبًا بكلماتها. لكنه لا يريد تزييف الحقيقة الموجودة بين يديه. لهذا يخرجها من الدرج ويحملها إلى المكتب. لكي يستشهد بها كلما كان ضروريًا.

ويتساءل: «لماذا هذه الدقة الشديدة؟». لا يوجد سبب محدد. كانت هذه هي إجابته الأولى. وبعد ذلك يقول لنفسه إجابة أخرى: لأن الحقيقة تختفي داخلها، أو لأن كلمات ريكاردو موراليس هي الحقيقة الأخيرة في هذه الحالة. ويضيف: لأن هذه الطريقة، بالبراهين الموثقة في يده، وبالاستشهاد بما يجب أن يذكر من نصوص، هي الطريقة التي عمل بها طوال أربعين عامًا في القضاء. وهذه الإجابة حقيقية أيضًا.

40

يوم 26 سبتمبر 1996 كان مثل أي يوم خميس آخر، ربما باستثناء الضجيج القادم من الشارع. بدءًا من الثانية عشر بدأ الإضراب العام الأول ضد حكومة كارلوس منعم، وكان عدد كبير من نقابة رجال القضاء يثير شيئًا من اللغط بسبب لعبة نارية انطلقت بينما كانوا متجمعين على سلالم شارع تالكهوانو. في العاشرة مرَّ موظف البريد. في الحقيقة أفترض أن هذا ما حدث، لأن مكتبي كان بعيدًا عن مائدة الوارد. جاء لي أحد المتدربين بمظروف طويل، والكتابة عليه بخط اليد، بدون طوابع رسمية، وصادر كبريد مُسجل. نظرت له بفضول من يعثر على رسالة تبدو شخصية وسط هدير المخاطبات العمومية التي اعتدنا عليها.

كنت شاردًا بينما أبحث عن نظارة القراءة حتى انتبهت إلى أنني أرتديها. لم أكن أعرف الخط. هل قرأت ذلك الخط المائل الأنيق المنمق من قبل؟ لا أتذكره. ما تذكرتُ (رغم أنني اعتقدت أنني لن أتذكره مُطلقًا بعد ذلك)، كان اسم المرسل وحكايته: ريكاردو أجوستين موراليس، الذي يُبعث بعد عشرين عامًا من النأي والصمت.

نظرت مجددًا إلى اسم المرسل إليه قبل فتح الظرف. كنت أنا بدون شك. «بنجامين ميجيل تشابارُّو. المحكمة الوطنية الابتدائية الجنائية، الدائرة رقم 41، سكرتارية رقم 19». كيف عرف موراليس أنه سيجدني هناك؟ إلى حد ما شعرت بالضيق من هذه الرسالة التي أتت في غير أوانها. على الرغم من

أنني أتساءل ما الذي أشعرني بالضيق تحديدًا؟ حقيقة لم أكن أُحمِّله مسئولية فراري العاجل في 1976. دائمًا ما رأيت بوضوح أن المتسبب في هذا هو ابن العاهرة رومانو. هل كانت رسالته بعد كل السنوات تزعجني؟ ليس هذا أيضًا، لأن ذكراه لطيفة، بل أنني أتذكره بشيء من المودة. ما السبب إذن؟ استغرق الأمر مني بعض الوقت لأدرك أن ما كان يزعجني حقيقة أنني سهل التوقع، رتيب، كما كنت دائمًا، بحيث يمكن لشخص ما أن يعثر علي في ذات المحكمة وذات الدائرة وذات المنصب وذات المكتب بعد عقدين من لقائنا الأخير.

كانت رسالة طويلة إلى حد ما، وكانت بتاريخ 21 سبتمبر في بيجاس. هذا يعني أنه قد رحل عن العاصمة. هل أمكنه بناء حياته من جديد؟ تمنيت صادقًا أن يكون هذا ما فعله، وبدأت القراءة.

قبل أي شيء أقدم اعتذاري لإزعاجك بعد كل هذا الوقت.

لم يستغرق الأمر مني سوى ثانية للقيام بعملية حسابية سهلة للغاية: كانت عشرون عامًا وبضعة شهور فقط.

إن لم أكن قد تواصلت معك طوال هذه السنوات، فإن السبب الرئيسي هو خوفي من التسبب لك في المزيد من المتاعب أكثر مما فعلت من قبل. عرفت برحيلك إلى سان سلفادور دي خوخوي بعد بضعة شهور من وقوعه، عندما اتصلت هاتفيًا بمحكمتك. وغني عن الذكر أنني لم أسأل عن سبب ابتعادك، لكنني اكتشفت سريعًا أن أفعالي ربما كانت هي السبب.

سألني أحد السعاة سؤالًا غبيًا. طلبت منه، ومنهم جميعًا، بصوت عال إلا يقاطعونني لبعض الوقت.

إن كنت أسبب لك إزعاجًا الآن، بعد كل هذه السنوات، فلأنني أجد نفسي مجبرًا على قبول العرض الذي قدَّمته في لقائنا الأخير، عندما حكيت لي الظروف التي تسبب في إطلاق سراح إيسيدرو جومث.

«هذا الاسم مرة أخرى»، فكرتُ. هل نطقه موراليس ذات مرة طوال هذه السنوات الطويلة؟ أم أنه لم يخرجه من رأسه مُطلقًا؟

في تلك المرة قلت لي ألا أتردد في الاتصال بك إن اعتقدت في لحظة ما أنك قادر على مساعدتي بأي شكل. هل ستعتبر لجوئي لهذا العرض الآن وقاحةً؟ أقول هذا بينما أفكر في التضحية الضخمة التي فرضتها عليك، بشكل غير إرادي، عندما اضطررت للرحيل عام 1976. أشك أن ما سأقول قد يكون عزاءً، لكن أقسم لك أنني قضيت أيامًا كثيرة في البحث عن الطريقة المناسبة لتخليصك من تلك المحنة.

تساءلت عن ملامح ريكاردو موراليس في تلك اللحظة لكي أتخيل الوجه الذي يوجد خلف تلك الكلمات. على الرغم من محاولتي، لم أكن قادرًا على رؤيته هرمًا: ما زلت أراه الفتى الطويل الأشقر الذي عرفته قبل ثلاثين عامًا، بشاربه الرفيع، وحركاته البطيئة وتعبيراته الخجولة. هل ما زال يرتدي ملابسه بذات الطريقة؟ كانت ملابسه تختلف تمامًا عن الفتيان من عمره، في بدايات السبعينات. تخيلت أنه مختلف، ولاحظت أن طريقته في التعبير تبدو قديمة أيضًا.

ومن البديهي أنني لم أعثر على طريقة لإبعادك عن تلك المصاعب، على الرغم من ابتهاجي لمعرفة أنك قد عدت بعد سنوات إلى منصبك في ذات المحكمة القديمة.

لم يقل هذا، لكن يمكنني التخمين: موراليس كان يقوم بالاتصال من

حين لآخر بالمحكمة ليسأل عني، حتى أخبروه ذات يوم أنني قد عدت. لكن لماذا لم يرغب في التحدث معي؟ لماذا اكتفى بمعرفة هذا؟ ولماذا يكتب لي الآن؟ ومن جانب آخر: ماذا يريد الآن؟ واصلت القراءة.

وغني عن الذكر أنني أتفهم حنقك علي بسبب الاضطراب الذي سببته في حياتك -أُكرر أنني لم أتعمد هذا مُطلقًا- وأنك ستكون مُحقًا تمامًا إن قررت تمزيق هذه السطور الآن أو بعد قراءتها. ستتلقى رسالتين مطابقتين خلال الأيام التالية. أرجو منك ألا تعتبر هذا إلحاحًا واختراقًا لخصوصيتك: خوفي من فقدان الرسائل جعلني أتصرف بهذه الطريقة. سأبعث برسالة أخرى بتاريخ الاثنين 23 والمتبقية بتاريخ الثلاثاء 24، كلتيهما مسجلتين أيضًا. إن تلقيت هذه الرسالة وقرأتها، أرجو منك تمزيق الرسالتين الأخريين.

لا أعرف لماذا -وربما أعرف- خطرت على بالي ذكرى موراليس جالسًا في مقهى محطة أونثيه. ذات الاهتمام بالتفاصيل، ذات الإصرار. شعرت بشيء من الشفقة.

أحيانًا تخط الحياة طرقًا غريبة لحل ألغازنا. معذرة إن شابت كلماتي لمحة فلسفية. لا أعرف إن كنت قد حكيت لك أنني كنت مدخنًا شرها في شبابي، حتى أقنعتني ليليانا بأنه مضر لصحتي، وتوقفت عن التدخين على الفور.

ليليانا دي كولوتو دي موراليس. هذا الاسم موجود في ذاكرتي بشكل شائه. بالطبع: لأن مروره في حياتي كان عابرًا، خلال العام التالي على موتها. بعد ذلك سترتبط ذاكرتي بموراليس فقط، أرملها، وبجومث، قاتلها. وتعود الآن، على يد الرجل الذي أحبها أكثر من أي شخص.

بعد موتها، وكأنما كان قبولًا بالأمر الواقع، أو ما هو أسوأ، كأن هذا القبول بالأمر الواقع يفيد في أي شيء، عدت للتدخين وبشكل أكثر شراهة

باضطراد. علبتان يوميًا قضيتا على صحتي الجيدة وعلى مقاومتي. وللمفارقة، ربما حلتا معضلتي الأخيرة قبل الأوان.

«يا له من مسكين»، فكرتُ، «وبعد كل هذا يموت بالسرطان»، كلما عرفت بموت شخص ما، أو أنه يوشك على الموت، أقوم بحساب سريع لعمره، كأن الشباب وظلم الموت متناسبان دائمًا، وكأن حنقي إزاء الموت المبكر يفيد في شيء. هذه المرة لم تكن استثناء: خمنت أن موراليس في الخامسة والخمسين من عمره.

من الحمق والسفاهة أن أقول إن الموت يخيفني. مُطلقًا. ربما إن قدَّرت ظروفي جيدًا يمكنك أن تتفق معي أن هذا مريح. إن لم يكن هذا مثيرًا لاستيائك، أود أن أنقل لك تعازيي لموت صديقك السيد ساندوفال. عرفت بالخبر من صفحة الوفيات في صحيفة «لا ناثيون». يمكنك أن تتخيل كم أسفت على هذا. كما لم أجد طريقة لشكره على ما فعل من أجلي، أو من أجل ليليانا ومن أجلي، الترتيب لا يهم. لأسباب سأشرحها لك فيما يلي، (إن لم تشعر بأنني أثقل عليم وتترك قراءة هذه الرسالة الطويلة قبل انتهائها)، لا يمكنني التغيب عن مكان إقامتي لفترات طويلة. لهذا ذهبت إلى مدافن تشاكاريتا بعد بضعة شهور من موت السيد ساندوفال، لأقر له بتقديري وعرفاني المتواضع. كنت أتمنى، في ذلك الحين، أن أرسل لزوجته مساعدة مالية ما، ربما أكثر نفعًا من احترامي وتقديري، لكنني كنت أمر بضائقة مالية شديدة في تلك الفترة بسبب ديون هائلة التزمت بها. لكن، إن قبلت تأدية هذا المعروف لي (في الحقيقة يجب أن أقول إن كنت على استعداد لإضافة هذا المعروف للقائمة الطويلة التي سأطلبها على هيئة معروف واحد)، أرجو منك أن تحمل لهذه السيدة قدرًا من المال جمعته من أجلها، وسيكون من دواعي الشرف والسرور بالنسبة لي أن أقدمه كبادرة على عرفاني وتقديري

لذكرى زوجها.

موراليس هذا رهيب. يرغب في أن أذهب إلى بيت أليخاندرا، التي كنت أراها على أوقات متباعدة، بمبلغ من المال من قِبل مُنتقم مجهول يشعر بأنه مدين لزوجها الذي مات قبل أربعة عشر عامًا. ألم يكن الزمن يمر بالنسبة لذلك الرجل؟ كل شيء كان حاضرًا أبديًا يُضاف للحاضر السابق. أجبتُ على نفسي مستسلمًا بالإيجاب، أنني أقبل إعطاء زوجةً ساندوفال المالَ الذي ينتوي موراليس إرساله لها.

حسنًا، أما ذكرته لك عن موت ساندوفال فقد فعلته لكي لا تنسب لي وقاحة الحكم أن كل الميتات تافهة. لا شيء من هذا. بالكاد أجرؤ على اعتبار موتي شخصيًا هكذا. وفي الحقيقة لا يمكنني أن أقول أنني أواجهه كشيء تافه، قبل ذلك يمكنني أن أصفه كشيء تصويبي، شيء ما هادئ في النهاية. أعيدُ قراءة ما كتبت وأرى أنني أشرد وأرهقك بمعلومات تفتقد للأهمية. يكفيك أن أظهر من النسيان، وبالإضافة إلى هذا لكي أطلب منك معروفًا، فضلًا عن التسامح مع تأملاتي. أعذرني. لنعد للموضوع. كنت أقول قبل ذلك: إن لم توافق بسعة صدرك على طلبي، أرجو منك أن تدمر هذه الرسالة، بالإضافة للرسالتين الأخريين اللتين ستصلان. لكن أرجو من منك أن تتصل بالموثق باديا، الموجود هنا في بيجاس، خلال الأسابيع القادمة، لأنني جرؤت في وصيتي على أن أترك لك كل ممتلكاتي. أتمنى ألا ترى في هذا صفاقة. ما أترك لك ليس بالشيء الكثير، باستثناء المكان الذي أعيش فيه، والذي يجب أن يساوي اليوم مبلغًا مُعتبرًا من المال، لأنها أرض تبلغ ثلاثين هكتارًا من الأراضي الجيدة.

فاجأني. كنت أعتقد أنه يعيش في المدينة. لم يعطني الانطباع قبل ذلك بأنه شخص محب للريف. كما شعرت بالرضا على سخائه، على الرغم من أن هذا

قد أشعرني بشيء من الضيق. في تلك اللحظة كنت قد قررت مساعدته بدون أي مكافأة مقابل ذلك.

هذا بالإضافة لسيارة بحالة جيدة لكنها قديمة للغاية.

السيارة فيات 1500 البيضاء. الذكريات لا تعود بمفردها مُطلقًا. دائمًا ما تأتي في جماعات. صورة تلك السيارة خطرت لي مع صورة بايث، بينما كنا جالسين في محطة رفائيل كاستيو، بينما كان الشرطي يحكي شهادة العجوزين في بيا لوجانو، اللذين رأيا موراليس بينما يضع جومث المغشي عليه، لكن على قيد الحياة، في صندوق تلك السيارة قبل عشرين عامًا.

لا يوجد أي شيء آخر، باستثناء بضعة قطع أثاث قديمة، أترك مصيرها بين يديك. لكن، إن كان يمكنني الاعتماد على مساعدتك لترتيب أموري الأخيرة هنا في فيجاس، أرجو أن تفعل كل يمكنك لكي تصل لبيتي خلال يوم السبت 28. أرجو ألا تعتبر هذا صفاقة من جانبي. أطلب منك هذا من أجلك تقريبًا، لكي أوفر عليك ضيقًا وإزعاجًا أكبر يبدو لي مستحيلًا أنني أستطيع اعفاءك منه.

اعتقدت أنني فهمت. كان هذا فظيعًا لكن بسيطًا للغاية. كان موراليس سينتحر، وكان يطلب مني الذهاب يوم السبت لكي لا أجد نفسي في موقف أسوأ إن ذهبت يوم الأحد أو الاثنين. لم يقل هذا في الرسالة، لكنه خطط كل شيء بدقة ومنها تفصيلة أن ذهابي في عطلة نهاية الأسبوعي أسهل من طلب يومين أجازة من العمل في المحكمة. هل كان يعرف أن الدورة القضائية التالية ما زالت بعيدة، وأن العمل كان خفيفًا؟ لم أكن سأندهش إن كان قد تجشم عناء الاستقصاء عن هذا.

لابد أنك قد خمنت الآن -على الأقل جزئيًا- أي موقف ينتظرك عندما

تصل لبيتي. أرجو منك أن تقبل اعتذاري. وأكرر أنني سأتفهم رفضك تمامًا. أي ما كان قرارك، أرسل لك أطيب تحياتي وتقديري العميق، وأكرر عرفاني العميق لكل ما فعلت من أجلنا.

ريكاردو أجوستين موراليس

انتهيت من قراءة الرسالة. استغرق الأمر مني بضعة دقائق لكي يمكنني التصرف. سألني الكاتب عم بي عندما رأى الوجه المتغير. أجبته بردود مراوغة. في أثناء ذلك خرج السكرتير من المكتب. انتهزت الفرصة لكي أقول له إنني يجب أن أذهب مبكرًا لكي أحمل السيارة إلى الورشة للفحص، لأنني يجب أن أسافر يوم السبت لأمر شخصي. ردَّ على بعدم وجود مانع.

41

خرجت بالسيارة في الفجر. كنت أرغب في الوصول قبل منتصف النهار. بدت لي أقل الساعات رعبًا للدخول في بيت فارغ، أو ما هو أسوأ، في بيت ينتظرني داخله حطام رجل عرفته وقدَّرته.

التعليمات التي تختتم رسالة موراليس كانت محددة وبسيطة. تجاوز مدخل المدينة، وأيضا محطة البنزين التي تظهر بعد ذلك على يمين الطريق. وبعد أربعة كيلومترات سأرى ثلاثة صومعات عالية للغاية على اليسار. وبعد كيلومتر آخر سأرى الطريق الفرعي المرصوف، على اليسار أيضًا. وبعد كيلومترين آخرين، سأرى البوابة الموجودة على اليمين بين المروج المنحدرة.

أعتقد أن الساعة كانت الحادية عشر عندما نزلت من السيارة لفتح البوابة. عبرت بالسيارة وعدت لإغلاقها. سرت في طريق جيد الحالة مرصوف بالحجر. تقدَّمت لمسافة قدرتها كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات. ربما أبالغ في التقدير: كنت أسير ببطء بسبب طبيعة الطريق، والمروج على المنحدرات المجاورة لم تكن تقدم لي أي إشارة.

إن كان موراليس قد أراد الاحتفاظ بخصوصيته، فقد حقق هذا. في النهاية انفتح الطريق على ساحة كبيرة أمام بيت. كان بيتًا بسيطًا، من طابق واحد، بنوافذ عالية عليها شبكات حديدية، وتحيط بالبيت سقيفة بدون ديكورات ولا أصص زهور أو مقاعد أو أي شيء. وكانت السيارة الفيات

مركونة بجوار البيت، تحت السقيفة. لم أتوقف لتفحصها، لكنها كانت تبدو بلا شائبة كما كانت من قبل.

كما أخبرني موراليس، كنت أعرف أن إجمالي مساحة الأرض أكثر بقليل من ثلاثين هكتارًا. خمنت أن الأرمل قد استدان حتى أذنيه لكي يشتريها. أتذكر بشكل ما أنني قرأت في الرسالة إشارة إلى ديونه: وانتبهت لشيء ما: المال لزوجة ساندوفال. في تلك اللحظة لم يمكنه مساعدتها، لكنه صفى ديونه بالطبع بعد خمسة عشر عامًا. افترضت أن موراليس قد بنى حياته مقابل تضحيات كبيرة. كموظف في فرع بنك، لابد أنه لم يكن يربح الكثير من المال، وفكرت أن هذه الأراضي ليست رخيصة. الضائقة المالية التي مرَّ بها لشراء الأرض تشرح التدهور المحسوب، لكن الواضح، في البناية وفي طريق الدخول.

ركنت السيارة بجوار البيت وسرت حتى الباب. كما أخبرني موراليس من قبل، لم يكن مغلقاً بالمفتاح. عندما فتحت انتابني أمل صبياني.

-موراليس -ناديت بصوت عال.

لم يرد أي شخص. أطلقت اللعنات في صمت، لأنني عرفت أنني سأجده ميتًا. تقدَّمت عبر الصالة. أثاث قليل، مكتبة ممتلئة، لا يوجد أي ديكور. بندقيتان معلقتان على الحائط. لم أقترب لفحصهما (دائمًا ما شعرت بانقباض شديد تجاه الأسلحة)، لكنهما بدتا نظيفتين وجاهزتين للاستخدام. كان هناك مظروفًا ممتلئًا مستندًا إلى طفاية من السيراميك فوق المائدة ، وعليه اسم «السيدة ساندوفال». اقتربت، أخذته وحفظته في الجيب الداخلي للسترة، لأنني شعرت بالخجل من عدِّ المال. في النهاية كان هناك ممر يطل عليه باب الحمام، وفي نهايته المطبخ. وغرفة النوم؟ رجعت للخلف. كنت قد مررت بدون التوقف أمام باب مغلق يطل على الصالة، بجوار المكتبة. لابد

أنها كانت غرفة النوم. فتحت الباب بروحي منقبضة.

ما رأيته كان أقل رعبًا مما كنت أنتظر. كان خصاص النافذة مفتوحًا وضوء الشمس يدخل في شلالات. بالطبع كان موراليس يعرف أن الضوء لن يضايقه في ذلك الصباح تحديدًا. لم تكن هناك دماء ولا أجزاء من المخ متناثرة على رأس الفراش، وهما المشهدان المرعبان اللذان امتلك خيالي الجامح وقتًا كافيًا لبنائهما منذ قرأت الرسالة. لم يكن هناك سوى جسد الأرمل، متمددًا على ظهره، مغطى حتى عنقه بالبطانيات.

لن أرتكب حماقة كتابة أنه كان يبدو نائمًا، لأنني لم أفهم مُطلقًا أن شخصًا ما يصدر مثل هذه التوكيدات عندما يرى ميتًا. بالنسبة لي الأموات يبدون أمواتًا، وموراليس ليس استثناءً. بالإضافة إلى هذا، كان جلده قد اكتسى بلون مائل للزرقة. هل هذا مرتبط بالطريقة التي اختارها للانتحار. لم أكن أعرف هذا بعد. لكن من المؤكد أن الموت كان حديثًا. قدَّرت لفتته بإعفائي من العلامات الصادمة لتحلل الجثة، والتي كنت سأجدها بالطبع إن كان وقت أطول قد مرَّ بين نفوقه ووصولي.

كان الأثاث بسيطًا للغاية. دولاب مزدوج، صندوق مغلق، مائدة عارية ومقعد مستقيم الظهر والفراش الفردي وبجواره كمودينو بسيط سطحه مُغطى بالأدوية والحقن البلاستيكية وقوارير المحاليل. حينئذ فقط انتبهت لصعوبة المرور بالمرض على هذا الرجل بمفرده.

لأنني بدأت تفتيشي محاولًا الإلمام بمجمل الوضع، أو لأنني تفاديت النظر كثيرًا للجثة بسبب جبني، أو لأن عيني وقعتا بسهولة أكبر على صورة زواج مرئية بالكاد فوق صف قوارير الأدوية التي كانت تملأ الكومودينو، تأخرت في الانتباه للمظروف الأبيض الذي كان مُعلقًا من الكومودينو بعقدة مصنوعة من شريط أبيض. اقتربت لأخذه. كان موجهًا لي. كانت

الكلمات التالية مكتوبة بخط كبير تحت اسمي: «أرجو قراءة هذه الكلمات قبل الاتصال بالشرطة».

42

هذا الرجل لم يتوقف عن إدهاشي، حتى بعد موته. ماذا يمكن أن يقول لي في هذه الرسالة الثانية؟ عدت للخلف، متوخيًا عدم لمس أي شيء. آخر شيء كنت أرغب به هو التورط في ميتة مثيرة للشكوك. قلت لنفسي إنني لا أمتلك دوافع للقلق: كنت أحمل معي الرسالة التي أرسلها للمحكمة، والتي تنتهي بهذه العبارة الموجهة للسلطات: «ولا يجب إلقاء المسئولية على أي شخص». عدت للصالة بالرسالة الجديدة في يدي. جلست على الأريكة الوحيدة، بالقرب من المدفأة.

عزيزي بنجامين:

إن وصلت هذه الصفحات إلى يديك فلأنك أسديت لي معروفًا كبيرًا بالمجيء حتى بيتي. وهكذا، قبل أن أواصل يجب أن أشكرك مجددًا. شكرًا مرة أخرى. لابد أنك تتساءل عن سبب هذه السطور. لنأخذ الأمر بروية، كما يحدث دائمًا عندما يجد المرء نفسه مجبرًا على إبلاغ شخصًا آخر بأخبار قد تكون غير مبهجة على نحو ما.

بدأت في الشعور بشيء غريب. هل يمكن ألا تنتهي الأمور مُطلقًا في حياة هذا الرجل؟

ستلحظ وجود حقنة مستخدمة، بالأبرة مغروسة، فوق الكومودينو

المملتيء بكل أنواع القوارير والأعشاب. أرجو منك ألا تلمسها، رغم أنني أفترض أن تحذيري غير ضروري. أعتقد أن التشريح سيكشف أنني حقنت نفسي بجرعة من المورفين تكفي فيلًا ، وهكذا انتهى الأمر. على الرغم من أن الطبيب الشرعي الذي سيقوم بالتشريح سيضطر لبذل الكثير من الجهد لفصل القمح عن القش: قمت بحق نفسي بكمية كبيرة من الأدوية خلال الشهرين السابقين ولابد أن كبدي يشبه الصيدلية، لكن حسنًا، هذا هو عمله، أما أنا فلدي ما يكفي من الأمور الخاصة.

كان موراليس الصرف: الفصل التام بين الكلمات والألم، قدر بسيط من السخرية، حزن حقيقي بدون انهيار ولا رثاء للذات.

لكن هذا لا يهم. حتى الآن لم أطلب منك ما أرغب. أريد أن تعرف أمرين قبل أن أفعل هذا. أول شيء أنني أكلفك بهذا لأنني لم أعد أمتلك القوة الكافية للقيام بهذا بنفسي. هناك أمر ما تركته معلقًا حتى النهاية، ليس بسبب الكسل وإنما لمبادئي. لكنني أفرطت في تقدير مقاومتي. أي أنني كنت قادرًا على فعل هذا بنفسي، إن كنت قد قمت به قبل شهرين أو ثلاثة. لكن بدا لي من غير اللائق أن أفعله في ذلك الحين. فكَّرت أنني يجب أن أنتظر حتى النهاية. لكن الآن، بعد أن حلَّت هذه النهاية، لا يتحمل جسدي هذا الجهد.

لماذا كان يحتاج لكل قوته الجسدية؟ عم يحدثني هذا الرجل الذي مات قبل قليل؟

الأمر الثاني: لا أرغب في أن تشعر بالالتزام تجاه أي شيء. إن لم تستطع، فحظي سيء. لتتكفل الشرطة بالأمر. في الحقيقة إن الطلب الذي سأوجهه لك متعلق بشيء من الكبرياء، رغبة مضحكة في الحفاظ على سمعتي الطيبة. لقد مررت بالقرية بدون أن تتوقف. لكن خلال الساعات التالية ستلتقي بأفراد وربما يحدثونك عني. لا أعتقد أنني مخطئ إن قلت إن لديهم ذكرى طيبة، وربما رائعة، عني. لتأخذ في الحسبان أنني أعيش في هذه الأرض وأعمل في هذه القرية من ثلاثة وعشرين عامًا. لأسباب ستدركها في وقت قريب للغاية، قررت البقاء هنا طوال هذه السنوات، دون النقل لفرع آخر للبنك. كان هذا صعبًا، لأن رؤسائي ألحوا في مرات كثيرة على ترشيحي للترقية. فيما يبدو كنت بشكل عام موظفًا جيدًا ورفضت في كل المرات، بينما أحاول ألا أبدو فظًا أو ناكرًا للجميل. لن أكذب عليك: لا يمكن لأي شخص في القرية أن يقول لك إنه يعرفني بشكل حقيقي. لم أستطع ولم أرغب في هذا. لكنني أعتقد أن معظم الأفراد يرون في شخصًا منطويًا لطيفًا ومسالمًا. وفي هذه المرحلة الأخيرة نحو العدم (كم كنت أتمنى أن أستند على معتقدات أخرى)، أود الاحتفاظ بالذكرى الطيبة لدى من تعاملوا معي طوال كل هذه السنين.

إلام يريد الوصول بكل هذا؟ لماذا لا أقدم هذه السطور للشرطة؟ هل كانوا ينظرون باحتقار للمنتحرين في بيجاس؟ تحكمتُ في قراءتي المتسرعة المتأصلة، والتي عادة ما تحملني للقفز من سطر إلى آخر، لكي لا أفقد لب الموضوع في إحدى تلك القفزات.

يجب أن أطلب منك يا صديقي العزيز (ولتسمح لي بأن أخاطبك هكذا،

لأن هذا هو شعوري)، أن تصنع بي معروفًا كبيرًا بالذهاب حتى المخزن. إنه على مبعدة خمسمائة متر توغلًا في الأرض. إن كان الوقت ممطرًا، ستجد حذاء مطر عالي الرقبة بجوار باب المطبخ. استخدمه، وإلا لن يعود بنطلونك وحذائك صالحين للاستخدام.

لم أكن أفهم أي شيء، أو لم أكن أفهم ما هي علاقة هذا الطلب بموت موراليس.

وهنا تنتهي إرشاداتي. معذرة إن لم أتوغل في التفاصيل أكثر من هذا. ذكائك يعفيني من المزيد من الإيضاحات، وأتمنى أن تنقذني شهامتك من حكمك الأخلاقي.

أطيب تحياتي.

ريكاردو أجوستين موراليس

هل هذا هو كل شيء؟ نظرت لظهر الورقة بحثًا عن حاشية أو إيضاح أو إشارة. لم يكن هناك أي شيء. وضعت الرسالة في جيبي وسرت حتى المطبخ. عبر النافذة رأيت صفوفًا عديدة من أشجار الفواكه وإلى جانب، بالقرب من البيت، حقل صغير للخضروات. خرجت ورأيت الحذاء، والذي لم أكن بحاجة إليه في ذلك اليوم الرائع. لكي أبدو في هذه الصفحات كرجل شديد الملاحظة، ذي قدرة على التحليل العميق، ربما كان من المناسب أن أقول إنني أخذت في بناء وطرح واستبعاد الفرضيات حول الإشارة الملغزة لموراليس في هذه الرسالة الثانية. لكن هذا غير حقيقي. أفكاري جاءت بعد ذلك، عندما

كانت إجابات الأسئلة تظهر بشكل تلقائي، دون أن أصيغها، بينما كنت أسير بين أشجار الليمون والبرتقال.

43

كان حقل الخضروات على حال جيدة. وبالنظر للبيت من الجزء الخلفي للأرض، كان يبدو أكثر تدهورًا مما يبدو في الواجهة. ربما كان المالك قد تعامل مع ضائقته المالية بحيث يعطي صورة مقبولة في حالة مجيء زائر بدون دعوة. لم يكن هناك فرن من الطين ولا مشواة ولا مائدة أومقاعد. بدا لي أنني فهمت أن موراليس لم يكن مهتمًا بالعيش كمن يمتلك ضيعة خارج المدينة. بشكل واضح ظل كائنًا مدينيًا. لم يتغير.

خلف أشجار الفواكه، كان هناك تل من أشجار الكافور الكثيفة على مبعدة خمسين مترًا. لست جيدًا في حساب عمر الأشجار، لكنني خمنت أن موراليس قد زرعها لدى وصوله. ثلاثة وعشرين عامًا، هل قلت هذا؟ لكن أمكنني حساب أنه جاء إلى بيجاس بعد قليل من عفو عام 1973.

فيما يبدو كانت أشجار الكافور تشكل ستارة كثيفة يبلغ طولها مائتي متر، في خط مائل على خط البيت وحقل الخضروات. بعد ذلك أدركت أن أشجار الكافور كانت موازية للطريق العمومي، كعائق ساتر. بعد حقل الخضروات كانت هناك أثار أقدام على الأرض، كتلك التي تصنعها الخطوات جيئة وذهابًا. عندما دخلت بين الأشجار تحول ضوء الصباح إلى عتمة رطبة. على

الجانب الآخر يمكن رؤية مخزن ذي أبعاد معتبرة. شقَّ على تقدير حجمه، لأنه كان مبنيًا على مبعدة مائتي أو ثلاثمائة متر من الأشجار. على أية حال لم أكن متأكدًا تمامًا من المسافات. أنا أيضًا شخص مديني، وكنت بحاجة لنقاط مرجعية لكي أقوم بتقديرات دقيقة إلى حد ما. كان مبنيًا فوق تل صغير، ربما لتفادي الفيضانات، على الرغم من أن كل الأرض تبدو مرتفعة بانحدار خفيف نحو الشمال، أي في الجهة المقابلة للطريق العمومي.

اقتربت من البناء المصنوع من الصاج. كان الباب الجرار مغلقًا بثلاثة أقفال ضخمة. كانت المفاتيح مُعلقة من خطاف في الخارج. لم يبد لي نظام أمان متقنًا أن يضع مفاتيح الأقفال في متناول يد أي متطفل. هل فقدَ، مع تقدمه في العمر، تصرفاته المحسوبة كلاعب شطرنج؟

أصدر الباب صريرًا عندما دفعته إلى جانب. اقتحم ضوء الشمس المكان المعتم بعنف. نظرت للداخل. أخذت ساقاي في التهاوي بينما كنت أدرك حقيقة المشهد وأجبرني الشعور بالغثيان على الاستناد على الصاج في البداية ثم الجلوس بعد ذلك على الأرض الأسمنتية.

كان المخزن كبيرًا: عشرة أمتار عرضًا وخمسة عشرة مترًا طولًا. كانت هناك بعض المعدات بجوار الجدارن، وسلم قابل للطي من الألومنيوم وماكينة محمولة للتجليخ وبضعة أرفف.

في الحقيقة رأيت كل هذا بعد ذلك، من مكاني فوق الأرض الأسمنتية حيث تهاويت لاهثًا. لأنني لم أستطع إبعاد عيني خلال دقائق كثيرة عن الزنزانة التي تم بناءها في وسط المخزن، زنزانة مربعة من قضبان حديدية غليظة من الأرض حتى السقف، لها باب بقفلين مدمجين بدون مقابض وباب صغير في أحد الأركان، من تلك التي تُستخدم لإدخال وإخراج الأشياء من الزنازين. كانت الزنزانة مزودة بحوض ومرحاض في أحد الأركان ومائدة

ومقعد في ركن آخر، وفراش بجوار الجدار الأخير، وفوقه جسد متمدد على ظهره ومغطى بالملاءات..

أعتقد أنني شعرت بالرعب في تلك اللحظة، وأيضًا بالدهشة والانقباض والفزع. لكن، أكثر من أي شيء، شعرت بمفاجأة هائلة استولت علي بشراسة فكين جائعين، وشيئًا فشيئًا جعلتني أهدم كل ما فكَّرت حول موراليس وحكايته خلال العشرين عامًا الأخيرة.

عندما لاحظت، بعد دقائق كثيرة، أن ساقي قادرتان على تحملي، نهضت وسرت طائفًا بالمربع من القضبان الحديدية. تغلبت على انقباض روحي وجلست مقرفصًا بالقرب من الأعمدة لكي أرى وجه الرجل الراقد في تلك الزنزانة.

كانت جثة إيسيدرو أنطونيو جومث على ذات اللون المائل للزرقة كجثة موراليس. كان أكثر بدانة إلى حد ما، وبالطبع أكثر هرمًا، وشعره أشيب بشكل خفيف، لكن فيما عدا ذلك لم يكن شديد الاختلاف عما كان قبل خمسة وعشرين عامًا، عندما سجلت اعترافه.

44

جلست على التل المغطى بالعشب المقطوع بعناية حول المخزن.

كان قد قال لي هذا عندما التقينا أخر مرة. قال موراليس هذا عندما اقترحت عليه الانتقام بإطلاق الرصاص عليه. بم أجاب علي؟ «كل هذا معقد للغاية»، أو شيء شبيه. لا: «الأمور ليست بسيطة مُطلقًا». هذا ما قال. تذكرت بايث. هو أيضًا لم يتخيل أن يدبر الأمور بهذه الطريقة. ولا ساندوفال. لكن من تخيلَ هذا؟ موراليس فقط. لا أحد سوى موراليس.

دخلت المخزن مرة أخرى للبحث عن جاروف. سرت به في يدي حول البناية بينما أتفحص المكان. ستارة أشجار الكافور، التي عبرتها من أجل الوصول حتى هنا، كانت في الحقيقة سياجًا كبيرًا طوله أكثر من ألف متر، وفي داخله يوجد المخزن. لم يكن في المنتصف، كان مبنيا بجور أحد الجوانب، وافترضت أنه أقلها عرضة للأعين. حاولت حساب العدد الإجمالي للأشجار التي زرعها موراليس، لكنني استسلمت. لم تكن لدي أدنى فكرة. لكن لابد أنها كانت شهورًا كثيرة من العمل الشاق، بالطبع بعد العودة من العمل في البنك وفي عطلات نهاية الأسبوع. كان بحاجة لأياد خبيرة لبناء المخزن. من المحتمل أن يكون العمال قد اندهشوا من هذا الهوس ببنائه بعيدًا عن البيت، كما لابد أن الجيران قد اندهشوا لأن موراليس لم يزرع هذه الأراضي طوال سنوات طويلة، وكما لابد أن أهل القرية، وعلى رأسهم زملاؤه في البنك، كانوا مندهشين لكون موارليس شديد الانطواء وينأي عن الزيارات والحياة

الاجتماعية بشكل عام. تذكرت طلبه في الرسالة الأخيرة. أعتقد أننا جميعًا نحتاج للشعور بأحد أشكال المحبة على الأقل. على الرغم من غرابة أطواره، كان موراليس يقع منهم موقعًا حسنًا، وكان الأرمل يرغب في أن تظل هذه الذكرى بدون تدنيس. لهذا كنت أسير بالجاروف في يدي.

في الأرض الواسعة المحاطة بسياج أشجار الكافور كانت هناك تلال متناثرة من أشجار مختلفة الأنواع. ذهبت إلى أحدها حيث كانت هناك بضع أشجار حور مع شجرتي بلوط ضخمتين، ولابد أنها كانت موجودة هناك قبل وصول موراليس بكثير. لم يبد لي ممكنا أن تكون هناك أعين متلصصة ترقبني. غرست الجاروف وضغطت عليه بقدمي. لم تكن الأرض صلبة للغاية. بدأت في الحفر.

45

جاء بعض الفضوليين مع الشرطة. قليلون للغاية لحسن الحظ، لأنني أبلغت في ساعة القيلولة، بالإضافة إلى أن العديد من الفضوليين المحتملين قد انتهزوا اليوم الرائع وخرجوا لصيد الحيوانات أو الأسماك، وهكذا لم ينتشر الخبر كثيرًا. لم أر وجوها حزينة أو ذاهلة. كان الضابط الأكبر رتبةً من شرطة محافظة بوينوس أيرس، وكان يترأس الإجراءات، كان يعرف موراليس. ليس هو فقط، وإنما كانوا جميعًا يرونه منذ سنوات خلف زجاج شباك الصراف في فرع بنك بروفينثيا في بيجاس، أو يرونه في القرية. كما رأوه يسقط مريضًا وينحف، ويمر على العيادة والصيدلية على فترات أقصر.

-لم أعتقد أن حالته خطيرة هكذا - قال أحد موظفي البنك الذين جاؤوا مع فرقة الشرطة.

-نعم، كانت حالته متدهورة للغاية، لكنه لم يكن يحب أن يقول هذا -ردَّ آخر دون أن يرفع صوته.

كما كان هناك رجلان عجوزان يبدو أنهما من التجار. لم يكن أي منهم يعرف أين يمكن أن يقف، وينظرون للبيت كمن يرى شيئًا للمرة الأولى. من الواضح أن أي من الحاضرين هناك لم يزر البيت من قبل.

ما أنا استطعت حتى أعطيت رسالة موراليس التي أرسلها إلى المحكمة لرجل الشرطة. جلس ليقرأها في ذات الأريكة التي استخدمتها من قبل

لقراءة الرسالة الأخرى، والتي حفظتها في أعماق حقيبتي، في صندوق السيارة. كان قد انتهى منها عندما وصلت سيارة الإسعاف. خرج أحد رجل الشرطة من الغرفة وبيده الحقنة التي استخدمها موراليس للانتحار داخل كيس بلاستيكي شفاف.

-ماذا نفعل يا ريس؟

-هل أخذ جوتيرث الصور؟

-نعم..

-حسنًا. لقد جاء رجال الإسعاف. سنحمله. انتظروا برهة -استدار نحوي-: وهكذا فأنت...

-بنجامين تشاباررُّو -قدَّمت نفسي. ولم تبد لي فكرة سيئة أن أقدم بطاقة مرور آمن:- السكرتير الأول للمحكمة الجنائية الابتدائية رقم 41 في العاصمة الفيدرالية -أضفت بينما أريه بطاقة هويتي.

-هل تعود علاقتكما لفترة طويلة يا سيدي؟ -كانت النبرة تنحو بشكل خيفيف إلى الاحترام وتميل لإبداء الطاعة. استرحت للتغير.

-في الحقيقة نعم، على الرغم من أننا لم نلتق منذ فترة طويلة. منذ جاء ليعيش هنا -شككت إن كان يجب أن أقول ما يأتي على شفتي-. كنا صديقين في بوينوس أيرس.

لم نكن صديقين، قلت لنفسي. لكن إن لم تكن الصداقة هي ما جمعتنا، ماذا كانت علاقتنا إذن؟ لم أجد إجابة أرد بها على نفسي.

-أفهم هذا. هل تمانع في الذهاب للغرفة؟ أقول هذا لكي يكون هناك شاهد آخر على إجراءات حمل الجثة.

-هيا بنا.

كانوا قد رفعوا الأغطية عنه. كان يرتدي بيجاما مقلمة، ذات تصميم قديم. كان تفكيري عديم النفع، لكنني تذكرت ليليانا إيما كولوتو دي موراليس، التي أقيمت حول جسدها إجراءات شبيهة، والتي شاركت فيها بشكل غير إرادي. في هذه المرة كان العدد أقل، ولم تكن هناك جوقة من الفضوليين المهتمين بشكل خاص بتأمل الجسد.

كانوا قد حركوا زجاجات الأدوية من فوق الكمودينو ليحملونها كأدلة. وبعد أن وضعوها على الأرض، وأصبح الكمودينو عاريًا إلا من إطار صورة موراليس وزوجته بملابس العرس، أصبحت الصورة أكثر وضوحًا. أين رأيت تلك الصورة؟ على مائدة المقهى حيث قام موراليس بتصنيف الصور ليريني إياها قبل أن يمزقها؟ لا. لقد رأيتها في غرفة النوم ببيتهما، قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، على مبعدة خطوات قليلة من جثة ليليانا كولوتو. اندهشت، كمرات أخرى كثيرة، من الصبر الفولاذي للأشياء لدرجة أنها تبقى بعد موتنا. أعتقد أنني تخيلتهما لأول مرة على قيد الحياة، يتناولان القهوة في مطبخ بيتهما، يتحدثان ويبتسمان، وبدت لي الحياة قاسية وعدوانية بقدر يفوق التحمل. كانت أول وآخر مرة أيضا تبتل فيهما عيناي بينما أفكر فيهما.

سرنا في موكب صغير ومرتجل خلف النقَّالة حتى عربة الإسعاف، وخلفها انطلقت سيارات زملاء موراليس والرجلين الهرمين. عندما اختفيا في الطريق المؤدي للطريق الرئيسي استدار الضابط نحوي:

-لقد فكَّرت في الذهاب اليوم، أليس كذلك؟

-في الحقيقة، أعتقد أنني سأظل حتى الغد أو حتى يوم الاثنين، تحسبًا لاحتياجكم لي يا سيدي الضابط.

-حسنًا، رائع -بدا أن الخبر يبهجه، لأنه يعفيه من طلب ذلك مني-. على أية حال لا تقلق. سأتحدث اليوم مع الطبيب الشرعي ومع القاضي. إنه شخص رائع، اسمه أوربيدي، لا أعرف إن كنت قد سمعت عنه.

نفيت برأسي.

-حسنًا. لا يهم. على أية حال الأمر واضح.

-أعتقد هذا -قلت مؤكدًا على كلامه، وراضيًا لسماعه يقول هذا.

في تلك اللحظة سمعت من ينادي على رئيسهم من الباب الخلفي للبيت. لم أكن قد انتبهت لذهاب رجلي شرطة حتى المخزن.

-لا يوجد أي جديد يا سيدي -قال رجل شرطة يحمل رتبة ضابط صف. أعتقد أنه حدَّثه بشكل رسمي لأنه عرف أن الغريب، أي أنا، يفهم في هذه الإجراءات-. مخزن كبير، بداخله معدات وبعض الأثاث القديم.

-حسنًا.

أضاف رجل شرطة آخر، شاب أسمر يبدو على وجهه أنه حديث التخرج من مدرسة الشرطة:

-هل تعرف يا حضرة الضابط؟ لابد أن هذا الرجل كان يخشى من سرقة المعدات. توجد أقفال كثيرة للغاية على باب المخزن، والأسوأ من هذا، هل تعرف ماذا؟

-ماذا؟

-لقد وضع قفصًا داخل المخزن لحفظ الأشياء غالية الثمن. ماكينة قطع الأعشاب تعمل بالبنزين، آلة تجليخ، آلتا تقطيع، مثقاب قديم للغاية. لابد أنه كان يخشى من سرقة هذه الأشياء، هل تصدق؟

-وماذا... إن كان كل رجل الشرطة في المنطقة مثلك، فلابد أنه ليس مكانًا آمنًا....

تهكَّم عليه الضابط. كان الفتى جديدًا، لكن ليس إلى قدر كبير بحيث لا يعرف أنه يجب أن يلتزم بالصمت ويقبل المزحة.

اتجهنا إلى البيت مرة أخرى. لم يقولا أي شيء عن الحوض والمرحاض اللذين لابد أنهما قد عثرا عليهما لصق أحد جدران الزنزانة، بجوار الأرفف. كنت قد غطيت، داخل الزنزانة، قنوات تصريف الماء بالتراب حتى مستوى الأرض الأسمنتية. شعرت بالهدوء لأنهما لم يشكا في أي شيء. لم تكن لديهما فكرة عن أي شيء. على أية حال، من يمكن أن ينتابه الشك؟

نادى ضابط الشرطة على أحد رجاله:

-باييخوس. لتبق في حراسة المكان. ربما أراد القاضي القيام بجولة بين اليوم والغد.

نظر له باييخوس بنظرة تفضح ضجره. بدا أن الآخر قد أشفق عليه.

-حسنًا. سنفعل ما يلي. سأهاتف القاضي، وإن قال أن ننهي الإجراءات، سأكلمك على جهاز اللاسلكي وتعود. هل يروق لك هذا؟

-شكرًا يا ريس. شكرًا جزيلًا. كما ترى، اليوم سبت...

استدار الضابط وتحدَّث مع الشاب:

-هكذا كان يمتلك قفصًا داخل المخزن لحفظ المعدات؟

لم تكن هناك أي بادرة للشك في صوته. كان يتكلم عن هذا كما يمكنه أن يتحدث عن أي أمر آخر: فقط لكي لا يسود الصمت.

-كما تسمع يا سيدي. بقفلين هائلين. الناس تفعل أشياء غريبة. أليس

كذلك؟

أمسك الضابط بقبعته التي كان قد تركها فوق مائدة الصالون. نظر لها بتعبير من يعرف أنه لن يزور المكان الذي يراه مرة أخرى.

-هذا حقيقي. الناس تفعل أشياء غريبة.

لم تصدر كلمة أخرى. ركبوا سياراتهم وتبعتهم بسيارتي. أمكنهم العثور على الطبيب الشرعي بسرعة، وأبهجهم بالقيام بالتشريح في ذات الليلة، وأعطى القاضي الأمر بإنهاء الإجراءات وغلق الموضوع.

تم دفن موراليس صباح يوم الاثنين. المطر الخفيف المتواصل الذي تساقط منذ الفجر حتى الليل أضفى عليه لمسة كآبة. لم يكن هناك شعاع شمس واحد طوال اليوم. استحسنت هذا.

الإعادة

«الآن نعم»، يفكر تشابارُّو. الآن انتهى من كتابه ولم يعد لديه أي شيء ليحكيه. لم يعد لديه أي شيء متعلق بموراليس وجومث. الآن يشعر أن الحكاية تطلق سراحه نهائيًا. يتساءل تشابارُّو إن كانت حيوات البشر، بعد انتهائها، لا تستمر في حيوات أفراد آخرين، من بقوا على قيد الحياة ويتذكرونهم. على الرغم من هذا، يشعر أن حياتي كلا هذين الرجلين قد انتهيتا للأبد، لأن تشابارُّو متيقن من عدم وجود أي شخص آخر يتذكرهما بخلافه.

اختفت الآثار الأخيرة لمرورهم بالعالم، أو تبقى لها القليل لكي تختفي. ما هي الآثار الأخيرة لموراليس؟ ورقة ما بتوقيعه وخاتمه في سجلات بنك بروفينثيا، فرع بيجاس. آثار جومث أكثر نأيًا. ربما مجموعة من البطاقات التي تحمل بصمات أصابعه في سجلات سجن ديفوتو، إلى جانب أمر بإطلاق السراح بتاريخ 25 مايو من عام 1973. ما زال هناك شيء ما باقيًا يربط بينهما. توقيعاتهما على أقوالهما قبل ثلاثين عامًا. توقيع موراليس تحت أقواله كشاهد. توقيع جومث في نهاية اعترافه. كلها مثبتة جيدًا في ملف مائل للصفرة، مخيط بأستاذية على يد الموظف بابلو ساندوفال خلال أحد الأيام التالية على ثمله. كما تتبقى عظامهما. عظام أحدهما في مقبرة بيجاس. عظام الآخر في حفرة بدون علامات، في وسط الحقول، تحت شجرتي بلوط. لكن العظام لا تتحدث أيضًا.

«هذه هي نهاية الحكاية»، يفكر تشابارُّو في الحدود الفاصلة بين هاتين الحياتين وحياته الخاصة. ولا يشعر بالرغبة في قول أي شيء آخر في هذا الصدد. والأكثر من هذا، ليس متيقنًا من أن شيئًا ما من حياته الشخصية قد نفذ، رغمًا عن إرادته، في هذه الأوراق المصفوفة بعناية بجوار الآلة الكاتبة ريمنجتون.

يهبط بعينيه إلى الأوراق المكتوبة على الآلة. الآن يجب أن يقرر ماذا سيفعل بها. هل يحاول نشرها؟ هل يحفظها في صندوق لكي يعثر عليها شخص ما بعد موته ويواجه ذات المعضلة؟ في نهاية الامر، لمن كتب هذه الصفحات؟

كما يجب أن يأخذ قرارًا بشان الآلة الكاتبة ريمنجتون. لقد طلبها مستعارة، لم يتلقها كهدية. يجب أن يعيدها للمحكمة. إنها من ممتلكات الدولة. لا قيمة لهذه الماكينة التي تعود لعصور ما قبل التاريخ لأي شخص سواه، هو الذي ظل يعذبها طوال عام تقريبًا لكي يشعر بأنه روائي، هل توجد أهمية لهذا؟ لا. يجب أن يعيدها على أية حال، وليفعلوا بها ما يريدون بعد ذلك.

يجب أن يحمل الآلة الكاتبة إلى الإدارة، يحيي الموظفين، يُقرب أحد المقاعد الخشبية لكي يضع القطعة الأثرية فوق الرف الأخير . وكجزء من هوسه اللانهائي بتعليمهم كيف يعملون، يشرح لهم أنهم يجب أن يرسلوا خطابًا لإدارة المعدات لكي يأخذونها. وبعد ذلك؟ دورة أخرى من التحيات ثم إلى البيت.

وإيريني؟ ألن تغضب إن عرفت أنه كان في المحكمة ولم يذهب لتحيتها؟ «شيء مؤسف» يقول تشابارُّو لنفسه، لأنه لن يذهب لتحيتها. لا يمتلك الجرأة ليقول إنه يعشقها، لكنه لا يمتلك القدرة على مواصلة تحمل لهيب الصمت.

ينهض ويضع معجمًا ثقيلًا بما يكفي فوق النسخة الأصلية من كتابه، ربما يهب تيار هواء ليخلط ذكرياته. يذهب للحمام، يغسل أسنانه ويصفف شعره بتمرير يده المبللة باللافندر ثم مشط أسود صغير.

يتردد أثناء وجوده في غرفة النوم: رابطة عنق أم عنق مفتوح؟ يميل للاختيار الثاني. الآن بعد أن أصبح كاتبًا -لا يهدر الفرصة للسخرية من نفسه-، يبدو أفضل مظهرًا بدون ملابس رسمية ولا مثبت للشعر. ينظر للساعة. هل هناك قطار غير مزدحم من كاستيلار بالقرب من منتصف اليوم؟ يفكر أن الإجابة هي لا، ولا يرغب في حمل الآلة الكاتبة وقوفًا طوال الطريق. يسير حتى المحطة. يبدو أن الرب قد أشفق عليه: إنها الحادية عشر وخمس دقائق، والقطار المحلي الصباحي الأخير يكافئه بالكثير من المقاعد الشاغرة. يجلس في الجانب الأيمن لكي يتلهي بالنظر للسيارات في طريق ريفادافيا.

ينتفض فجأة. القطار يتقدم في صخب بين الجدارين الكئيبين اللذين ينهضان على جانبي السكة بين كابابيتو وأونثه. فيم كان يفكر خلال النصف ساعة الأخيرة؟ لا يمكنه التذكر. في موراليس؟ في جومث؟ لا. إنهما يرقدان في راحة الآن. بشكل ملفت للنظر، منذ انتهى من حكي كل شيء، لم يعودا يخطران على باله، لم يعودا يزعجانه، لم يعودا يحاصرانه في كل لحظة. إذن؟ ينزل من القطار في محطة أونثه ويشعر بفضول غريب يدفعه للمرور أمام المقهى الذي التقي فيه بموراليس مرتين في غابر الزمان. هل ما زال موجودًا؟ لكن عندما يخرج للشارع من جهة بويريدون ينتابه الشعور الغريب بأنه فقدَ هدفه مرة أخرى. ماذا كان هدفه؟ المقهى بالطبع. المقهى. يمكنه إلقاء نظرة على ذلك المكان في العودة، لكنه يشعر بالقلق من هذا الميل المفاجئ للتيه في لحظات غياب غير معهودة، كأنما يتداعى بشكل مفاجئ.

يتدبر في هذه الأمور بينما يتجه إلى محطة أتوبيس 114. الآلة الكاتبة تثقل عليه، على الرغم من أنه يبدلها من يد لأخرى باستمرار. لا يرغب في أن ينتابه الشعور بفقدان التركيز مرة أخرى. ولهذا يدفع التذكرة ويجلس ليفكر، خاصة فيم كان يحدث له. كانت النتيجة جيدة خلال ثلاثة أو أربعة نواصي. لكنه يشعر بالتيه مرة أخرى بعد دخول الأتوبيس شارع كورينتس مباشرة. يا إلهي. أين؟ في أي متاهة عقلية فقد نفسه؟ والانحناءة الكبيرة المتمايلة التي يتعرض لها الأتوبيس عندما يدور في شارع بارانا تستطيع إعادته للواقع. كانت مصادفة تقريبًا أن أمكنه النزول قبل أن يغلق السائق الباب الخلفي مباشرة.

ينظر لنفسه في واجهة زجاجية لأحد المحلات. بنجامين تشابارُّو واقفًا على قدميه فوق رصيف ضيق. إنه طويل القامة، أشيب الشعر، نحيف. ما زال في الستين من عمره. يحمل في يده اليسرى آلة كاتبة تعود لعصور سحيقة. ماذا تبقى له ليفعل في الحياة؟ لا يمكنه كتابة روايته. لقد انتهى من كتابة حكاية هذين الرجلين الجريحين. الإجابة تفتح طريقًا بطيئًا في رأسه، مثل كل القرارات الصعبة.

إنه موجود في الحياة لكي يفعل ما أخذ يدبر في عقله، بدون أن يعرف ما كان يدبر في عقله، منذ أخذ القطار في كاستيلار في الحادية عشر وخمس دقائق، أو منذ طلب استعارة الآلة الكاتبة قبل أحد عشر شهرًا، أو منذ قال لشابة متدربة حديثة الالتحاق بالعمل كيف يجب أن ترد على الهاتف، قبل ثلاثة عقود.

لهذا يتحرك في النهاية ويصعد سلالم مدخل لافايه قفزًا سلمتين فسلمتين. يركب المصعد حتى الطابق الخامس. يسير بخطوات واسعة عبر الممر ذي البلاطات السوداء والبيضاء المترية علي هيئة معينات.

لا يمر لإلقاء التحية في الدائرة رقم 19. ليس خوفًا من افتضاح الحب الذي يحرق أحشائه. لكن لأنه يعرف لأول مرة أنه يجب أن يذهب اليوم مباشرة، بدون تأخير ولا تلكؤ، ليطرق باب المكتب، لسماع صوتها يدعوه للدخول، للوقوف كرجل أمام امرأة يحبها، لتجاهل السؤال المبتذل الذي تطلقه شفتاها عندما تستقبله بابتسامة، ليدفع أو يسترد الدَّين المعلق وهو الدافع الوحيد الحقيقي لكي يظل على قيد الحياة. لأن تشاباڑو بحاجة لأن يعطي هذه المرأة إجابةً على سؤال عينيها.

أيتوثاينجو، سبتمبر 2005.

ملحوظة من المؤلف.

في فبراير 1987 التحقت بالعمل كموظف في المحكمة الوطنية الابتدائية الجنائية « Q» في العاصمة الفيدرالية. ذات صباح عادي حكا لي زملائي المخضرمين مزحة قديمة: بسبب العفو عن السجناء السياسيين الذي أصدرته حكومة كامبورا في 1973، وفي ظروف ظلت دائمًا في طي الكتمان، تم إطلاق سراح سجين عادي من المحبوسين في سجن ديفوتو بينما كان على ذمة المحاكمة. كان مُتهمًا بجرائم خطيرة، وكانت تنظره عقوبة طويلة للغاية. وعلى الرغم من هذا، وبدون أن يعرف أي شخص الدافع مُطلقًا، حصل على حريته في ذلك اليوم.

بعد فترة ما تذكرت هذه الحكاية، وأضاف لها خيالي الكثير من الأحداث والمواقف، التي يمكن تكون مقدمات وعواقب مُحتملة، رغم أنها مُتخلية، للإفراج غير العادل عن قاتل مجرم.

فيما عدا ذلك، فإن الحكاية التي تحتويها هذه الصفحات خيالية تمامًا، وأيضًا كل الشخوص. بالفعل، في نهايات عقد الستينات كانتا الدائرتان 18 و 19 تتبعان محكمة أحكام، وليس محكمة ابتدائية. بالإضافة إلى هذا، لم يكن هناك وجود لأي محكمة إجراءات جنائية في العاصمة الفيدرالية برقم 41. فيما يتعلق بالأرجنتين الدموية في سنوات السبعينيات، التي تبدو من حين لآخر كخلفية لهذه الصفحات، كم كنت أتمنى أن تكون خيالية أيضًا وأن لم توجد مُطلقًا.

على أية حال، لا يمكنني اختتام هذه الصفحات بدون ذكرى مودة كبيرة لمن عملوا معي في محكمة الأحكام « Q»، على الأخص زملائي في الدائرة رقم 19 : خوان كارلوس ترافيسو، إيفانخيلينا لاسالا، خورخي ريفا، إيدي بيتشوت وكريستينا لارا. وللأخيرة أقدم أيضًا شكري العميق لمساعدتها التي لا تُقدر لدى إيضاح عدد لا نهائي من التفاصيل القضائية والإجرائية التي كانت ضرورية لكي تبدو هذه الحكاية متماسكة ومتسقة. إن كنت أحتفظ بذكرى طيبة من تلك الفترة فأنا أدين به لهم جميعًا.

إ.س.

سؤال عينيها

رواية

إدواردو ساشيري



على خلفية اجتماعية وسياسية أرجنتينية ولاتينية بامتياز، حيث الديكتاتورية والعنف والانقلابات العسكرية، يجد الشاب موراليس نفسه مضطرًا لتطبيق قانون الغاب، لينتقم من القاتل الذي سلبه أعزَّ ما يملك: زوجته.

يحظى موراليس بتواطؤ صامت قبل وبعد موته، كأنما هناك اتفاق بين الأشخاص القليلين المتورطين في هذه المأساة على عجزهم في إنفاذ العدالة والقانون ، رغم أن هذا هو عملهم.

في فصولٍ أشبه بالمشاهد السينمائية يكتب إدواردو ساشيري روايته "سحر عينيها"، ليشعر القارئ أنه يرى الشخوص تتحرَّك وتنطق، كأنها من لحم ودم أمام عينيه، وليست شخوصًا على الورق


ISBN 978-2-947836-26-3

